

القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات حنا مينة

Al Qadhaya Al Ijtema'iyah was Siyasiyah fi Riwayaati Hanna Mina

بمدرسة جامعي لنيل شهادة الدكتوراه

الباحث

شباب انور

تحت إشراف

البروفيسور مجيب الرحمن



مركز الدراسات العربية والإفريقية

كلية اللغة و الأدب و الثقافة

جامعة جواهر لال نهرو

نيو دلهي- ١١٠٠٦٧

2017



مركز الدراسات العربية والإفريقية
Centre of Arabic and African Studies
School of Language, Literature and Culture Studies
Jawaharlal Nehru University, New Delhi - 110067
जवाहरलाल नेहरू विश्वविद्यालय, नई दिल्ली-110067
Gram: JAYENU Tel : 26704253 Fax : 91-11-2671 7525

Declaration

February 03, 2017

I declare that the material in this thesis entitled, **Al-Qadhaya al-ijtimaiyyah was Siyasiyah fi riwayat Hanna Mina (Socio-Political issues in the novels of Hanna Mina)** submitted by me is my original work and has not been previously submitted for any degree to this University or elsewhere.


Shabab Anwar

(Research scholar)


03/02/2017
Prof. Mujeibur Rahman

(Supervisor)
Centre of Arabic & African Studies
SLL & CS
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067


3/2/17
Prof. Rizwanur Rahman

(Chairperson)
Chairperson
Centre of Arabic and African Studies
SLL&CS, Annex Building
Jawaharlal Nehru University
New Delhi-110067

قائمة المحتويات

| | |
|-----|--|
| I | مقدمة البحث |
| 6 | الباب الأول: حنا مينة: عصره وحياته وانجازاته الأدبية والصحافية |
| 7 | ▪ الفصل الأول : دراسة عابرة للأوضاع الاجتماعية والسياسية لعصره |
| 25 | ▪ الفصل الثاني: حياته وثقافته ومكانته |
| 41 | ▪ الفصل الثالث: إنتاجاته الأدبية والصحافية |
| 76 | الباب الثاني: القضايا الاجتماعية في روايات حنامينة |
| 77 | ▪ الفصل الأول: القضايا الاجتماعية في رواياته: دراسة عامة |
| 92 | ▪ الفصل الثاني: تحليل القضايا الاجتماعية في رواياته |
| 148 | الباب الثالث: القضايا السياسية في روايات حنا مينة |
| 149 | ▪ الفصل الأول: القضايا السياسية في رواياته: دراسة عامة |
| 166 | ▪ الفصل الثاني: تحليل القضايا السياسية في رواياته |

| | |
|-----|---|
| 238 | الباب الرابع: روايات حنا مينة: تقييم نقدي |
| 239 | ▪ الفصل الأول: أفكار ونظريات حنا مينة |
| 268 | ▪ الفصل الثاني: القيمة الفنية لرواياته |
| 317 | نتائج البحث |
| 320 | المراجع والمصادر |

مقدمة البحث

القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات حنا مينة موضوع يهدف إلى تحليل نقدي للقضايا الاجتماعية والسياسية التي تحدث عنها حنا مينة في رواياتها. لقد التزم الروائي بالأصالة والصدق في معالجة هذه القضايا. حنا مينة روائي منفرد وعبقري ويحتل المقام الثاني بعد نجيب محفوظ في مجال الرواية العربية، على الرغم من أنه لم ينل حتى شهادة البكالوريوس. جميع إنتاجاته الأدبية عبارة عن تصوير لتجاربه الذاتية في الحياة، فلم يسجل إلا ما رأى وجربه وعاشه. إنه أتحف العالم ثلاثين رواية متميزة، وبها فتحت للرواية العربية السورية آفاقاً واسعة لتمتد وتنتشر في أقطار العالم العربي وأرجائها المعمورة. إنه صور معاناة شرائح كبيرة من المجتمعات العربية، بل نعتقد أغلبها - وبخاصة الطبقة الفقيرة - . إن رواياته تصور واقع العرب المعيش فكلاً الكاتب عايشهم لحظة بلحظة. ولعل هذا هو سرّ الإقبال الكبير على روايات حنا مينة، فكتب حنا مينة عن نفسه وعن عائلته التي تشتدت من لواء اسكندرون، وعن والدته مريانا ميخائيل زكور، قبل أن يمخر عباب الرواية مواجهاً عين الرواية، كما كتب عن العوالم السفلية للمرافيء، ومدن الساحل المفتوحة على أهوال البحر. وانتقم لطفولته البائسة وأخواته الخادمت، وانتقم للقهر والتشرد الذي لقيه في صباه، لكنه انتقام المحب المتعاطف، لا الحاقد الناقم، كما كتب عن فساد النظام الحكومي والظلم والقهر على المواطنين من قبل

العناصر الداخلية والخارجية باسم الانتداب. تُعتبر رواياته "ديوان العرب" في النثر العربي فيما يخص سوريا.

هذا البحث المعنون بـ "القضايا الاجتماعية والسياسية في روايات حنا مينة" يحتوي - ماعدا المقدمة ونتائج البحث - على أربعة أبواب.

فالباب الأول الذي جاء تحت عنوان "حنا مينة: عصره وحياته وإنجازاته الأدبية والصحافية"، يتكون من ثلاثة فصول، الفصل الأول يتحدث عن عصر حنا مينة السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والفصل الثاني يسلط الضوء على حياته وثقافته ومكانته، والفصل الثالث يناقش إنجازاته الأدبية والصحافية، كما يتحدث عن حلقاته الثلاث وبما تمتاز كل حلقة من أسلوب وفكر. وفصلنا القول في رواياته "بقايا صور" و "المستقع" و "الربيع والخريف" و "المصاييح الزرق" و "الشراع والعاصفة" و "المرصد" و "الشمس في يوم غائم" و "الثلج يأتي من النافذة" و "الياطر" و "مأساة ديمتريو" و "ثلاثية البحر"

وأما الباب الثاني فيبحث في القضايا الاجتماعية في روايات حنا مينة، ويحتوي على فصلين: فصل يتحدث عن القضايا الاجتماعية في روايات حنا مينة: دراسة عامة، حيث أشرنا إلى العوامل الاجتماعية في رواياته وهي ثلاثة: الهامشية، والماركسية، والدين، ثم تحدثنا عن الهياكل الاجتماعية من الريف والمدينة، كما قدمنا نماذج من القضايا الاجتماعية في رواياته. وفصل آخر يحتوي على تحليل القضايا الاجتماعية في روايته، من الأمية والجهالة، وقضية الفقر والهامشية، وقضية المرأة، والظم والعطالة.

والباب الثالث يتناول القضايا السياسية في روايات حنا مينة، و فيه فصلان، فصل يحتوى على الحديث عن القضايا السياسية في رواياته: دراسة عامة، أما الفصل الثاني فيقوم بتحليل القضايا السياسية في رواياته، حيث فصلنا القول في الحضور الأجنبي، والحرب، والسلطة، والتنظيم السياسي، والثورة، والقومية والوحدة العربية.

والباب الرابع يقوم بالتقييم النقدي والتحليلي لروايات حنا مينة، فهو يحتوى على فصلين، فصل يتحدث عن أفكار ونظريات حنا مينة، حيث أشرنا إلى كفاحه لأجل الإنسانية، والجهد للتغيير لنيل المستقبل المشرق بواسطة الواقعية الاشتراكية. كما أشرنا إلى عبقريته بوصفه رائد البحر في الرواية العربية، كما هو بمثابة أرنست هيمينجواي للرواية الإنجليزية. وفصل آخر يقوم بتقييم رواياته تقييما فنيا بواسطة أبطاله.

هكذا وصلنا إلى نهاية المطاف، بعون من الله تعالى ثم بالمساعدة العلمية التي تلقيتها من مشرفي البروفيسور مجيب الرحمان في كل حين وأن، والذي أفادني بتوجيهاته القيمة وأرائه الثمينة فيما يخص بالبحث، فأتقدم إليه بأجزل الشكر وأوفر الامتنان. كما أقدم هدية الشكر والامتنان إلى زملائي الدارسين في جامعة جواهر لال نهرو بنيو دلهي الذين ساعدوني في مراحل إعداد هذا البحث. والله والي التوفيق.

شباب أنور

مركز الدراسات العربية والإفريقية

جامعة جواهر لال نهرو بنيو دلهي

03/02/ 2017

الباب الأول

حنا مينة : عصره وحياته وإنجازاته الأدبية والصحافية

- الفصل الأول : دراسة عابرة للأوضاع الاجتماعية والسياسية لعصره
- الفصل الثاني: حياته وثقافته ومكانته
- الفصل الثالث: إنجازاته الأدبية والصحافية

الفصل الأول

دراسة عابرة للأوضاع الاجتماعية والسياسية لعصر حنا مينة

إن البيئة تلعب دورا هاما في تكوين شخصية أي أديب أو كاتب أو فنان، فلها أثر كبير في أعمال الأديب أو الفنان، لأن الأديب يتأثر ببيئته التي يعيش فيها، و أفكاره هي وليد عصره وبيئته. و من هذا المنطلق، فإنه لدى دراسة القضايا الاجتماعية والسياسية في أعمال الأديب حنا مينة تمس الحاجة إلى دراسة الأوضاع و الظروف التي نشأ و ترعرع فيها الأديب. ومن ثم نرى من المناسب أن نقوم بدراسة عابرة لعصر الأديب الذي نحن بصدد البحث فيه؛ ألا هو الأديب السوري " حنا مينة " الذي عاش في منتصف القرن العشرين في خضم الأوضاع السياسية و الاجتماعية و الثقافية.

الأوضاع السياسية لعصره: لا يخفي على الدارس لأعمال حنا مينة خاصة أعماله الروائية أن الأوضاع السياسية تتجلى فيها بكل وضوح، وهي حافلة بدلالات سياسية متنوعة، لأن النصف الأخير من القرن العشرين في سوريا مفعم بحوادث سياسية مختلفة بداية من حكم الأتراك، و احتلال فرنسا، ثم الحرب العالمية الثانية إلى نكبة حزيران لعام 1967م. و لكل من هذه الأحداث نصيبها الملحوظ في أعمال حنا مينة.

وقد مضى على بلاد الشام أو ما نسميها سورية قرون الاحتلال و الحكم الأجنبي منذ زمن بعيد. وقبل الحكم التركي كانت سورية تابعة كلها للمماليك، و كانت الأوضاع سيئة زمن المماليك، لأنهم كانوا غربيي الأطوار من ناحية و من ناحية أخرى أطلقوا أيدي الأمراء للتحكم في إماراتهم و سكانها، و ظل الناس يعانون من جراء سياسة المماليك و سياسة الأمراء. و في تلك الأثناء، كانت هناك الدولة العثمانية التي كانت تطمع في مد نفوذها إلى بلاد الشام و مصر، و فعلا نجح السلطان سليم في التغلب على قنصوه الغوري و السيطرة على بلاد الشام، ثم السيطرة على مصر سنة 1517م.

و لما فاز الأتراك العثمانيون بالحكم على بلاد الشام قاموا بتقسيمها إلى أربع ولايات أو ما يسمونها بالإيالات، و هي كما يلي:

أ...إيالة حلب

ب...إيالة دمشق

ج...إيالة ميديا (بيروت)

د...إيالة القدس الشريف

وكان لكل إيالة والٍ مستقل يخابر الباب العالي رأسا في أمور إيالته، إلا أن الإيالات الأربعة كانت خاضعة لسلطة واحدة عسكرية يقيم رئيسها في دمشق الشام، و عليه إدارة الشؤون العسكرية في سورية كلها.¹

و كانت البلاد تحكم من قبل الدولة العثمانية حكما حازما منظما طغت عليه إقطاعية مستبدة و فساد إداري مرهق، فكان هم الإقطاعيين إرضاء الوالي، و هم الوالي إرضاء السلطان، و كل هذا على حساب الأهالي. و ظلت البلاد منذ مستهل القرن التاسع عشر الميلادي تواجه الفوضى و الاضطراب و الفتن و القلاقل و اختلال الأمن، حتى صارت على شفا الخراب التام، إلا أنها أفاقت من هذا الداء العضال بدخول إبراهيم باشا سورية سنة 1831م فأمن الناس على أرواحهم و أملاكهم و أعراضهم، و أخذ العدل و الأمن ينتشران في نواحي البلاد.

يقول فيلب حتي في كتابه " العرب " (تاريخ موجز) في هذا الخصوص:

" جاء حكم إبراهيم باشا للبلاد الشامية (1830-1840م) فاتحة عهد جديد فتحت فيه البلاد أبوابها للبعثات والإرساليات الأجنبية، فكثُر فيها عدد المعلمين و الأطباء و الزائرين و السياح من فرنسا و بريطانيا و أمريكا، و أنشئت في البلاد على أثر ذلك مدارس و مكاتب و مطابع أجنبية ووطنية، وتشكلت جمعيات علمية و أدبية و ترجمت

¹ إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر، حياته و شعره: سمير بدوان قطامي، ص 12-13.

كتب دينية و فلسفية و علمية، وكان من نتيجة ذلك أن تلقحت العقلية العربية بلقاح الفكر الأوروبي الحديث"¹

إلا أن الحروب المستمرة مع الدولة العثمانية و الثوار الذين كانوا مسيرين من قبل تركيا و الدول الأوروبية رأت خطر استيلاء محمد علي أملاك الدولة العثمانية، والتي أدت إلى إثارة سخط العثمانيين و بجانب آخر أصدر إبراهيم باشا قرارا يستوجب نزع السلاح من الشعب السوري، و السوريون ضاقوا به، كما طبق قانون الجهادية (التجنيد) على شباب تعودوا الكسل و الخمول، فكان لهذا القانون أثر سيئ على الشعب السوري، فاستغل الأتراك هذه الفرصة و أثاروا ثورة في سورية و غزوها و جهزوا الجيوش لمساعدتها . و الدعوة إلى المساواة بين الرعية و إعطاء المسيحيين حقوقهم من قبل إبراهيم باشا أدت إلى ثورة العامة من الناس ضده. فاضطر إبراهيم تحت ضغط الدول الأوروبية من الخارج و الثورة الأهلية من الداخل، إلى الخروج من سورية.

و بعد خروج إبراهيم باشا من سورية (بما فيها لبنان) اضطرت تركيا لإعادة الولاية في جبل لبنان لآل شهاب، و تم تعيين الأمير بشير قاسم شهاب، و كانت معاملة هذا الأمير سيئة مما أثار ثائرتهم، و مما زاد الطين بلة أن الأتراك و الإنجليز قاموا بتهيج الدروز ضد الموارنة، في حين كان الفرنسيون يقوون الموارنة طمعا في الاستيلاء على البلاد، و

¹ فيليب حتي: العرب تاريخ موجز، ص 272 مع تغيير يسير.

قد تمادى الموارد ككثيرا و تعجرفوا حتى على النصارى من الطوائف الأخرى. و في سنة 1841م وقعت مذابح كبرى في لبنان بلغت اضطرابات الطائفية قمتهأ، فقد أحس الباب العالي أنه من الأفضل تعيين حاكمين أحدهما مسيحي و الآخر درزي إلا أنه لم يمه المشكلة و التي نتجت عن حرب سنة 1845م.

و لم تهدأ الاضطرابات الطائفية في بلاد الشام (جبل لبنان) إلا بعد التدخل الأجنبي في شؤون الدولة العثمانية بحجة حماية الأقلية المسيحية، و الذي نتج عن إنشاء حكومات داخل الحكومة الأصلية، و إلى أن يصبح رؤساء الدين من المسيحيين يراجعون العمال في شؤون طوائفهم التافهة و المهمة. فانفتح الباب على مصراعيه أمام الدول الأجنبية الثلاثة روسيا و فرنسا و أمريكا. و أصبح قنصل فرنسا الحاكم المتحكم في قضايا الكاثوليك، و قنصل بريطانيا مهتما فيما يعرض للبروتستانت و الدروز. يقول محمد كرد علي: و غدا أهل كل نحلة يجعلون من الدولة التي ينتمون إليها معقد آمالهم... كما فتحت هذه الحادثة لجميع السوريين أبواب الأخذ عن الغرب".¹

و أما فيما يتعلق ببقية أنحاء سورية في أواخر القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين فقد حكم فيها السلاطين الحاكمون و هم عبد العزيز و عبد الحميد الثاني و محمد الخامس(رشاد). و حكم عبد العزيز(1861-1876م) و كان مشهورا بالعقل و الدراية

¹ خطط الشام م3، ص95.

مهتما بالقوانين و الأنظمة في أول أمره، و لكنه سرعان ما وضع كل قوانين الدولة تحت قدميه نتيجة للأوضاع السياسية واضطر الأتراك لخلع عبدالعزيز و تنصيب مراد، و كان مريضا فلم يستطع تسيير دفة الحكم، فجاءوا بعبد الحميد الثاني بدلا منه سنة 1876م على أن يعلن الدستور و ينشئ مجلسا نيابيا. و فعلا سار عبد الحميد بحسب مطالب زعماء الإصلاح، فأعلن الدستور، و أنشأ مجلسا نيابيا، و لكنه عندما رأى استغلال المجلس النيابي عطل الدستور و ألغى المجلس النيابي و شرد بعض أحرار الأتراك إلا أنه اضطر لمنح شعبه دستورا لمرّة ثانية في 24 يوليو سنة 1908م نتيجة لقيام الثورة العسكرية، ثم خلع سنة 1909م و قد اختطف و اغتيل و عين بدلا منه محمد الخامس.

و دخلت الدولة العثمانية في حروب مع إيطاليا سنة 1911-1912م و مع الدول البلقانية سنة 1912-1913م ، و فقدت آخر ولاياتها في أفريقيا و طرابلس الغرب. و أعلنت النمسا يوم 28-08-1914م الحرب بسبب مقتل ولي عهد النمسا و قرينته، و دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا في شهر نوفمبر من السنة، و أعلن جمال باشا حاكما على سورية، فدخل جبل لبنان في 22 نوفمبر سنة 1914م. و كانت هذه الحرب العالمية الكبرى، و بعد عراق دامي خرجت تركيا من الحرب مهزومة و خرجت كذلك من بلاد الشام محلية هذه البلاد لتدخل الإنجليز و الفرنسيين، فتخلعت من التسلط و

الاستبداد التركي لتقع تحت نير الاستبداد و التسلط و الاستعمار الأوربي الشرس، الذي ما تزال البلاد العربية تعاني من آثاره حتى عصرنا هذا.

هكذا دخلت سورية في برائن الاحتلال الفرنسي الذي دام حتى عصر الروائي حنا مينة و تأثرت شخصيته الأدبية والفكرية بآثاره من الحكم الفرنسي المباشر ثم الانتداب الفرنسي.

و بعد أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، و فازت الدول الحلفاء، وجدت فرنسا وهي إحدى دول الحلفاء ضد الألمان و تركيا، أن هذه البلاد تشكل وحدة متكاملة جغرافيا و اقتصاديا و اجتماعيا فعمدوا إلي تقسيمها وحدات حتى يستطيعوا السيطرة عليها و قاموا بتوسيع لبنان على حساب سورية، وكان التقسيم يخضع للمصالح التجارية بحيث ألحقت فيه المدن الساحلية مثل الطرابلس و بيروت و ميذا و صور و مدينة بعلبك ومعها منحة ثمينة وهي سهل البقاع الخصب، هكذا تم توحيد سورية و لبنان في الاحتلال الفرنسي.

و الإدارة الفرنسية بصورة عامة كانت تفتقر إلى الخبرة في كثير من المسائل التي عرضت لها، إذ كانت الكثرة الغالبة من المواطنين الفرنسيين ليست أهلا للقيام بواجباتها في بلاد مثل سورية وعند قوم مثل سكان هذه البلاد، والذي أوجد كثيرا من الاستياء في نفوس الناس... ولكن ماذا فعل هؤلاء الموظفون؟ لقد ساروا على نفس المسار الذي سارت عليه الدولة التركية بل بأبشع نمط، إذ فرضوا على الوطنيين نظاما قائما على

رقابة الشرطة والأحكام العرفية، ومارسوا قسوة استبداد وكمّوا الصحافة الوطنية ومدوا الصحف المأجورة بالمال، وعملوا على خنق كل ظاهرة بلا فصاح عن الشعور العربي، وما بقي في وظائف الإدارات العامة وفي عضوية المجالس المحلية إلا الأفراد الذين جربوهم ووثقوا من انقيادهم لهم، كما راحوا يثيرون مخاوف النصارى والأقليات الأخرى لكي يوسعوا شقة الخلاف بينها وبين الأكثرية الإسلامية¹.

و في سنة 1920 تم الإعلان عن استقلال سورية و تعيين الأمير فيصل ملكا بقرار من المؤتمر السوري². و في نفس السنة أيضا و في إطار إعادة تحديد الجغرافية السياسية العالمية أعلنت وصاية فرنسا على القطر العربي الذي خضع حتى حدود سنة 1941م إلى شكل من أشكال الاستعمار سعى إلى طمس الهوية العربية والتفريط في وحدة القطر الترابية. وفي سنة 1939م مع بداية الحرب العالمية الكبرى الثانية انفصل لواء اسكندرون عن " الوطن الأم"³.

وأما الاستقلال الحقيقي الفعلي فلم يتحقق إلا عند مغادرة الفرق العسكرية الفرنسية والإنجليزية سورية سنة 1945-1947 م في حين أن الوصاية الفرنسية رفعت منذ سنة 1941م، وبذلك أضحت الجمهورية السورية عضوا مؤسسا لجامعة الدول العربية منذ سنة 1945م. ومنذ سنة 1949م عاشت سورية حياة سياسية لا تخلو من الاضطراب،

¹ يقظة العرب: ص 408-409، نقلا عن " إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر، حياته وشعره: سمير بدوان،
² أنظر الموسوعة العلمية المختصرة ص 200.
³ رواية المستنقع: حذا مينة، ص 33-374

فقد أقال حسين الزعيم الرئيس الأول للجمهورية وفرض حكما دكتاتوريا لم يدم طويلا؛ إذ سرعان ما حل محله على رأس الدولة العقيد سامي حناوي.

كما استطاع العقيد أديب شيشكلي أن يقود حزبه السياسي "حركة التحرر العربي" أيضا، وأن يجري إصلاحات سياسية هامة بعد ما أسقطت الحكومة الدستورية سنة 1951.¹ ومنذ ذلك تتابعت الانقلابات العسكرية، تحركها الاتجاهات السياسية المختلفة المتباينة أحيانا. ففي سنة 1957م رفضت سورية الانضمام إلى حلف بغداد وسانددت قرار تأميم قناة السويس الذي اتخذته السلطة السياسية في القاهرة. ولكي يتخلص عناصر وحزب البعث في السلطة من الشيوعيين اقترحوا الوحدة مع مصر سنة 1958م، ولكن دولة الوحدة لم تدم طويلا. ففي سنة 1961 و على إثر انقلاب عسكري جديد، انفصلت سورية عن الجمهورية العربية المتحدة، لكن حزب البعث العربي الاشتراكي تمكن من الانفراد بالحكم على إثر الانقلاب العسكري الذي قاده نور الدين الأتاسي سنة 1963م واقترح على مصر من جديد إعادة بناء دولة الوحدة، لكن المحاولة لم تنجح. وفي سنة 1972م دعا حزب البعث " القوى التقدمية" للمساهمة في تسيير شؤون البلاد وذلك في إطار

¹ Grand Larous encyclopedique, art syrie, 1 ed. Paris 1964, (1)
نقلا عن حدّا مينة كاتب الكفاح والفرح : محمد الباردي ص 12.

الجبهة الوطنية التقدمية التي تجمع بين الشيوعيين الاشتراكيين واتحاد الاشتراكيين العرب والحزب الاشتراكي العربي والحزب الشيوعي السوري.¹

هذه هي نبذة مختصرة عن الأوضاع السياسية حتى عصر الكاتب الروائي حدّا مينة، ولكن نرى من المناسب أن نقف عند هذا الحد قبل أن نشير إلى المأساة العربية المتمثلة في نكبة حزيران في الخامس، سنة 1961م، لأن لهذه النكبة أثرا كبيرا في روايات حدّا مينة، وكان متحمسا جدا في الخوض. كما يكتب بنفسه متحدّثا عن هذا الحادث وكان في البحر:

"في الخامس من حزيران 1967 اندلعت الحرب بين العرب وإسرائيل، كبرت اللهفة إلى الوطن، ضوى الجمر داخل الحشاشة، صارت الأذن لصيقة المذيع، والأخبار متضاربة. كنا قبل أيام من اندلاع الحرب نعقد اجتماعات يشترك فيها الطلاب العرب والأجانب، لشرح عدالة القضية العربية، وعدوانية إسرائيل. كانت أوداجنا تنتفخ غرورا مبنيا على حساب المئة مليون عربي، وقد تبرع طالب عربي يدرس الرسم، فوضع خريطة للوطن العربي، تنطلق منه أسهم نحو إسرائيل التي تبدو بقعة صغيرة محاصرة على الخريطة، تكفي رؤيتها حتى يوقن الرائي ألا حياة ولا نجاح لها، وسط هذه الأسهم العربية المنطلقة إليها، والتي تدل على القوات المسلحة، حتى يظن المرء أن محو هذه "

¹ Annuaire del, Afrigue et du moyem, orier, 1979, art syrie. نقلا عن "حدّا مينة كاتب الكفاح والفرح : محمد الباردي، ص، 12.

الدويلة" سهل كشرب كأس من الماء. لذلك، عند اندلاع الحرب، كانت مسألة النصر أمرا مفروغا منه، وكنا نرمي كل خبر مضاد بالكذب والتلفيق، وقد استطعنا أن نخرج بمظاهرة كبيرة في قلب بودابست تحمل شعارات تؤكد أننا سنمحق الدولة الصهيونية. وتوقفت هذه المظاهرة أمام السفارتين السورية والمصرية، وألقيت خطابات من وحي الإذاعات العربية التي كنا نسمعها تلك الأيام.¹

ولكن انهزم العرب في هذه الحرب التي دامت لمدة ستة أيام انهزاما فاشلا، لأن قوتهم في الحرب الجوية كانت ضئيلة جدا، بينما ساندت القوى الجوية الأمريكية الفرنسية فقدفت النيران من السماء على قوات العرب على الأرض، هكذا انتهت المعركة بفشل ذريع قبيض للعرب، وقد حزن حنّا مينة حزنا شديدا إثر وقوع هذا الحادث المرير، كما يقول مستطردا:

"لم نكن ندري أن حماسنا اللاهب سينطفئ خلال ستة أيام، وأن فرحنا سينقلب إلى حزن، وأن ما حسبناه نصرا سيتحول إلى هزيمة، لذلك فإن وقع الكارثة كان صاعقا، مذهلا، مؤسسا، بلغ مداه بإعلان استقالة الرئيس عبدالناصر، التي أبكتنا جميعا، بغير تحفظ ولا

¹ نقلا عن "هكذا قرأت حنا مينة": سمر الحمارنة، ص 30_31

مدارة. لقد بكينا ليلة كاملة، ولم تجف دموعنا حتى حملت إلينا الأنباء ضخامة المظاهرات في مصر، وعودة عبد الناصر عن الاستقالة.¹

فقرر الروائي أن يغادر المهجر راجعا إلى بلاده سورية وبالفعل رجع. ولهذه الحوادث والانقلابات السياسية أثر قوي في أعماله الأدبية ومن ثم ذكرناها بدون سير أغوارها.

الأوضاع الاجتماعية والثقافية لعصره:

وعندما ندرس الحالة الاجتماعية لبلاد الشام نجد أنها تتميز عن بقية أهل الأرض بتعدد الديانات ، فليس في المسكونة بلاد صغيرة مثل هذه تضم العدد العديد من الطوائف والأديان، وإذ نجد فيها المسلمين وأشهرهم السنة والشيعة . كما نجد المسيحيين وهؤلاء فرق عديدة منها الروم الأرثوذكس والروم الكاثوليك واللاتين والسريان والموارنة والبروتستانت. وليس على الأرض كلها أناس من طائفة الروم الكاثوليك والموارنة إلا في بلاد الشام. كما نجد اليهود ومنهم طائفة السمرة. وكذلك والدروز وهم طائفة باسلة يسكن أفرادها جبال حوران وجبل لبنان، وديانتهم سرية. ومن غريب أمر هذه الطوائف أن بينها أربعة لا وجود لها في غير بلاد الشام وهي الدروز والإسماعلية والسمرة والنصرية.²

¹ هكذا قرأت حنا مينة : سمر الحمارنة، ص 31.

ومن الحقائق التي لا تجدد أن الحالة الاجتماعية تتأثر إلى حد كبير بالحالة السياسية، وقد ذكرنا فيما سبق الأوضاع السياسية الحرجة، فيدل هذا على أن الوضع الاجتماعي في بلاد الشام ستكون سيئة لفساد الإدارة والأنظمة والأوضاع الاقتصادية والمالية المتدهورة، ولتفشي الجهل، وفقدان الإحساس بالوطن في وجود الاحتلال والاستعمار، لأن المستعمر يدر الحليب ولا يطعم البقرة.

ولقد ترك تدهور الوضع السياسي وعدم الاستقرار تأثيراً عميقاً في الحياة الاجتماعية، ومن ثم فصلنا القول في عصر الكاتب السياسي. وقد عاش حدًا مينة مرحلة تاريخية حساسة ودقيقة، وهي مرحلة ما بين الحربين، وبعد الحرب العالمية الأولى شد أزر الاحتلال الفرنسي وأصبح الاندلاب الفرنسي سببا في تلك الأزمة الاقتصادية التي أساءت إلى حياة الريف السوري. فقد غزا الحرير المصنع الوارد من فرنسا السوق الداخلية فكسد الإنتاج المحلي وازدادت حياة الفلاحين قسوة.¹

والسبب يرجع إلى انقطاع تربية دود القز وإغلاق أصحاب الضيعات دفاترهم في وجود الفلاحين المحتاجين كما أغلق مختار القرية دكانه خشية أن لا يفلح هؤلاء في دفع ديونهم.²

⁽²⁾ بقايا صور: حدّامينة ، ص 358.

⁽¹⁾ حسر اللثام 5، 6. نقلا عن " إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر حياته و شعره: سمير بدوان قطامي، ص 38، بقايا صور: حدّامينة ، ص 358.

⁽²⁾ إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر حياته وشعره: سمير بدوان قطامي، ص 33.

وبلغ السيل الزبي عندما تسربت الأزمة الاقتصادية العالمية (1939م) عبر الاندلاب الفرنسي لتزيد الوضع الاجتماعي تدهورا فارتبكت حركة النقل البحري في الموانئ، وأحيل آلاف العمال على البطالة، وظلوا يسعون في الأسواق بحثا عن أشغال تافهة لسد الرّمق، كما كسدت بضاعة التجارة فظل شبح الإفلاس يراودهم.¹ وقد أثرت هذه الأزمة الاقتصادية عميق التأثير في مدينة اسكندرونة خاصة حيث قضى الكاتب حدّا مينة جزء ملحوظا من حياته، وبذلك أصبحت تربته خصبة نما فيها التنظيم النقابي وتبلور فيها الوعي السياسي.²

لقد أدى التدهور الاقتصادي من جراء اكساد السوق المحلي والعالمى في المصنوعات وخاصة في مصنوعات الحرير إلى تدهور الأوضاع الاجتماعية أيضا علما أن بلاد الشام اشتهرت بجودة منتوجاتها الحريرية، فلم تستطع الوقوف في وجه المنافسة الأوربية والصناعة الأوربية التي كانت تعتمد على الآلة وتنتج كميات هائلة يوميا وبأسعار رخيصة نسبيا، في حين كانت صناعة بلاد الشام تعتمد على الجهد الفردي الإنساني، إذ كان الثوب يحتاج مدة طويلة حتى ينتج، وهذا يجعل سعره أعلى من سعر مثيله الأوربي. ولا تنسى كذلك مزاحمة الحرير الصناعي الياباني الذي غزا العالم في تلك الفترة، معتمدا

¹ حدّامينة كاتب الكفاح والفرح: محمد الباردي، ص 11-12.

² المستنقع: حدّامينة، ص 203، 211، 279.

على الثورة الصناعية، وضرب هذه الصناعة في بلاد الشام. أما استغلال المواد المعدنية فقد كاد يكون معدوماً مع وفرة هذه المواد في بلاد الشام.¹

وزاد الطين بلة في عهد الاحتلال الفرنسي وزادت البلاد تدهوراً في الاقتصاد فلم يفعل الفرنسيون أي شيء لمصلحة البلاد التي دخلوها أو مصلحة أهلها، وهذه عادة الاستعمار دائماً، بل سعوا إلى تقسيمها بحسب مصالحهم - الخاصة، كما سبقت الإشارة إليها، والذي فعلوه في مجال الاقتصاد أنهم أوجدوا عملة جديدة للبلاد الواقعة تحت انتدابهم، قائمة على أساس الفرنك، ففرضوا على البلاد نظاماً نقدياً ضعيفاً وغير مستقر، جر وراءه الخسائر والهبوط في القيم. وقد سارت فرنسا على أسلوب ربط النقد السوري بمصرف فرنسي بشروط فيها تقع لمساهيمه الفرنسيين على حساب الاستقلال المالي لسوريا، كما أبدت تحيزاً ماثلاً في منح الحقوق والامتيازات الاقتصادية، وكثيراً ما أساءت استعمال السلطة الحكومية لمنفعة الشركات الفرنسية أو أصحاب الامتياز من الفرنسيين.²

كما نرى هذه المرحلة التاريخية تشهد مجموعة من الآفات تعكس سوء الأوضاع الاجتماعية وتدهورها، فقد رسمت سنوات الجراد والوباء والمجاعة صورة قائمة للمدينة

¹ المستنق: ص 173.
² المستنق: حنًا مينة، ص 14.

والريف في سورية. ففي بعض المدن دفع البؤس الاجتماعي بالبعض إلى الانتحار¹ وحمل الريف السوري الجوع والمرض والخرافة وظلم الإقطاع في كفة أخرى، وفي عصر الفساد الإقتصادي يزداد الفساد الأخلاقي والاجتماعي. فقد أضحى الفساد الأخلاقي هَوّاً يثير في نفوس الناس خوفاً مستمراً، كما عاشت أسرة المؤلف في خوف مستمر فقد طُلت الجارة من زوجها لأن اللصوص اغتصبوها.² ومع ذلك فقد تحسنت الأوضاع الاقتصادية تحسناً نسبياً قبيل الحرب العالمية الكبرى الثانية، فقد استعادت الموانئ التجارية شيئاً من حركتها مع إعادة تصدير الحبوب إلى فرنسا وخروج عمّالها من بطالتهم.³

وأما المرأة فلم يكن لها أية مكانة في بلاد الشام حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، فهي مكبلّة بقيود ثقيلة من الجهل والغباوة والعبودية، ولم يكن يسمح للبنات أن تتعلم إذ لم يكن هناك مدارس للبنات وإلا فيما ندر... وقد حاول بعض المفكرين الدعوة إلى تعليم المرأة. والحقيقة أن بطرس البستاني (1819-1883) هو أول من دعى في الأقطار الشامية إلى وجوب تعليم المرأة، ورفع مستواها، وذلك في خطاب ألقاه سنة 1869، وفي هذا الخطاب، وصف بشكل عام حالة المرأة وأطلق فيه دعوة حرة إلى إنارتها بنور العلم. كما يقول أنيس المقديسي:

¹ بقايا وصور: حدّا مينة، ص 104

² المستقع: حدّا مينة، ص 279.

³ يقظة العرب. أنطونيوس، ص 409-410.

" كم امرأة بين الكرات الكثيرة (الألوف المؤلفة) فى بلادنا تعرف القراءة؟ وكم نرى مدرسة أقيمت في بر الشام لأجل تعليمهن؟ أو ليس من ينكر احتقارهن وجهلهن في الدين والدنيا كمن يحاول إنكار التنفس في رابعة النهار؟" ¹

وقد وقف عدد كبير من المفكرين والأدباء يناصرون المرأة، من أمثال سليم البستاني، والشدياق، ويعقوب صروف وجورجي زيدان، وشبلي شميل وأديب إسحاق وغيرهم.

اللهم إلا أن حالة المرأة تحسنت فيما بعد الحرب العالمية الثانية، ووصلت الخيرات من الإصلاحات من مصر إلى سورية، فبدأت حالتها تتحسن رويدا رويدا، و رأينا المرأة المعاصرة للكاتب في السبعينات من القرن العشرين الميلادي تستغل الوظائف الحكومية، فالدكتورة نجاح عطار زميلة الكاتب في العمل في وزارة الثقافة وهي كاتبة وأديبة وذات ثقافة واسعة كما تحدث عنها حدًا مينة بنفسه.

وأما معاملة الرجل مع أولاده ، فقد كانت تتسم بالروح الدكتاتورية، ونسبة عدد المثقفين كانت ضئيلة جدا، فالمجتمع غير المثقف لا يحسن المعاملة فيما بينه، سواء أكان الزوج أم الزوجة، أكانت الأولاد أم نوي الأولاد أم نوي الأرحام و أولي القربات.

وأما على المستوى الثقافي، فقد أدى تأسيس جامعة دمشق سنة 1924، وجامعة حلب و تركيز المجتمع العلمي بدمشق سنة 1919 إلى نمو حركة فكرية أنتجت نخبة مثقفة

¹ (الفنون الأدبية: ص 24 وما بعدها.

عمقت بدورها الوعي السياسي والإجتماعي الذي أصبح ظاهرة في سورية تفسر بها تلك الانقلابات العسكرية الكثيرة وتلك الصراعات السياسية التي ميزت حياة القطر السياسية بين سنة 1940 و 1972م. والجانب الأدبي والصحافي أيضا يعتبر من مظاهر الثقافة، فالعمل الصحفي لم يذق حلاوته إلا بعد منتصف القرن العشرين، ولكن في عصر الكاتب حذًا مينة العملي بدأت الصحافية العربية تتطور بشكل مذهل، خاصة بعد ما تحمس الاشتراكيون في مجال السياسة، لأن الماركسية أو الاشتراكية العلمية التي وصلت نعراتها في القطر العربي اتخذت العلم والمعرفة طريقاً لتحقيق الثورات السياسية والإصلاحات السياسية.

وعلى هذا المنطق، نرى أن عصر حذًا مينة عصر يشكو من الاضطرابات الداخلية والخارجية في مجال السياسة والاقتصاد، وسوء الوضع السياسي والاقتصادي بسبب الفساد الاجتماعي، وقلة الاعتناء بالتعليم تؤدي إلى الأزمة الثقافية، الحرب، والاحتلال والاستعمار، والإقطاعية، وسوء المعاملة فيما بين الناس... كلها يكون عصرا في أمس حاجة إلى إجراء الإصلاحات والدعوة إلى العون الاجتماعي، ويلقي العصر هذه المسؤولية على كواهل الجميع، سواء كان المواطن سياسيا أو صحافيا أو فلاحا أو عاملا أو كاتباً أو أديبا يستوجب على كل منهم أن يلبوا نداء الإصلاحات واستجابة الدعوة إلى العدل الاجتماعي

الفصل الثاني

حياة حدّا مينة وثقافته ومكانته

هو أديب سوري ولد في اللاذقية عام 1924م وكان ولداً وحيداً لعائلته وهو أخ لثلاث بنات، والدته مريانا ميخائيل زكور بكت عند ولادته من الفرح بينما كانت قبل ذلك تبكي من الحزن بسبب ظلم ذوي القربى وانهائها بأنها لا تلد إلا البنات واحدة تلوى الأخرى، ويزعم أنه ولد بالخطأ أو كيفما اتفق فيقول "زقت أمي بثلاث بنات كنّ في ذلك الوقت ثلاث مصائب، فطلبت من ربها أن ترزق بصبي فجئت أنا هكذا كيفما اتفق"¹. وقبل الحديث عن حياة حدّا مينة وثقافته نرى أن نقدم خلفية أسرته ثم نشرع في البيان عن نشأته وثقافته.

خلفية أسرته: إن أسرة حدّا مينة هي أسرة مهمشة عاشت في ظل فقر مدقع، وظلت طوال سبع عشرة سنة متنقلة بين لواء اسكندرون و"اللاذقية" في حالة من اليأس والشقاء. ففي سنة 1924م، قبيل ولادة الكاتب مباشرة، غادرت الأسرة اللاذقية لكي تستقر في قربتها الأصلية في اللواء "السويدية"². لكن حياتها لم تطب هناك فسرعان ما أحست بالغبطة، وقد فارق أبوه الحياة، وأرهقها مختار القرية التي كانت تشتغل في

¹ هكذا قرأت حدّا مينة: سمر الحمارنة، ص 13.

² السويدية مدينة في لواء اسكندرون التي تنازلت عنها فرنسا لتركيا عام 1939م.

مزرعته بظروف العمل القاسية فانتقلت إلى القرية لكي تعيش فترة صعبة من حياتها في قرية بعيدة عن المدينة هي "قرية الأكبر" حيث أصيب أفرادها بمرض الملاريا، وحيث ظل الأولاد مع أمهم في عزلة مقبلة على إثر مغادرة الأب لهم، فلم يجدوا مأوى لهم سوى أغصان شجرة حمتهم قبل أن يحميهم الفلاحون قبل أن يجدوا اللقمة في إحدى المساجد. وقد نكبتهم سنة الجراد" كما نكبت غيرهم من الفلاحين. فلقد أجبرهم مختار القرية على مكافحة الجراد وهم لا يملكون أرضا ولا يحصدون زرعاً، وكادت حياتهم تسوء أكثر لولا تدخل أحد المعارف من الجنود صدفة فانتقم لهم من قسوة المختار وظلمه.¹

ولقد انتهت هذه المرحلة الصعبة من حياة الأسرة بثورة الفلاحين على ظلم الإقطاع يصفها الكاتب بإسهاب في روايته "بقايا صور" وبناتها بدأت مرحلة جديدة بحثاً عن لقمة العيش.

وفي اسكندرونة عاشت الأسرة مدة تناهز السنوات العشر (1929-1939)، وقد عرفت فيها بداية الاستقرار، إذ استطاعت أن تبني كوخاً في حيّ الصاز أو "حيّ أبناء السويدية" وهو حيّ الهامشيين يقطنه البطالون والسُّكاري والصوص. وعن انفصال اللواء عن الوطن الأم ودخول الأتراك إلى مدينة اسكندرونة اختارت الأسرة أن تهجر إلى مدينة

¹ (بقايا صور: حذاء مينة، ص 209، 229، 235، 312، 328، 345، 356، 357).

اللادقية حيث يعيش عمّان للكاتب. لقد عاشت أسرة حدّا مينة إذن مرحلة صعبة بين 1922 و 1949. فلقد كان الأب سيئ الحظ، يلهث دائما وراء " رغبة الخيال".¹ ورغم المهن المختلفة التي مارسها فإنه لم يفلح أبدا في إتقان أي منها، ذلك أنه كان يجد دائما الفرصة خلال الانقطاع عن هذه المهمة أو تلك لكي يستريح من عناء الجري وراء رغبة الخيال في بعض الحانات المبتذلة²، فلقد كان رجلا مقبلا على اللذة، نهما كثير المغامرات الجنسية. وفي المدينة لم يتغير سلوكه، ذلك أنه كثيرا ما يكون في حالة سكر وإعياء تثير في نفس الإبن ضربا من الخجل والكره.³

هكذا قضى القدر له أن يجد أبا يخلو من كل عاطفة و إحساس بالمسؤولية تستبعده غرائزه الجنسية وإقباله على السكر، وأمّا عاشت يتيمة في السويدية وعملت خادما في بعض المنازل مع أختها، وحتى عندما تزوجت ظلت تشتغل بصحبة بناتها لدى العائلات الثرية تساعد زوجا منكودا متحملة في ذلك الإهانة والفقير.⁴

ومن خلال تتبعنا لحياة هذه الأسرة الفقيرة، يمكن أن نستنتج إذن أن أهل حنا مينة حدّا مينة عاشوا دائما على هامش البنية الاقتصادية في المدينة والريف. فقد ظلوا من قرية الى أخرى وظل الأب يترك مهنة لأخرى وهم في ذلك يبحثون جميعا عن الحماية من كل

¹ بقايا صور: ص 72.
² المصدر السابق، ص 73.
³ المستنقع: حدّامينة ص 105.
⁴ بقايا صور: ص 102.

أشكال الخصاصة والجبر. والخوف كان قدرا يهدد حياتهم الاجتماعية ويدفع بهم في أحضان الفقر والضيق و الاضطهاد فلا مرد لنفوذ الإقطاع والدرك والأمرأء.¹ . وقد أشرف بؤسهم على الخصاصة أيضا و بخاصة أثناء الأزمة الاقتصادية العالمية إلى درجة أن إحدى عشيقات الأب وقفت إلى جانبهم تمد إليهم يد المساعدة طوال سنوات صعبة ثلاث.² كما كان لمناصرة أحد المعارف من الجنود لهم أعمق الأثر في حياتهم جعلهم يشعرون بشيء من الطمأنينة وقد حماهم من ظلم الاقطاعيين فكانت تلك المناصرة التحية الأولى التي تلقتها العائلة في حياتها البائسة.³

وفيما سبق من المعلومات يمكن أن نستنتج منها أن أسرته كانت فقيرة يسودها اليأس وتخيم عليه التعاسة ويشوبه التفكير غير المنطقي والمتخلف الذي نراه واضحا في المجتمعات الفقيرة في أي مكان في العالم.

حياته وثقافته:

و في هذه الأسرة الفقيرة ولد حنا مينة حذًا مينة ونشأ و شب في حالة من الفوضى الأسرية، وللوقوف لدى نشأته و حياته عبر السنين يجدر بنا أن نقسم حياته إلى أربع مراحل مختلفة، وهي:

¹ بقايا صور: حذًا مينة، ص 46

² بقايا صور: حذًا مينة ص 293

³ المستنقع: حذًا مينة، ص 188.

المرحلة الأولى: هذه المرحلة تضم الفترة ما بين 1924 و 1948م. وهي تبدأ منذ ولادته في 1924 في مدينة اللاذقية الساحلية. عاش حذًا مينة طفولة مدللة¹ كان ابن الوحيد بين أخواته. وفي السابعة من عمره سجلته أمه في مدرسة أرثوذكسية وبذلك حققت أملها في أن ترى وحيدها يسعى إلى فكّ الحرف إذ لا أحد في العائلة قادر على ذلك، بل في الحي كله. وفي السنة الرابعة من تعليمه الابتدائي ينتقل إلى مدرسة دينية أخرى هي المدرسة الرشدية و فيها يوفق امتحان الشهادة الابتدائية سنة 1936م وهي الشهادة الوحيدة التي حصل عليها والتي تعتبرها الأم أرقى شهادة في سورية.²

وعند ذلك الحد من الدراسة غادر المدرسة نهائيا لكي يشتغل في أحد المستودعات. وقد ساعده على ذلك صديقان شجاعان هما الأخوان قلفاظ بعد مشاجرة دموية مع بعض العمال الذين يرفضون تشغيل الأحداث عوضا عنهم. و بذلك وضع يده على الحديد ودخل دنيا العمل وودّع الدراسة في الثانية عشرة من العمر. لكن العمل في الميناء أرهقه فكلفه رئيسه، بعد حادثة طريفة، تسجيل الأكياس وبذلك أصبح "كاتبًا" حسب عبارة الأم.³ وبعد شهور ترك العمل في الميناء فاضطر للعمل لدى عائلة ثرية كلفته برعاية أحد أطفالها. ومنذئذ لم يعد يجد حرجا في أن يبحث عن العمل في الميناء أو في الكراجات، في البحر أو في الريف فاشتغل محضرا مساعدا في إحدى الصيدليات و صانع حلاق،

¹ بقاياصور: حذًا مينة، ص 58.

² الشراع والعاصفة: حذًا مينة، ص 6، و "هواجس في التجربة الروائية" ص 81.

³ هواجس في التجربة الروائية: حذًا مينة، ص 60.

وبائع خضر كما اشتغل في مقهى وفي ملعب للتنس، وفي أحد الحقول كما باع الجرائد أيضا قبل أن يصبح في السابعة عشرة من عمره " رجل مهنة" ففي مدينة اللاذقية فتح قرب الثكنة قاعة للحلاقة، وقد ساعدته في ترتيب هذا العمل أخته قدسية "أمه الصغيرة" لكن الدكان لم يحتو إلا على كرسي واحد و امرأة، ولذلك لم يكن يؤمه إلا الجنود الفقراء.

وهناك قصة طريفة فيما يتعلق بوظيفة أو مستقبل حنا مينة، فقد رأت أمه حلما أن تبعثه إلى المدرسة ، وعندما تحقق حلمه ووجد القبول في مدرسة الطائفة الأرثوذكسية تنبأت له إحدى الكاهنات التي تدعى بأوجينيي، بمستقبل باهر، بأنه سيصير كاهنا أو شرطيا، ولكنه صار حلاقا، و مرّ بأوضاع حرجة في سبيل لقمات العيش، تقيم أولاده عند مؤجر الدراجات، كما سبق البيان.¹

و في سنة 1948م غادر حنا مينة اللاذقية متوجها إلى بيروت حيث أمضى بعض الشهور قبل أن يستقر في العاصمة، دمشق، محرر في جريدة الإنشاء، وبذلك يبدأ مرحلة جديدة من حياته.

المرحلة الثانية: وهي فترة ما بين 1948م - 1949م . تبدأ هذه المرحلة من حياته في مدينة بيروت، حيث ظل متصلا بالحياة الثقافية والأدبية في وطنه عن طريق المراسلة، ولذلك أصبح حالما عاد الى مدينة دمشق صحفيا شهيرا. فارتقى بسرعة من محرر في

¹ هكذا قرأت حنا مينة : سمر الحمارنة، ص 13.

جريدة الإنشاء إلى رئيس تحرير مسؤول في نفس الوقت عن الصفحة الأدبية و صفحة السياسة الخارجية. ويعلق حنا مينة على هذه المرحلة من حياته قائلاً " لقد كنت أعمل كآلة، لقد تزوجت و أصبح لى أولاد كنت بحاجة إلى اللقمة." ¹

وتمثل هذه المرحلة مرحلة النجاح والحياة السهلة، فقد كان في وضع يرفع الرأس، له مكتب وكرسي مثل الخواجات ينادونه يا أستاذ و يتكلم بالهاتفون مثل الأفندية ويكتب على الأوراق نقلا عن الراديو والناس يدخلون عليه و يخرجون.² إلا أنه على أثر الانقلاب العسكري الذي قام به حسني الزعيم سنة 1949م، قرر الهجرة إلى بيروت من جديد فرارا من النظام الجديد الذي قرر ملاحقة التقدميين عامة. بيد أن هجرته لم تدم طويلا، ففي 14 أغسطس من نفس السنة تغيرت الأوضاع السياسية على أثر انقلاب عسكري جديد فلم يعد لحياته فوق السطوح في مدينة بيروت، وبه انتهت المرحلة الثانية من حياته.

المرحلة الثالثة: تتكون هذه المرحلة من فترة ما بين 1959م و 1969م وفي هذه المرحلة يضطر للهجرة ومغادرة الوطن، لأنه اتهم بأنه شيوعي ومثقف يساري متطرف من قبل النظام الوجودي الجديد. فظل في منفاه الاختياري طوال ثماني سنوات، متنقلا بين بلد و آخر، منفردا حيناً وترافقه زوجته و أولاده حيناً آخر، يجري وراء لقمة العيش

¹ الشراع والعاصفة: حنا مينة، ص 8.
² رسالة من أمي "الأبنوسة البيضاء"، ص 123. نقلا عن حنا مينة: كاتب الكفاح والفرح: محمد الباردي، ص 23.

وبذلك عرف "ماذا يعني أن يكون المنفى مهنته شاقة" على حد تعبير ناظم حكمت.¹

وفي هذه المرحلة أصبح صحفياً وروائياً في بيروت، ووجد نفسه يشتغل في مطعم وفي

معمل لقطع المسابير و في ورشة للبناء.²

وما اكتفي بهذا، بل الحاجة الحت عليه فتوجه إلى أوروبا واليابان والصين. كما يقول

بنفسه وهو يحدث أحواله من المنفى:

"في سني التشرّد في لبنان، في الخمسينات، طفحت مرارة العذاب من رؤوس أصابعي،

وكنت بلا عمل، بلا مورد متشرداً، مطارداً، لا بيت ولا لقمة، قررت أن أذهب بعيداً،

إلى آخر الدنيا في سبيل أي عمل يدر عليّ دخلاً قليلاً أسد به دمعى وأساعد عائلتي.³

و في أثناء إقامته في الصين الشعبية لم يقعد سدى بل عمل كأستاذ يعلم العربية التطبيقية

في إحدى جامعتها، وكذلك أنتج بعض البرامج الأدبية بإذاعة بودابست في مجر.⁴

ولم يقرر حنا مينة العودة النهائية إلى أرض الوطن إلا سنة 1967م بعد هزيمة الجيوش

العربية في حربها مع العدو الصهيوني. وقد رجع سالماً فقيراً، خالياً إلا من قلبه الذي

¹ هواجس، ص 6.

² هواجس، ص 6، م 1، ج 6. الثلج يأتي من النافذه، ص 224، 225.

³ هواجس، ص 103.

⁴ هواجس، ص 128.

يخفق للوطن".¹ وعلى هذا، يمكن أن تعد هذه المرحلة من أصعب المراحل في حياة حنا مينة ، فهو يعتبرها مرحلة " التشرذم والبطالة والعطالة".

المرحلة الرابعة: وهي مرحلة أخيرة من حياته، تبدأ من 1967م بعد رجوعه إلى سورية من المهجر، فمنذ نهاية 1967م إلى بداية 1969 عاش الكاتب شهورا عديدة في مدينة اللاذقية حياة نفسية مضطربة، فقد ظل، بالرغم من وقوف الكاتب الفلسطيني معين بسيسو إلى جانبه بلا عمل طوال ستة أشهر وقد بلغ به الأمر إلى أن يبيت ليلة في شوارع مدينة دمشق قبل أن يفكر في العودة إلى الحلاقة مهنته القديمة، فقد أوشك فعلا أن يفتح محله "صالون الأمل" عندما أعانه معين بسيسو وسعيد حورانية على تحويل روايته الثانية " الشراع والعاصفة" إلى مسلسل في ثلاثين حلقة، ومنذئذ أصبح "جزار مسلسلات"² ومع هذه المسلسلات ظل يكتب حديث الصباح اللاذقية ويذيع برنامجه عن القصة. وفي نهاية 1969م يعين "خبيرا في التأليف والترجمة بطريق التعاقد" في وزارة الثقافة والإرشاد القومي. وقد كان الكاتب الفلسطيني معين بسيسو الرجل الذي وقف إلى جانبه مرة أخرى. ومنذ هذه المرحلة الجديدة في حياته الوظيفية يطلّق حنا عالم السياسة ويشرع في إنجاز مجموعة من الأعمال الأدبية مع مواصلة عمله في الإذاعة و الصحافة. فقد شرع في نفس الوقت في تحرير ثلاث روايات و مجموعة من القصص

¹ هواجس ، ص 130.

² هواجس، ص 135.

القصيرة ودراسة عن ناظم حكمت وبذلك يستهل مرحلة الاستقرار النفسي والاكتفاء المادي وغازرة الإنتاج الأدبي.

وأما فيما يتعلق بثقافته فما كانت واسعة، لم يصل إلا إلى التعليم الابتدائي. إلا أن قراءته الأولى كانت قراءات أدبية، ذلك أن قصص "الزير سالم" و "تغريبة بني هلال" و "سيف بن ذي يزن" و " ألف ليلة وليلة" و "طرزان" كانت الكتب الأولى التي نمت لديه حب القراءة الذي بدأ في المدرسة عن طريق "المدارج" و "كتاب المشوق" و مجلة " المكشوف"¹ وفي صالون الحلاقة الذي كان يشتغل فيه تعلم صياغة بعض النصوص المدرسية نظم بعض القطع الشعرية بقيادة فرقة موسيقية محلية.

هذه هي، موارد الثقافة، إذن يمكن أن نقول إن الثقافة الرسمية المعتادة كانت بسيطة للغاية حيث لم يكد يحصل على الثقافة المتوسطة أو الثانوية كما لم يحصل على درجة ما، من البكالوريوس، أو الماجستير أو الدكتوراة، والتي تعتبر علامة الثقافة، إلا أن الثقافة غير الرسمية أتته عبر الخبرات من الحياة الكادحة ومرارة العيش وضيق المعيشة والأوضاع القارسة التي واجهها عبر السنوات المختلفة. إنه رأى الأشياء والأحوال من عيونه وعاش الحياة القاسية وعانى المشاكل المختلفة في معظم حياته كما أشار إلى هذا الجانب قائلاً:

¹ (أنظر تشرين، عدد 5، 7، 1984م. نقلا عن حنا مينة كاتب الكفاح والفرح ، ص 29.

" لقد عشت الحياة بكل طاقتي ذرة في كياني. جمعت تجارب كثيرة، من الكتب والناس، وما بقي هو أن أرتبها، أي أن أرتب بيتي الداخلي، أن أربط، في جدلية خلاقة، بين أشيائه، بعد أن أكون قد قبلتها على كافة وجودها، ورأيت إلى ما تحتها كأحجار مركومة في حقل، كي أتبين، لا نظافتها من الخارج فقط، بل علق بها من أوساخ في جانبها المتصل بالأرض، وما يقبع تحتها من ديدان أو حشرات، وأكون على مسافة بصرية من كل صفحاتها، فأستطيع، بعدئذ، أن أقول باطمئنان إنني أعرف هذا الشيء أو هذا الحجر".¹

فإذا أمعنا في أخلاقيات حنا مينة وجدناه متفائلاً يتحرى الحرية دائماً ويعمل في سبيلها و يحث الناس عليها، كما يقول:

أيها الناس، أحبوا الحياة، عيشوها بكل ذرات كيانكم. أحبوا مهما يكن لون الشقاء فيها، وحاولوا، في كل خطوة، ومهما يكن النير الذي تحملون، أن ترفعوا إلى أعلى، وأن تتطلعوا إلى الغد، إلى يوم الحرية والعدالة الآتي، لا ريب فيه. "ليس لدينا مادة لليأس، بل لدينا مادة للاحتجاج".²

كما يرجع الفضل أيضاً إلى أمه في تنمية شخصيته، فأما مريانا ميخائيل زكور لعبت دوراً أساسياً وملحوظاً في تشكيل أخلاقية الكاتب وثقافته منذ الطفولة. تربي على التقوى

¹ سمر حمارنة، هكذا قرأت حنا مينة ص: 47

² سمر حمارنة، هكذا قرأت حنا مينة ص: 45

وحب الله وحب الناس والفقراء والعمال والفلاحين، وحب الوالد واحترامه، والتمسك بالعائلة، تعلم معنى العمل والاعتزاز به، وحب الشجاعة والقدرة على العطاء والكرم.

قالت أمه مرة عن الفقراء "إنهم يأكلون خبزهم بعرق جبينهم" فراقبهم الكاتب لكي يري كيف يغمسون الخبز بعرق الجبين، ولما لم يفعلوا سألها عن ذلك، فأجابت "هذا مثل، معناه أن العمال يأكلون خبزهم بتعبهم" فقال بسذاجة "ونحن كيف نأكل خبزنا؟ قالت: بتعبنا. ألا ترانا نعمل في بيت السيد وأراضيه؟ نحن نعمل وهم يأكلون. فكّر في ذلك و سأل: "أليس ضرب الفلاحين شغلا؟ فأربد وجهها وقالت لأبنة: أين رأيت ذلك؟ قال: في الباحة. فقالت: يا حبيبي من أجل ذلك لا أريدك أن تكون فلاحا ... ومن أجل ذلك أريدك أن تحب الفلاحين، فهم فقراء مثلنا.¹

فوجد الأم لها يد طولي في تربية ولده الوحيد بغض النظر عن الفقر والتعاسة وسوء أحوال الأسرة، لا تحصل على الخبز مرتين في اليوم إلا بشق الأنفس، مع أنها تحت ابنه على حسن الخلق وإطعام الآخرين من الفقراء والمحتاجين كما تقول مرة: " إذا كنت تأكل شيئا ورأيت طفلا جائعا فأطعمه مما تأكل. حرام أن نشبع نحن ويجوع الآخرون. الله لا

¹ المستنقع ص:19، سمرحمارنة: هكذا قرأت حنا مينة: ص: 48.

يرضي بذلك إنه يرانا ويحاسبنا، وعلينا أن نعمل لمرضاته، وأن نتذكر دائما أننا فقراء مثل أهل الحي، وأن علينا واجب مساعدتهم إذا استطعنا".¹

فوجد حنا مينة بأنه إنسان مخلص يستعد دائما لمساعدة الآخرين ولا يجد حرجا في حمل المشاكل للفقراء والمحتاجين، وكذلك نجد في شخصيته الحرص لأن يعمل شيئا مثمرا لعامة الناس ولا يهرب من الموت: " الموت كأس على كل الناس، وكلنا سنموت، ولا تسأل بعد ذلك متى... قد تنجو من أعظم خطر، من أشرس عاصفة، من أقدر معركة، ثم تموت بحادث بسيط... الموت حق، ولكنه عظيم في وقته. دعه يأتي حين يريد أن يأتي. لا تتهور، ولكن لا تتردد، حين يلوح الخطر لا تكن في المؤخرة. ضع نفسك في الصف الأمامي".²

مكانته:

يعد الروائي حنا مينة أبا للقصة السورية الحديثة حسب رأي النقاد، فهو الذي جعل القصة السورية رغم الموهبة الحقيقية لمن سبقوه تمتد عالياً وتنتشر بيارقها في أرجاء العالم العربي، فقصص حنا مينة كقصص ماركيز الكولومبي وميلان كونديرا المجري ونجيب

¹ المستنقع: ص 350.
² حكاية بحار: ص 257.

محفوظ قد حطمت قيود الحدود الجغرافية، وانطلقت بأجنحتها الواسعة لترتفع في سماوات العالم كله.

إنه نال شهرة عظيمة في العالم العربي وخارجه، ولقب بألقاب متعددة منها: "الأديب الكبير" و " هيمنغواي العرب" و "أديب البحر"

وقال الدكتور صلاح فضل في مؤتمر اتحاد الكتاب المصريين : إن الروائي السوري الكبير حنا مينة هو الأجدر بنيل جائزة اتحاد كتاب مصر هذا العام، فهو نموذج للكاتب العصامي الذي استطاع دوماً المحافظة على هويته، وتمكن من تجاوز ضرورات واقعه وآليات حاضره مستشرفاً المستقبل بكتابة تنشغل بالحياة وتشترك معها.¹

الجوائز التي حصل عليها

حصل حنا مينة على جوائز عديدة، نظراً لنضالاته والتزامه بقضايا حقوق الإنسان وتكريسه لمفهوم الحرية والعدل والعيش الكريم ومن هذه الجوائز.

■ جائزة المجلس الأعلى للثقافة والآداب والعلوم بدمشق عن رواية " الشراع والعاصفة" عام 1968م.

■ جائزة سلطان العويس من الدرجة الأولى عام 1991م لعطائه الروائي.

¹ شريف الشافعي: حنا مينة: مصر هي بيت الثقافة العربية، السبت 24 شوال 1426 الهجرية- 26 نوفمبر 2005 م- العدد 1369.

■ جائزة المجلس الثقافي لجنوب إيطاليا، فازت بها رواية " الشراع والعاصفة" عام 1993م، كأفضل رواية ترجمت إلى الإيطالية.

■ جائزة "الكاتب العربي" التي منحها اتحاد الكتاب المصريين بمناسبة مرور ثلاثين عاما على تأسيسه، اعترافا بموقعه المتميز على خريطة الرواية العربية، تبلغ قيمة الجائزة التي حصل عليها حنا مينة عشرة آلاف دولار.

■ وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة 2002م.

فالحياة التي عاشها حنا مينة لم يكن سهلة بل كانت مليئة بالمشاكل من نواحٍ مختلفة ولكن حبه للوطن جعله دائما يتطلع للغد الأفضل كما يقول:

" لقد عرفت أشد البيئات تنوعا و تبيانا في حياتي و خاصة البيئات الشعبية في المدينة والريف وعشت في الموانئ و شاركت العمال والصيادين والبحارة حياتهم، وذقت الفقر والجوع عصف الأنواء بعائلتي حتى دارت بها كإعصارٍ واختلطت بالمناضلين، والثوريين، واعتنقت الأفكار الاشتراكية منذ فتوتي، وأدركت منذ وقت مبكر معنى الاستعمار والحرية والعدالة الاجتماعية، وأحببت وطني الكائن، ولكنني أحببت أكثر وطني الذي سيكون، وأمنت بالمستقبل الأفضل، والغد الأجل، وعملت لأجلهما ما وسعني، وهكذا كتب عليّ أن أكون حديدة تصهرها نار التجربة في شتى المراحل".¹

¹ نقلا عن قائمة الكتاب، كتاب "هكذا قرأت حنا مينة: سمر الحمارنة. ص: 11، حوارات في الكتابة الروائية ص: 67-68.

فالخبرة الصائبة العميقة في الحياة هي قمة ثقافته، وبها يتميز حدًا مينة.

وفاته: رحل كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين من هذه الدنيا سنة 1915م، تاركًا خلفه

عددا هائلًا من الكتب التي تحمل في طياتها حياة حنا مينة وخبراتها المعيشة كما توفر

القارئ المعلومات المختلفة فلا بد من قراءتها.

الفصل الثالث

إنجازاته الأدبية والصحافية

بدأ حنا مينة مشواره الإبداعي بصياغة بعض النصوص المدرسية، و نظم بعض القطع الشعرية لفائدة فرقة موسيقية محلية، كما سبقت الإشارة إليها آنفا، إلا أنه سرعان ما استهوته الصحافة، إذ شرع في مراسلة بعض الصحف في دمشق وبيروت والقاهرة.¹ واستطاع في النهاية أن ينشر "كلمة وطنية" في صحيفة محلية² وأصبح شيئا فشيئا صحفيا شهيرا، إلا أن مقالاته السياسية التي عالجت بعض المسائل الوطنية وقاومت الاستعمار بأشكاله المختلفة والصيهونية الرجعية العربية المتحالفة مع الأمبريالية في الخمسينات، تعتبر شهادة بليغة على التزامه السياسي. ومع ذلك فقد ظل النشاط الأدبي عنده رديفا للعمل الصحافي. فبعدما ألف مجموعة من القصائد " الرديئة" شرع في تأليف قصته القصيرة الميلودرامية الأولى "الرجل أو هذا الرجل" وهي تعالج تجربة العاطفية الأولى مع إحدى جاراته.³ إذ تروي حكاية رجل فقير أثرى وانتقم من الفتاة التي أهانتة. بيد أن القصة الأولى التي نشرها الكاتب في صحيفة "بردي" قد تكون بعنوان "الذئاب التركية". وهي في الحقيقة قصة سياسية إذ أنها تعالج موضوعا وطنيا مناوئا للاستعمار.

¹ بردي ، النصر، صوت الشعب، المساء، أنظر م 1، ج 2.

² هواجس، ص 54.

³ نفس المصدر، نفس الصفحة.

كما كتب حنا مينة في بداية حياته الأدبية نصوصاً أدبية أخرى وهي:

"الياس أو "اليانس" وهي قصته ذات أفكار سوداء، كتبها متأثراً بقصيدة رومانسية بشاره الخوري، و "الجاهل" وهي قصة تؤدّب الرجل الغني الذي رفض تجديد اشتراكه في المجلة التي كان كاتبنا يوزّعها، و "مسرحية وطنية" لم يذكر الكاتب اسمها.

ومن أهم القصص التي كتبها حنا مينة وعالج فيها الموضوعات المختلفة وهي كما يلي:

| القصة | تاريخ صدورها | نشرها |
|-------------------|--------------|-----------------------------|
| طفلة للبيع | 1945 | مجلة الطريق عدد 19-20، 1945 |
| اللص رغم أنفه | 1946 | مجلة الطريق، فيفري، 1946 |
| نار | 1949 | التلغراف- الأبنوسة البيضاء |
| جمرة السنديان | 1956 | الأبنوسة البيضاء |
| بطاقة توصية | 1969 | الأبنوسة البيضاء |
| كاتب | 1969 | الأبنوسة البيضاء |
| الأبنوسة البيضاء | 1970 | الأبنوسة البيضاء |
| رسالة من أمي | 1971 | الأبنوسة البيضاء |
| على الأكياس | 1971 | الأبنوسة البيضاء |
| علبة التبغ | 1974 | الأبنوسة البيضاء |
| الذي أبطل القنبلة | 1974 | من يذكر تلك الأيام |
| هذا ما بقي منه | 1975 | الأبنوسة البيضاء |

كما كتب حنا مينة مقالات عديدة في شتى الموضوعات في صحف مختلفة من أهمها هل تعرف دمشق يا سيدي؟

وهي مجموعة من المقالات صدرت في الصحف السيّارة كما يعتبرها الكاتب. يقوم هذا العمل على سبعة فصول، تحمل ستة منها هذه العناوين: ليلة مع الفلاح مهيبوب- من البحر إلى القلعة- أيوب قائدا مفكرا- العجوز ذات الشاربين في الجحيم- الطريق المسدود. نجد المؤلف يجيب في هذا الكتاب عن تساؤلات بعض القراء الذين يلحون: لماذا لم يصف المؤلف مدينة دمشق في رواياته وقصصه القصيرة؟ وهو يعترف بأنه عاش ثلاثين عاما في هذه المدينة ولكنه لم يستطع اكتشافها. ولذلك جاء هذا العمل ليملأ فراغا كان قائما وهو بذلك يمثل حلقة ناقصة في آثار حنا مينة الأتوبيوغرافية. إنها قصة حزينة ومؤلمة. يلعب الاستطراد دورا أساسيا في الأثر الذي يجمع بين الرواية والقصة القصيرة والمذكرات. وانتهاز الكاتب الفرصة لذكر بعض الأحداث الخاصة بحياته الشخصية بوجه خاص ، فهو يقول: "إنني لا أرسم خريطة لحياتي ولا أزعم أن هذه الحياة كانت ظاهرة كقلب كوتس يني أو بعيدة عن الدنس كمريم بنت عمران".¹

ولكن الكاتب رغم تمكنه من إصدار مجموعة من المقالات في الصحف قبل 1959م لم يستطع في حقيقة الأمر لفت انتباه القراء إلا سنة 1954م عندما أصدر روايته الأولى

¹ كاتب الكفاح والفرح ص: 47-48.

"المصباح الزرق" التي قوبلت بحفاوة بالغة. وفي سنة 1956م كتب روايته الثانية "الشراع والعاصفة" التي نالت شهرة عظيمة وتناولتها الأيدي بحفاوة كبيرة من داخل البلاد وخارجها، أما في سنة 1957م فكتب روايته الثالثة "الخيوط الذي لا يرى" التي لم تر النور، لكن انطلاقته الحقيقية لم تبدأ إلا منذ سنة 1969م وقد بلغ من العمر خمسة وأربعين سنة وبعد انقطاع دام عشر سنوات، كما اشتهر في عالم المسلسلات حيث أصبح جزارها، و الجدير بالذكر بأنه استطاع منذ سنة 1951 أن يفرض نفسه على الساحة الثقافية قبل أن ينشر روايته الأولى، فقد كان عضواً باحثاً في رابطة الكتاب السوريين التي تحولت في مؤتمرها الأول سنة 1954 إلى " اتحاد الكتاب العرب" وظل عضو المكتب التنفيذي فيه طوال ست سنوات. وقد منحته مجلة "الجندي" جائزتها الأدبية تقديراً للقصة القصيرة "أبو عمر" سنة 1955م ونالت روايته "الشراع والعاصفة" جائزة المجلس الأعلى للآداب والفنون وهي جائزة الدولة الرسمية.¹

وإن انتاجات حدًا مينة الأدبية غزيرة و متنوعة، فقد ألفت إلى حدود سنة 1968م عدداً من الروايات التي تتجاوز ثلاث عشرة رواية ومجموعتين قصصيتين وخمسة مؤلفات نقدية، آلا، وإن من بين هذه المؤلفات كتب رواية وبحثاً بالاشتراك مع الدكتورة نجاح العطار، وإنتاجاته الأدبية بدأت تتكثف ابتداءً من سنة 1969م بمعدّل كتاب في السنة الواحدة إلى درجة أن بعضهم اعتبره الكاتب الوحيد المحترف في سورية. وقد احتلت

¹ الرواية السورية: نبيل سليمان، ص 108.

الرواية في إنتاجاته الأدبية مكانة متميزة، فهي حسب عبارة المؤلف، الجنس الأدبي، وشكوك ديوان العرب في القرن الحادي والعشرين. ومن أعماله الروائية الشهيرة بقايا صور، والمستنقع، والربيع والخريف، والمصايح الزرق، والشراع والعاصفة، والياطر، وثلاثية البحر،، وحكاية بحار.

لقد ترجمت رواياته إلى أكثر من ست عشرة لغة من لغات العالم المختلفة الحية من الفرنسية والإنجليزية والروسية والإيطالية وغيرها.

المسلسلات وأعمال التلفزة

والجدير بالذكر بأن الإذاعة والتلفزة والسينما، لها مساهمة عظيمة في عرض نشاط حنا مينة الثقافي. فبعد المسلسل الإذاعي المقتبس من الرواية "الشراع والعاصفة" أعدّ للإذاعة مسلسلا ثانيا بإسم "سائق الأتوبيس". أما مسلسله الثالث عالج موضوع الثورة السورية. كما حولت بعض قصصه أيضا إلى عمل تلفزيوني من بينها: قصته القصيرة "رسالة من أمي" و "على الأكياس" إلى شريط سينمائي بعنوان "اليازولي". وكذلك حولت روايته الشهيرتين "بقايا صور" و "الشمس في يوم غائم" إلى عمل تلفزيوني.

استطاع حنا مينة إبراز مفهوم جديد للكاتب الحقيقي الذي ينبثق من الواقع ويعود إليه، ويمكن للقارئ لمس أحاسيسه الإنسانية العالية التي استطاع من خلالها التعبير عن الكاتب

الإنسان أكثر من الكاتب الذي يقدم نفسه كخالق للكلمات، وبهذا الصدد يقول حنا مينه: لقد فكرتُ منذ قرأتُ عمر الفاخوري في الأربعينيات، كيف يكون الأديب من لحم ودم، وليس من حبر وورق، وأدركتُ ألا شيء يجعل الأديب حياً، مثل أن يباشر الأحياء، ويخرج من وحدته البودلييرية التي لا تتيح سوى السقم والأشباح، وأن التجربة بأوسع وأعمق معانيها، بكل أخلاقيتها ولا أخلاقيتها، هي التي تكسو هيكل الأديب باللحم، وهي التي تجعل الدم يجري في شرايينه، وبذلك تؤلِّفه لأن يكون خالقاً حياً. يخلق شخصاً أحياء يعيشون بيننا، ويتنفسون هواءنا، ويكونون صورة عنا، حتى إذا عايشناهم في الكتب قلنا: هؤلاء هم نحن.¹

روايات حنا مينة

إن روايات حنا مينة هي وليدة عصره وبلاده السورية، وقد خرجت تحت تأثيرات هائلة اجتماعية واقتصادية وسياسية أحاطتها من كل حذب وصوب ومن نواحي عديدة، وبما أن روايات حنا مينة تعتبر إحدى أهم لبنات الأدب الروائي السوري يجدر بنا أن نشير إلى نشأة الرواية في سورية. فإذا تتبعنا التاريخ ورجعنا إلى ميلاد الرواية في سورية ونشأتها وجدنا أن الرواية واجهت في نشأتها كثيراً من المعوقات التي حالت دون انتشارها بشكل سريع وواضح مجارة لبقية صنوف الأدب المنتشرة في البلد العربي

¹ نزهة صادق: حنا مينة: الأديب الذي حارب الشقاء وانتصر عليه: ذوات، (8 أبريل 2015) صحيفة ثقافية فكرية، تصدر عن مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث.

السوري خاصة والوطن العربي عامة. فلم تنزل الرواية السورية حتى عام 1967م فنّاءً ناشئاً، وسبب هذه الصعوبات والعراقيل يرجع إلى أنه كان لا بد أن يصمد الكتاب والأدباء للتغلب عليها ونشر فن الرواية بين مختلف أرجاء البلد العربي السوري انتقالاتاً إلى الوطن العربي بكافة أرجاءه. وفي مستهل الأمر مارس الأدباء الروائيون السوريون فنونا أدبية أخرى كالقصة القصيرة، والمقالة، ونراهم يكتبون الرواية بين الحين والآخر. لقد فعل ذلك معظم الكتاب السوريين وعلى رأسهم عبد السلام العجيلي، وصدقي إسماعيل، ووليد إخلاصي، وغادة السمان.. وأما الذين اعتبروا الرواية همّاً، أصليا من همومهم والتزموا بها ولو نسبيا فيمكن أن نذكر في طليعتهم شكيب الجابري وحنّا مينة.

ويرى البعض أن رواية "الرغيف" لتوفيق يوسف عوّاد، التي نشرت عام 1939م هي بداية الرواية الناضجة فنيا، ويؤرخ بها نشأة الرواية في لبنان، كما أن الرواية "شهم" لشكيب الجابري السوري التي نشرت عام 1937م يؤرخ بها نشأة الرواية في سوريا. إلا أنه يمكن أن نقول أن رواية "الرغيف" هي رواية لبنانية.

والرواية في سوريا شأنها شأن البلدان العربية الأخرى قد مرت بمراحل عديدة لتصل بالنهاية إلى الشكل الذي هي عليه اليوم. ويرى الدكتور حسام الخطيب رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في دمشق عام 1967م أن الرواية السورية مرت بثلاث مراحل من التطور الروائي، وهي كالتالي:

المرحلة الأولى: وهي فترة ما بين 1937 و 1949م، واعتبرها مرحلة الطفولة في حياة القصة السورية.

المرحلة الثانية: وهي تبدأ منذ 1950 وتنتهي في 1958م، واعتبرها الدكتور حسام خطيب مسرحا لتغيرات أساسية في سوريا، فنتيجة للتمدن ونمو التعليم وازدهار الصحافة.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة ما بين 1959 و 1967م، واعتبرها بداية لنهوض الرواية العربية في سورية.

وإذا لخصنا آراء النقاد حول نشأة الرواية السورية وتطورها، وجدنا أن آرائهم متباينة ومتضاربة فيما بينها، فمنهم من هو مؤيد لفكرة أن الرواية السورية قد وصلت إلى مرحلة متطورة جدا، ومنهم من عارض هذه الفكرة ورأوا أن الرواية العربية بشكل عام والرواية السورية بشكل خاص لاتزال تؤسس لنفسها وتضع قدميها على بداية الطريق، ومن خلال إطلاعنا على الرواية في سوريا، نشأتها وتطورها وما وصلت إليه الآن، نجد أن كُتّاب الرواية السورية قد قطعوا شوطا كبيرا في ميدان الأدب، وانتشرت رواياتهم في جميع أنحاء الوطن العربي.

هذه لمحة سريعة عن نشأة الرواية العربية في سوريا ومن خلالها تعرفنا على أسبقية حنا مينة في عالم الرواية في سوريا. عندما نبحت في أعماله الروائية، نجد أنه

قدم لنا أكثر من ثلاثين رواية، وبها أصبح غزير الإنتاج في مجال الأدب الروائي، وعلى صعيد آخر فتحت أعماله الروائية للرواية السورية آفاقا واسعة لتمتد وتنتشر في أغلب أرجاء الوطن العربي، وتنتقل من بلد لآخر محطمة قيود الحدود الاصطناعية بين البلدان العربية طارقة قلوب الملايين من القراء الذين تبينوا من أول قراءة لرواياته أنه يصور معاناة طبقة كبيرة من المجتمعات العربية بل وأحسّ أغلبهم - و خاصة الطبقة الفقيرة - أن هذه الروايات تحكي واقعهم وكان كاتبها يعيشهم لحظة بلحظة. وقد يكون هذا هو سر الإقبال اللا محدود على روايات حنا مينة. كتب حنا مينة عن نفسه وعائلته التي تشردت من لواء اسكندرون، وعن والدته مريانا ميخائيل زكور، قبل أن يمزج عذاب الروية مواجهها عين العاصفة، كما كتب عن العوالم السفلية للمرافئ ومدن الساحل المفتوحة على أهوال البحر. انتقم لطفولته البائسة وأخواته الخادمت، وانتقم للقهر والتشرد الذي لقيه في مِيعَة الصبا، لكنه انتقام المحب المتعاطف، لا الحاقد الناقد، فرواياته خير من وثق حياة البحر والمرافئ.

وإذا تتبعنا روايات حنا مينة من حيث المواد الخام التي استخدمها في بناء هيكله

الروائي نجد عنصرين مهمين في عالمه الروائي، وهما:

1- البحر: البحر يغلب على معظم أعماله الروائية، وهو ميدان اختاره حنا لأنه الموجة

الأصخب والأغنى وهو كتابة ورمز، رمز الحياة كلها وميدان لكل الصراعات.

يقول حنا مينة في البحر: "إن البحر كان دائما مصدر إلهامي، حتى أن معظم أعمالي مبتلة بمياه موجه الصاخب، وأسأل: هل قصدت ذلك متعمدا؟ في الجواب أقول: في البدء لم أقصد شيئا، لحمي سمك البحر، دمي ماؤه المالح، صراعي مع القروش كان صراع حياة، أما العواصف فقد نفشت وشما على جلدي إذا نادوا يا بحر...¹

والبحر بالنسبة إليه قوة جبارة يحترمها في أعماقه ويباركها، وقد أصبح البحر عنده عاملا روائيا يتفاعل معه تفاعلا كليا. كما يقول بنفسه:

"إن البحر عندي ليس خلفية طبيعية، ضلالية أو تزيينية. البحر، كما قال الناقد عبد الرزاق عيد، هو عامل روائي عندي، تتطور فاعليته الروائية بتطور حركة الزمن وفاعليتها، وتتطور الشخصية الروائية وفاعليتها أيضا".² وكما اتخذ البحر مسرحا لخواطره وأفكاره وانغمس في البحر واستنتج منه نتائج مهمة كثيرة.

2- الحارة الشعبية في اللاذقية: والعنصر الثاني من رواياته هو حارته الشعبية التي قضى فيها فترة من حياته، خاصة أوضاع الحارة في عالم ما بين الحربين العالميتين، فلم يستطع الروائي حنا مينة أن ينسى أو حتى يتناسى الواقع المرير والحياة القاسية التي عاشها ونشأ فيها. فصور هذه الحياة بكل ملامحها ووقائعها في رواياته. فقصصه حقيقية، وأبطاله حقيقيون رجالا ونساء من لحم ودم عاصرهم وعاش معهم ودخل بيوتهم وعرف

¹ أنظر: هكذا قرأت حنا مينة: سمر الحمارنة، ص 124-128، 132.

² هكذا قرأت حنا مينة: سمر الحمارنة، ص 132.

ما يدور في خوالجهم وأيقن طريقة تفكيرهم. فلم تكن كتاباته عشوائية أو مخترعة ولم يكن أبطاله مزيفين. روايات حنا مينة شديدة التعبير عن التحولات الاجتماعية. فقد كانت الحياة بنفسها بآلامها ومعاناتها المعين الذي عرف منه حنا ألوان لوحته، فأنت ناطقة بكل بؤس هذه الحياة وكل الأمل فيها، فذلك من خلال فهمه لقوانين تطورها التاريخية.

ولدى دراستنا لرواياته نجد انعطافات وتحولات جذرية في حياته الأدبية، ومن ثم يتسنى لنا تقسيم مسار حياته الأدبية إلى ثلاث حلقات تمتاز كل حلقة بأسلوبها الخاص وبموضوعاتها المتميزة، وهي كما يلي:

الحلقة الأولى: تضم هذه الحلقة روايتي "المصاييح الزرق" التي صدرت عام 1954م و "الشراع والعاصفة" الصادرة عام 1966م. وفي هذه الحلقة يجد القارئ أن شخصيات الروايات مُفعمة بالحركة والحياة التي تنتمي في أغلبها إلى بيئة فقيرة وتُقدّم من خلال حركتها، وفعلها، وسلوكها، وحوارها، وحديث الآخرين عنها، أي من خلال تفاعلها مع واقعها، دون تقييد من السارد فتبدو هذه الشخصيات مستقلة، تمايز عنه وعن بعضها بعضا، لذا يجد القارئ عفوية وجذابة ومقنعة.¹

وفي روايات هذه الحلقة يتغلب أسلوب التصوير في معالجة القضايا الاجتماعية حيث نرى أن الروائي أقام بناء الرواية على الصراع، فالشخصية تصارع قوى الطبيعة

¹ رسم الشخصية في روايات حنا مينة: فريال كامل سماحة، ص 61.

أو المجتمع أو الذات، وتم التركيز في هذه الحلقة على تصوير الشخصية لإبراز القضايا الاجتماعية من الخارج فظهرت من خلال حركتها وحوارها وتفاعلها مع الأحداث ومن خلال حديث الآخرين عنها ومن خلال تصوير السارد لسلوكها بأقل قدر من التدخل. ويظهر للدارس أن هذا الأسلوب مرتبط برؤية تؤمن بأن العمل وسيلة لتغيير اللوحة النفسية للشخصية، وبأن الفضيلة الرذيلة قيمتان نسبيتان، ترتبطان بالوضع الاقتصادي والاجتماعي للشخصية، وبأن الإرادة هي التي تسيّر الإنسان لا القدر أو المصادفات، كما تؤمن أيضا بأن الفقراء هم أساس التغيير ومادته، لذا فإن روايات هذه الحلقة تعجّ بالفقراء الذين لم تتناولهم من موقع الإشفاق، بل من موقع الإيمان بأنهم يرفضهم لواقعهم وسعيهم إلى تغييره يحملون على جباههم بؤار المستقبل المشرق. وعندما نتأمل في الواقع العربي في الأربعينات والخمسينات والستينات، يتضح لنا أن المنطقة العربية كانت في حالة حركة وفوران، تموج بصراعات مكشوفة مع قوى الاستعمار وقوى الاستغلال صراعات وطنية واجتماعية محتدمة.

الحلقة الثانية: هذه الحلقة تضم الروايات الصادرة بعد عام 1967م بدءا من رواية "الثلج يأتي من النافذة" التي صدرت عام 1969م. كما تضم إنتاج الروائي إلى أواخر الثمانينات، وتحمل روايات هذه الحلقة بؤار أسلوب جديد هو الأسلوب الاستبطاني في تحليل الشخصية، والذي يقوى ويسود في الروايات الصادرة بعدها كرواية " الشمس في

يوم غائم" و رواية "الياطر" إلى آخر الروايات الصادرة في السبعينات والثمانينات. وقد اقتضى هذا التجديد في الأسلوب من الكاتب تجديدا في الأدوات فظهرت تقنيات التذكر والحوار الداخلي والمناجاة والحلم بنوعيه وغيرها. يتبين للدارس أن ما يدور في العالم الداخلي للشخصية من أفكار وأحلام وعواطف وصراع، مرتبط بما يدور خارجها ومنعكس عنه، وليس متناقضا معه. وقد يكون نضج الكاتب من أسباب اللجوء إلى هذا الأسلوب، إذ أدرك ضرورة الاهتمام بالعالم النفسي للشخصية، وأن العالمين الداخلي والخارجي يتفاعلان معا ويؤخر كل منهما في الآخر. وقد تشكل الهزيمة وما تبعها من تغيير في الواقع العربي، وما تركته من أثر بالغ في نفوس الناس عامة والمتقنين خاصة، عاملا آخر من عوامل لجوء الروائي إلى استبطان نفوس شخصياته دون أن يغفل حركة الواقع الخارجي.

الحلقة الثالثة: ويرجع تاريخ هذه الحلقة مع صدور رواية "فوق الجبل وتحت الثلج" منذ عام 1991م، وتضم روايات "الرحيل عند الغروب" (1992)، و "النجوم تحاكم القمر" (1993)، و "القمر في المحاق" (1994)، و "المرأة ذات الثوب الأسود" (1995)، و "حدث في بيتاخو" (1995)، و "عروس الموجة السوداء" (1996)، و "المغامرة الأخيرة" (1997).

وفي هذه الحلقة يلتقي القارئ بشخصيات منفصلة واقعها تعيش بلا قضية، يقتضى لديها التفاعل مع غيرها، وتغلب عليها غرابة الأطوار، وتقدم من خلال الوصف والتقرير، إذ تختفي النزعة التصويرية والنزعة الاستبطانية هنا لتحل محلها نزعة تقريرية، تبدو من خلالها الشخصية ثابتة، وغير مقنعة أو مدهشة أو جذابة يضاف إلى ذلك أن عناصر البناء بما فيها الشخصية في هذه الحلقة تبدو غير منسجمة ولا مؤتلفة وكان الكاتب يصف الظواهر من مسافة بعيدة.

وفي روايات هذه الحلقة يختص الصراع ويغيب الحدث ويبدو البناء الروائي متصدعا مفتقدا للتناغم والتماسك، يهيمن عليه حوار مباشر فاقد لوظائفه وتظهر فيه الشخصيات (ومعظمها من المثقفين إذ يختفي الفقراء هنا) باهتة، جامدة مفتقدة للتفاعل، كما تبدو بلا قضية تعمل من أجلها ولا رؤية واضحة تستند عليها، لا هم لها سوى الهروب إلى الجنس والخمر، وتبدو مواقفها من القضايا الوطنية والاجتماعية... إلخ غريبة وغير مقنعة مغايرة تماما لمواقف الشخصيات في الحلقتين الأولى والثانية. وقد عجزت لغة الروايات التقريرية عن النهوض ببنائها المنهار، ويمكن أن تُعد هذه الحلقة انتكاسة في الأسلوب وفي المسار الروائي للكاتب، مما يدفع الدارس إلى التساؤل عن أسباب هذه الانتكاسة، فيتبين له أن الكاتب ربما يعاني من أزمة موضوعية تستشف من الروايات نفسها ومن السياق الاجتماعي والحضاري الذي كتبت فيه هذه الروايات.

فانهيار الاتحاد السوفيتي، وسياسة هيمنة القطب الواحد، وتراجع حركة الواقع العربي، وتصعد الأحزاب اليسارية والقومية وهزيمتها، والتراجع عن "القرارات الاشتراكية" في بعض البلاد العربية، كل هذه العوامل مجتمعة أصابت الأديب بخيبة أمل شديدة دفعتته إلى الهروب إلى الماضي، وتقديم شخصيات رواياته ثابتة، تتحرك بلا هدف أو قضية، أي أن البناء الروائي المتصدع غياب الرؤية اليقينية في هذه الروايات يواكب ضبابية الرؤية وعدم وضوحها في حركة الواقع العربي المحلي وربما العالمي في هذه الفترة من نهاية القرن العشرين.¹

وهذه هي دراسة عابرة عن مسار الكاتب الروائي، ولدى حديثنا عن رواياته يحلو لنا أن نتصدى لتعريف رواياته المهمة بالإيجاز فيما يأتي:

بقايا صور: صدرت هذه الرواية الأتوبيوغرافية عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي بسورية، وقد أهداها المؤلف إلى أمه، وقد لخص روايته هذه بقوله:

"لقد كتبت بقايا صور، لتعرض من خلال عيني طفل، بين الثالثة والثامنة حياة أسرة في العشرينات بكل ما فيه من جهل واستغلال وبؤس وتخلّف، وبكل ما أصابه من نكبة

¹ المصدر السابق، ص 224.

الحرير الطبيعي ... وكذلك قدمت الرواية إرهابات الصراع بين الفلاحين والأغواث الذي تجلّى في انتفاضة فلاّحية لم يذكرها التاريخ الرسمي لأنها كانت فردية ومعزولة¹.

هذه الرواية حافلة بالأحداث، وتقدم حياة عائلة طوال عشرين سنة والأوضاع الاجتماعية في الريف السوري. يصف السارد حياته العائلية والظروف المتقلبة التي عاشها مع أبويه وأخواته قبل الاستقرار في مدينة إسكندرونة² وصفا دقيقا جمع فيه كل أفراد العائلة، فالأبوان يمثلان قطبين متناقضين، لأن الأب يدمن الخمر ويهرب إلى رغيف الخيال تاركا عائلته تحت رحمة السماء. أما الأم تمثلها الرواية بأنها مؤمنة تواجه المشاكل في سبيل العيش حتى تضطر ببيع نصف غذاء طفله، كما ضحت الأخوات بطولظهن لمساعدة الأسرة. هكذا عاشت عائلة الكاتب حياة قاسية معرضة للخوف والظلم وعدم الاستقرار. وكذلك أتاحت رحلة العائلة الطويلة للكاتب رؤية موضوعية تجاه الواقع.

وفي الرواية نجاح الروائي في تحقيق هدفين رئيسين تاليين:

– تصوير البشاعة وانهيار حلم الحياة بإدانة وعنف، والتبشير في هذه الدياميس بالفرح الإنساني، ليعود للحياة ألقها.

¹ هواجس في التجربة الروائية: حنا مينه، ص 13.
² بقايا صور: ص 57.

- رصد معاني التحدي والصمود والكبرياء والرفض لدى الإنسان والدفاع عن نبل هذه المشاعر وعظمتها.¹

المستقع: هذه رواية الجزء الثاني من ثلاثية حنا منية، فهي شبه ذاتية كالرواية السابقة "بقايا صور" إلا أنها أكبر حجماً حيث يبلغ عدد صفحاتها إلى 438 صفحة، طبعت للمرة الأولى سنة 1977 في دمشق. وتروي هذه الرواية قصة المرحلة الثانية من رحلة العائلة، فهي تصل إلى مدينة اسكندرونة حيث تشتغل إحدى بناتها لدى عائلة من أعيان القوم في وقت يجب عليها أن تذهب إلى المدرسة، وتنتهي هذه المرحلة بمغادرة مدينة إسكندرونة بصفة نهائية نحو مدينة اللاذقية على إثر احتلال الأتراك للواء اسكندرون سنة 1939م. لقد بلغ الطفل السارد في بداية أحداث الرواية الثامنة من عمره الذي جعله قادراً على أن ينظر إلى العالم نظرة مغايرة بسبب الخبرات التي عاشها. فقد أدت هذه الخبرات إلى التأمل في وضعته العائلية والأوضاع الاجتماعية التي تحيط به، كما تغيرت مجالات اهتمامه في هذه الرواية إذ سهلت أسباب العيش بالنسبة إلى العائلة نسبياً فاتجه الطفل إلى هواجسه الذاتية والقضايا الاجتماعية التي تعيشها المدينة.

وإذا اعتبرنا "بقايا صور" شهادة على حياة الفلاحين في الريف السوري فإن "المستقع" يمكن اعتباره رواية تشهد على مسيرة الحركة العمالية في مدينة اسكندرونة.

¹ عالم حنا مينة الروائي: محمد كامل خطيب، ص 117.

وقد أكد المؤلف وفاء روايته للمرحلة التاريخية التي وصفها قائلاً: "الحياة في المستنقع غير الحياة في "بقايا صور" وإن كان الفقر واحداً والشقاء واحداً والتأمل واحداً إلى حد كبير. ويظل يتابع حياة عائلة الطفل وحياة المدينة والبيئة العمالية من خلال عيني الطفل الذي يروي الأحداث كشاهد عليها أيضاً، إلى أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره.¹

هكذا رسم حنا مينة لوحة دقيقة تتعلق بالقضايا الاجتماعية التي أصبح الطفل السارد يدركها في مدينة اسكندرونة في الثلاثينات من هذا القرن: الأزمة الاقتصادية العالمية وآثارها، فقر المدينة، نضال العائلة ونضال الحركة النقابية التي تربط العمل الاجتماعي بالعمل السياسي. تصف هذه الرواية الأوضاع الاجتماعية من خلال النفس في حيّ الضاز، والطفل لا يعتبر الفقر عيباً، ولا يجب على الإنسان أن يخيف منه². فهو يمجّد شجاعة الرجال الذين لا يركعون أمام الظلم بل يواجهونه ويقولون الحقيقة بدون مراعاة النتيجة³. كما يمدح الحركة العمالية والمناضلين الأوائل الذين يبذلون الجهود الميمونة⁴ للحصول على الحقوق المسلوبة. هذه هي أهم المعاني التي يجدها القارئ في هذه الرواية.

¹ هواجس في التجربة الروائية: حنا مينة، ص 14.

² المستنقع، ص: 94

³ نفس المصدر: ص 295.

⁴ نفس المصدر: ص 261

الربيع والخريف: صدرت هذه الرواية في سنة 1984م عن دار الآداب سوريا، وهذه الرواية اوتوبيوغرافية أخرى تروي مرحلة سنوات المنفى التي يعتبرها المؤلف عقيمة وضائعة من حياته. لقد وجد كرم الناصري - الشخصية الرئيسية - نفسه في مدينة "بودابست" بعيدا عن الإشكالية التقليدية المطروحة في الرواية العربية وهي إشكالية "الشرق والغرب" فالبطل لم يعيش في الغرب الاشتراكي، الحرمان الجنسي والأزمة والتواصل مع المرأة الأوروبية ولا إحساسا بالغربة إزاء القيم الاجتماعية السائدة في المجتمع المجري. فهو على العكس كاتب مقتنع بالاشتراكية ويناضل في حياته من أجل تحقيقها في بلاده. ورغم اقتناعه بالعدالة التي تسود في بلاد المجر فإنه يعيش تمزقا عنيفا ناتجا عن مفهومه الثوري للعدالة ذلك أن كرم الناصري يعتقد أنه لا يجوز الاستفادة من مجتمع اشتراكي لم يساهم في بنائه، كما لايجوز وهو في خريف العمر أن يحب طالبة مجرية جميلة في عمر الربيع. وهو إذ يحس بانتمائه إلى وطن يعرفه بأنه وهو "حنين إلى مجهول، إلى صدر، إلى هالة بدرية، إلى ابتسامة ماسية، إلى مخلوق غير محدد غير مجسد لكنه موجود ونادر وبهي وماجد.¹ يعتقد أن الكاتب الحقيقي لا يستطيع أن يكتب أو أن يحب حقيقة إلا عندما يكون في وطنه بين أهله ومواطنيه. إلا أن كرم المجاهدي يحمل في حقيقة الأمر جُلّ ملامح المؤلف الشخصية. فهو روائي وكاتب قصة قصيرة² وهو يكتب روايته الثالثة التي بدأها في الصين الشعبية بدون أن يكون قادرا على إتقانها، وهو

¹ الربيع والخريف: حنا مينة، ص 21.

² نفس المصدر، ص 21.

يظل معرّضا للجوع والبطالة بعيدا عن وطنه، ولذلك يرفض التعود على الحياة الهادئة السهلة في المجر وقد اتبعته العلاقات الاجتماعية فكان إغراقه في علاقات الجنسية ضربا من التعويض السياسي ومرضاً ينتابه¹. وغدا الحب في النهاية مستحيلا لكنه وهب نفسه للناس والوطن والقضية، ولذلك لم يستطع أن يكتب ولا دواء له إلا العودة إلى الوطن². وحتى يهيئ نفسه للعودة، بدأ بوضع حد لعلاقاته النسائية و لـ"مهزلة المتحف"³. وقد عمق انشغاله الوطني الأزمة وعجّل العودة إلى الوطن. ففي يوم 17 سبتمبر 1967م كان في مطار دمشق لتعتقله السلطة⁴.

المصاييح الزرق: صدرت هذه الرواية 1954م وهي رواية تسجيلية استغرق في تأليفها ثلاث سنوات كاملة. فهي لم تكن من الروايات الناجحة إذ تعرضت إلى كثير من الاعتراضات الفنية التي أشار إليها النقاد⁵. ترمي هذه الرواية إلى وصف مدينة اللاذقية أثناء الحرب و حياة الناس الذين كانوا يعيشون فيها، ونتيجة لذلك يلعب الشخصون الظرفيون دورا هاما في بنيتها ولا يجسّم الشخصون الهامشيون حضورهم إلا لكي يكونوا رُسل المؤلف يعبرون عن آرائه ومواقفه. وبما أن المؤلف كان مهووسا بالمأساة الاجتماعية ولذلك ظل يبحث في هذه الرواية عن مرض خطير كمرض السلّ ليضع حدا

(1) نفس المصدر، ص 227.

(2) نفس المصدر، ص 269، 226.

(3) نفس المصدر، ص 297.

(4) المصاييح الزرق: حنا مينة، ص 19

(5) سعيد حورانية، مقدمة رواية الشراع والعاصفة

لحبكته. والرواية تسعى إلى أن تكون رواية ذات بطل إيجابي، ففارس هو فعلا شخصية متميزة إذ تمر بتجارب فردية وجماعية تضعه محل اختيار وتوزيع بين الشخصيات الثانوية التي تلعب أدوارها هامة. ومع ذلك فإن الرواية تعرض حكاية بطل ومجتمع في آن واحد، ففارس صبي لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، كان يعيش مع أسرته في مدينة اللاذقية أثناء الحرب العالمية الثانية، ولكنه يترك الدكان الذي كان يشتغل فيه لأن صاحبه يدعى إلى الحرب. فيجد في نفسه فراغا قاسيا في بيت فقير ليس في الواقع إلا حجرة على يمين الباب الكبير بسكن جماعي يلتقى فيه بعض العمال البطالين وبعض القرويين الذين استقروا في المدينة منذ وقت بعيد. وبعد ذلك نراه يدخل السجن بسبب خصومة بين الخبّاز وسكان الحي والتي سرعان ما تحولت إلى معركة مع السلطات الفرنسية، وبعد تجربة السجن يعود إلى البطالة والفراغ ويحب جارته "رندة" التي تشتغل مع أمه في "الرّيجي" ثم في النهاية يلتحق بقوات الحلفاء وقد انسدت أمامه كل الآفاق، وعندما تنتهي الحرب يموت البطل وتموت الحبيبة. نرى الأبطال الآخرين في هذه الرواية بأنهم يشاركون في المظاهرة ضد فرنسا لأنها قسمت الوطن وأحالت جزء منه على الغرباء. كما أهان الجنود الفرنسيون سكان الحيّ بإقامة علاقة جنسية مع النساء و قتل الرجال¹ ولكن تنتهي الحرب بعد سنتين ويعود الجنود إلى بيوتهم كما تستعيد الحركة السياسية في الحيّ. لذا تبدو الرواية قصة مجتمع يقاوم الظلم في ظلال الأضواء الزرقاء.

¹ أنظر المصباح الزرق: ص 170، 171.

الشراع والعاصفة: ألفت هذه الرواية في فترة دامت سنتين (1956- 1958).

وهي رواية تسجيلية أخرى، من أشهر رواياته. "الشراع والعاصفة" ملهمة البحر، تخطت شهرتها الحدود الجغرافية في العالم. إنها قصة رجال البحر المردة في صراعهم اليومي المرير مع الموت في البحر الهائج، والعواصف الهوجاء، يقابلونها بأشرعتهم الممزقة، وقواربهم العتيقة، وعزمهم المستمد في صخور الشيطان، وإن فيها لروحا أسطوريا حنونا ولكنه غائص الجذور بالأرض. وبما أن الرواية تتميز بريادتها في الأدب البحري، بل هي اللبنة الأولى لهذا الأدب المتموج الزاخر بمياه البحر والأمواج والحوادث المرتبطة به، ومن ثم نجد هتاف "البحر ملك" وهي صيحة الاحترام العميقة التي يطلقها كل بحار، والطروسي، بطل القصة الأول يؤمن بسلطنة البحر كما يؤمن بسلطنة المرأة، ولكنه، في عنفوان شعوره برجولته، يعرف كيف يكون ترويض النمر. إن البحر صديقه اللود، ليجتذبه بعيونه الرمادية الباردة ليجر نحو جزر مهجورة، يغتص عذريتها بفتوة الفارس. لقد اكتشف معنى الحياة، ولذلك أحس بثقل وقع أقدامه على الأرض.

ومن حيث المضمون نجد الرواية عبارة عن قصة مدينة ساحلية أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث صور حذاً ببراعة مدهشة، أثر هذه الحرب وما تركته من عواصف في بلاد يحتلها الفرنسيون، وأبرز التناقضات التي تفترس مجتمعا غير متجانس، ولكنها

أولا قصة رجال البحر، قصة الانتصار على عوامل الطبيعة القاسية، قصة الإرادة البشرية والمغامرة.

يبدو الطروسي في هذه الرواية الشخصية المركزية فهو بحار يعشق البحر، ويجتذبه البحر بعيونه الرمادية الباردة ليجر نحو جذر مهجورة يفتض عذريتها بفتوة الفارس، ويقف في وجه كل من يحاول السيطرة على الصيادين وعمّال الميناء، ويجمع كل مشتاق البحر في مقهى بسيط يحتوى الصراعات والعلاقات المتوترة في مجتمع البحر. إنه ربط ماضيه ومستقبله بشاطئ اللاذقية في سوريا، بعدما غرق مركبه أثناء عاصفة هوجاء عام 1936م. ولكنه ظل دائما رفيق البحر وجاره في الفصول الأربعة. إنه افتتح مقهى على الشاطئ و رغب في العودة إلى البحر لكن الحياة تغيرت، إذ أصبح البحارة عمالا وهو لا يقدر في مثل هذا العمر أن يتحمل هذه القضية الجديدة، أو أن يصبح رجلا من رجال سعادة الميناء، هكذا يجد نفسه وحيدا بعد موت والديه وسفر إخوته فيدير شؤون مقهى صغير يستقطب مشاغل البحارة، إن البطل في الرواية يواجه صراعين، والمدينة تنقسم إلى تجمعين سياسيين يتصارعان بدورهما في سبيل الوصول إلى الحكم بعد جلاء الفرنسيين. كما أن البطل يواجه مشاكل الحياة العامة في وطنه. وهي متشعبة محقدة يصعب حلها جراء العوامل الكثيرة الموجودة في كل الدول الثالثة والنامية.

نجد في هذه الرواية الصراع القائم بين الناس. أبو رشيد هو وحده المالك للمواعين رغم تواضعه¹. وهو سيد الميناء و يبسط نفوذه على العمال بمساعدة أحد رجاله "الشرعيين" أبي أمين، مدير الميناء² كما يعرض رشاي على أصحاب النفوذ في المدينة و يشغل نفسه في السياسة ويدعم حزبه، ولكن نرى الصراع بينه وبين نديم مظهر الذي بدوره الرجل الأقوى في حيّ الشيخ الظاهر³. يقوم أبو رشيد الذي يؤيد الكتلة الوطنية بإثارة البحارة ورجال الأمن⁴ ضد عائلة نديم مظهر التي تدعم الكتلة الشعبية. أما الطروسي فهو يبدو طرفا في هذا الصراع، فيسعى أبو رشيد إلى إبعاده من التنظيم النقابي لحقوق العمال⁵، كما يحاول بقتله أيضا بواسطة أحد رجاله.

أما في خارج الميناء فنرى صورة مختلفة. مجموعة يونس بحري⁶ التي إلى جانب ألمانيا وتعتبرها سبيل الخلاص من العبودية بأن تربط استقلال الدول العربية بانتصار هتلر في حربه. فحين نرى الأستاذ كامل رجلا ملتزما بالأمور السياسية وهو مؤيد الأتحاد السوفياتي ويرى أن القضايا معقدة وكل ما يحدث في العالم يوجه قضايا الوطن. أما طروسي فهو لا يلتفت كثيرا إلى هذه الأشياء كما لا يفهم جيدا تحمس الناس لروسيا

¹ الشراع والعاصفة: ص 34.

² نفس المصدر: ص 25.

³ الشراع والعاصفة: ص 42

⁴ المصدر نفسه: ص 152.

⁵ نفس المصدر: ص 39

⁶ يونس بحري، مزيغ في راديو برلين، من أصل عراقي، أقام في تونس عام 1937- أنظر شارل أندري جوليان ، أفريقيا الشمالية تسير، دار التونسية للنشر 1976، ص 117.

وألمانيا وقضايا العالم¹. ولكن بعد خيبة ألمانيا في الحرب العالمية الثانية اتسع العمل السياسي في الوطن العربي، و بمساعدة الأستاذ كامل فهم الطروسي حقيقة الأمر وحب الوطن. فقام الطروسي بانقاذ مركب الرحموني من الغرق.

المرصد: صدرت الطبعة الأولى لهذه الرواية عام 1980، كما صدرت من قبل بصورة قصة قصيرة بعنوان "الجبل" سنة 1974. يظهر عنوان الرواية محتواها، فالسارد يروي قصة تحرير المرصد الذي شيده الإسرائيليون فوق جبل الشيخ أثناء الحرب العربية الإسرائيلية عام 1973. والمصاعب الجمة التي صاحبت تحرير المرصد جعلت هذه الحرب من أصعب الحروب والانتصار بمثابة المعزة².

وقد لعبت السياسة دورها وتدخل الأمريكيون ولم يفعل المصريون شيئاً سوى أنهم أبعدها الجنرال شاذلي³، ووجدت سورية نفسها في وضعية صعبة، ولكنها ترفض التنديد بالمجهود العربي المشترك في المعركة الذي كان من الممكن بواسطته تحقيق النجاح الكامل.

¹ الشراع والعاصفة: ص 149

² أنظر المرصد: دار الآداب بيروت، 1983، ص 66.

³ نفس المصدر، ص 301.

كما ترمي الرواية إلى إبراز شجاعة المقاتل العربي وبطولته في حرب أكتوبر في جوان 1967¹. فالسارد يشير في هذه الرواية إلى استقالة جمال عبد الناصر وأثرها في رأي العالم العربي، كما يحلل الأسباب الموضوعية لهزيمة العرب².

تبدو رواية " المرصد " رواية تسجيلية"، فالأشخاص هم رجال معروفون برزوا ببطولاتهم وشجاعتهم أثناء حرب أكتوبر. تعرض علينا هذه الرواية عالما متناسقا، وتصور لنا مجتمعا تجاوز تناقضاته الداخلية ويواجه عدوا واحدا، نرى الشخص على جبهة القتال يناضلون من أجل مقاومة العدو بالوحدة. تتجلى الديمقراطية في حياة المناضلين والمقاتلين في ميدان القتال. نرى الأبطال يظهرن شجاعتهم بكل ناحية، هكذا تصبح الرواية وثيقة سياسية عسكرية.

الشمس في يوم غائم: طبعت هذه الرواية للمرة الأولى في بيروت سنة 1975م. وهي رواية ذات بطل إشكالي، تروى قصة راقصة وراقص، فالسارد البطل يرقص مرتين وفي كل مرة تتخذ الرقصة دلالة خاصة، فمنذ بداية الرواية يبدو لنا البطل يبحث عن وسيلة فنية يستطيع بها التعبير عن ذاته وكيانه. الرواية عبارة عن رقصتين. فالرقصة باعتبارها عملية إبداعية تثير قضية الانتماء. لقد رقص الفتى عبر الأحداث الرواية مرتين، وفي كل مرة كان يعطي للرقصة دلالة متميزة، فنجاح الرقصة حسب قواعدها

¹ نفس المصدر: ص 109.

² نفس المصدر: ص 107.

الفنية هو التعبير الرمزي عن فكرة التعاطف الاجتماعي والتأمل الحضاري. ولقد أثر الفتى أن يكون فكريا في صف الخياط والمرأة و ضابط الإيقاع وزملائه الذين يتظاهرون ضد الانتداب ويطالبون بالحكم الوطني. بيد أن هذا التعاطف الفكري في حاجة إلى حسم، فلا يكفي الفقراء والفلاحين أن نتبنى أفكارهم، بل لابد من اتخاذ موقف واضح من المعادلة الاجتماعية الصعبة، وعلى الفتى أن يكون في أحد طرفي المقابلة.

والرقصة الثانية هي رقصة خيبة الانتماء، وهي تعكس موقف الفتى من الصراع الاجتماعي والحضاري أيضا، وهو صراع أدركه منذ بداية وعيه، وسياق النص يؤكد هذه الدلالة، فالفتى يظل طوال أحداث الرواية في حركة دائمة بين الحيين، فلا يترك حيّ الفقراء إلا لكي يعود إلى بيئته في حيّ الأغنياء. وهذه الحركة الحثيثة تشير إلى حالة التمزق التي يعيشها، فأزمته إذن هي أزمة التأصل فعبثا يسعى إلى خلق "الوفاق" والانسجام بين القطبين المتنافرين. ومأساته أنه وجد نفسه مرفوضا بين القطبين، يقول الفتى "دخلت السور فرفضت وخرجت منه فرفضت"¹ وبذلك تنتابه أحيانا حالة إحساس بالذنب إزاءهمه فيرى أن تعاطفه مع الخياط، ومكان الحيّ كان طيشا لا يتمشى مع وضعه الاجتماعي. وهو من ناحية أخرى يسعى إلى التفكير عن خطيئته لم يرتكبها وهي خطيئة قتل أبيه وأصحاب الأراضي الفلاّحين،² وإذ يخيب في إنجاز هذا المشروع

¹ الشمس في يوم غائم: حنا مينة، ص 193.

² نفس المصدر، ص 202.

الحضاري الشامل المتمثل في تحقيق الانسجام والوفاق. وفي تحقيق الحلم الإنساني في التعانق الشفاف مع مطلق تكامليته يظل بين بين في وضعيّة وسطى بين رقصة الخنجر ورقصة التانغو، فما استطاع التخلص جذريا من انتمائه الاجتماعي السابق ولا استطاع كذلك التّأصل في الوضع الاجتماعي الجديد الذي اكتشفه. وقد ظل مقتنعا أن شيئا سخيّا يشوّه علاقات الناس أحيانا¹.

الثّلاج يأتي من النافذة: صدرت هذه الرواية في بيروت سنة 1969م. وكتبها المؤلّف في مرحلة صعود البورجوازية الصغيرة وسيطرتها. فلذا نرى شخصياتها المحورية يسارية بالوعي وليس بالوضع². أما الوظائف السردية في هذه الرواية، فهي تقوم على فكرة رئيسية وهي "حياة المناضل السياسي وكيف يواجه هذا المواطن واقعا اجتماعيا غير عادل"³. يفرّ بطل الرواية فياض -كاتب وأستاذ في الجامعة- إلى لبنان، وينتمي إلى إحدى التنظيمات السياسية. ولكن يلاحقه رجال الشرطة فلذا يضطر أن يعيش في بيروت مختفيا عنهم. أولا يعيش في بيت صديقه خليل حيث يعلمه صديقه درسه الأول خارج المدرسة⁴، لأن خليل عرف السجن وتعلم فيه بعض المفاهيم الاشتراكية. فبمساعدة خليل يفهم فياض مفهوم النضال يخضع النظرية للواقع والممارسة. يعمل في المطعم ليفهم

(1) نفس المصدر، ص 206.

(2) كامل الخطيب، عبد الرزاق عيد، عالم حنا مينا الروائي، دار الآداب 1979، ص 48.

(3) عالم حنا مينة الروائي: محمد كامل خطيب، عبد الرزاق عيد، ص 42.

(4) الثّلاج يأتي من النافذة: ص 45.

الأوضاع المريرة والوجه الآخر للحياة وحقيقة العالم الصغير والقاسي في نفس الوقت¹. وعندما لا يستطيع أن ينجز هدفه يرحل من بيت صديقه و يصل إلى بيت جوزف وهذا الآخر بدوره مناضل و مولع بالأدب ويقوم بالثورة على طريقته الخاصة². ولكن فياض لا يجد الطمأنينة النفسية على الرغم من كل التسهيلات اللازمة³. يبدأ حياة جديدة بواسطة العمل في حظيرة بناء في كرم الزيتون بعد أن أخذ اسما مستعارا. لم يستطع أن يستقر فترك العمل وأصبح حرفيا في معمل قديم للمسامير. واختفى من هنا لكي لا تكتشف حقيقته وقام بنشر المنشورات الثورية وتوزيعها في الخفاء. ولما اكتشف الأمر ألقى عليه القبض من قبل الشرطة فجاءت صورته في الصحيفة. وبعد السجن يقرر فارس أن يعود إلى وطنه الحبيب، لأنه أدرك الحقيقة بأن البرد لا يأتي من الثلج بل من الغربية. وداعا للغربة⁴. نجد في هذه الرواية خلاصة تجربة المؤلف التي عاشها وشاهدها خلال حياته.

الياطر: صدرت هذه الرواية للمرة الأولى سنة 1975 من دار الآداب ببيروت. تبدو هذه الرواية في شكلها الظاهري مجرد حوار باطني، كما أكده أيضا الكاتب بنفسه⁵. وقعت حادثة الرواية في حانة من خلال كؤوس الخمر. أما الوظائف السردية فهي قصة رجل يلاحقه القانون بسبب ضربه بالخنجر صاحب حانة زخر يادس لأنه أخذ حقه بثمن تافه.

¹ نفس المصدر: ص 63.
² نفس المصدر: ص 163.
³ نفس المصدر: ص 163-164.
⁴ نفس المصدر: ص 372.
⁵ هواجس في التجربة الروائية: ص 19.

يتسكع في أحضان البحر والغابة والمرأة والوحدة، ولم تقدر المدينة فضله بربط الحوت. يمر في الغابة بالحياة المريرة، حيث يتعرف على إبراز ملكاته الأخلاقية الكامنة فيه. في هذه الرواية تلعب دورا هاما الراحية- شكيبة- امرأة تركمانية التي تغير نظرية بطل الرواية زكريا المرسلني عن المرأة بأنها بطّخة لا تحمل عقلا في الرأس". فيقر بعد أن عرف الحقيقة بأن المرأة أيضا تضع شئيا في سروال الرجل. هي توفر الحياة التي يجد فيها الرجل الطمأنينة. يفهم أيضا أن الفرار من المقاومة هو ليس الحل بل إظهار الشجاعة أمام العدو هو الحل الوحيد للتغلب على ظلمهم. فيعود في نهاية الرواية إلى المدينة، حيث يظهر حوت جديد، ليربطه مرة ثانية.

مأساة ديمتريو: صدرت "مأساة ديمتريو" في شكل رواية متكاملة في بيروت سنة 1985. الرواية تروي حكاية موسيقي يوناني الأصل ديمتريو، الذي يعيش تمزقا حادا بين القلب والعقل. وفي لحظة من حياته يدرك بأن أصبح واقعا أكثر مما يلزم، ويكتشف بأنه يحب أم تلميذه الذي يعمله الموسيقى. يجد ديمتريو العقلاني نفسه في مواجهة ديمتريو العاشق، ولا يمكن الفرار من الحقيقة. ولكن على مر الزمن يصل إلى نتيجة بأن الحب بين الإنسان الفقير وبين امرأة جميلة وثرية لا يمكن تحقيقه. كما تحكي الرواية عن راجعة "بطلة الرواية" فهي فتاة جميلة، ابنة مثقف فهيم المتجر. تعيش في انتظار "راجع" فارس أحلامها. وعندما يتأخر هذا الفارس عن مواعده تضطر للزواج مع رجل من أهل

الصناعة ينتمي إلى الطبقة الاجتماعية الجديدة التي تهيمن على البلد. راجعة متعلمة تحمل عقلا في رأسها، ولكن هذا الزوج ذو السلوك السيء لا يفهم امرأة تحلم بمجتمع عادل وتؤمن بالمساواة حيث يستطيع الإنسان أن يعيش بعيدا عن الفساد اليومي وتدهور الأخلاق البورجوازية. وعندما ظهر راجع فهو بدوره فقير¹ معلم الموسيقى وقع في حب راجعة ولكن لا يستطيع إعلان حبه الحقيقي خوفا من المجتمع. فالقصة تروي لنا أن المرأة لا قيمة لها في مجتمع يعبد رجاله رالمال. وهي من دورها تتحني أمام المجتمع الذكوري.

ثلاثية البحر: كتب هذه الرواية في فترة زمنية فيما بين 1981-1983م، وتقوم هذه الثلاثية على ثلاثة أجزاء متتابعة تبلغ معا 1100 صفحة، وبذلك تعتبر أطول رواية ألفها الكاتب. وتحمل الثلاثية العناوين التالية: حكاية بدار، والدقل، والمرفأ البعيد.

لقد عاش بطل الثلاثية ممزقا بين البحث عن أب اختفى في ظروف غامضة والتعلق بامرأة كانت عشيقة الأب طوال حياة دامت أكثر من أربعين عاما.

سعى السارد من خلالها إلى رسم ملامح المجتمع السوري منذ منتصف الثلاثينات إلى بداية السبعينات. ومع ذلك فإن الرواية تطرح موضوعين أساسيين هما: البحث عن الأب بكل رموزه ودلالاته والصراع من أجل امرأة بكل ما تحمل كذلك من رمز و دلالة.

¹أنظر رواية مأساة ديمتريو: ص 174.

فالرواية إذن هي رواية أحداث تقوم أساسا على تتابع حكايتين في الزمن هما حكاية الأب وحكاية الإبن.

حكاية بحار: ظهر الجزء الأول من ثلاثية البحر سنة 1981 في بيروت. تحوم الوظائف السردية حول البطل سعيد حزوم في هذه الرواية. هو مغامر يدنو من الشيخوخة فيودع البحر معترفا بقانون الطبيعة الإنسانية. قد أثار الحادث شحون البطل وذكرياته، يمثل الأب في الرواية غائب و يترك ميراثا بطوليا يجب المحافظة عليه. صالح حزوم كان بحارا فقيرا. أنقذ المراكب النهرية من عاصفة هوجاء لا مفر من خطورتها، هكذا نال إعجاب أهل الحيّ. يقوم بدفع هجمات الأحياء ولا يخاف إبن الحكومة¹. يؤمن بالعروبة ولا يتحمل خيانتها فلذا يطرد كاترين الحلوة من الحيّ عندما أطلق سراحه، لأنها شجعت الأتراك على دخول الحيّ عند غيابه. نرى صالح حزوم قائدا شعبيا يتحول تمرده الاجتماعي إلى تمرد ذي أهداف سياسية². وفي حالة غيابه من الحيّ يجلب صفائح الكاز والبنزين من سفينة فرنسة غارقة في البحر لكي لا يموت سكان الحيّ بسبب الجوع والفق³. فهو يحمل قدرة لإنجاز إرادته، فعلى الإبن أن يبحث عن أبيه، هكذا سعيد يجد نفسه أمام اختبار صعب.

¹ حكاية بحار: ص 180-181.

² حكاية بحار: ص 269.

³ أنظر نفس المصدر: ص 270-271.

الدقل: صدرت هذه الرواية، الجزء الثاني من ثلاثية البحر، بعد سنة واحدة من الجزء الأول في بيروت. تقوم الوظائف السردية في هذه الرواية على تتبع مسيرة سعيد حزوم بعد غياب أبيه. أصبح البحث عن أبيه بمثابة البحث عن الذات، ولا داعي للشك في شجاعته¹، فهو يواجه الطبيعة والظلم الإنساني، أي البحر والاستعمار الفرنسي. كما يبدأ صراعه الاجتماعي في السجن عندما أتهم بأنه قام بارتكاب جريمة بحق الإنسانية، لأنه أغرق جثة بحار ميت وتحدى بذلك السلطات الفرنسية². يكتشف البطل في السجن عالما جديدا فاسدا يعكس فساد المجتمع السوري. ولكن يجد مخرجا في هذا المكان مجالا للنضال. عندما يخرج من السجن بعد ثلاث سنوات يرى واقعا سياسيا جديدا، إذ أحتل الأتراك لواء اسكندورن، فيضطر أن يرحل مع أسرته إلى اللاذقية. يتعرف على قاسم العبد الذي يساعده لفتح مجال الوعي بالأوضاع السياسية السائدة في البلد كذلك بضرورة تنظيم الحركة العمالية في الميناء³. يجد البطل نفسه كذلك في مواجهة مباشرة مع الرئيس عبدوش زوج كاترين الحلوة، عندما يقول عبدوش خلال العاصفة على المركب في البحر "لنغرق معا يا سعيد، أنت في البحر وأنا على ظهر المركب، هكذا لا تكون كاترين الحلوة لك ولا لي وهكذا تتحقق العدالة بيننا"⁴. بهذه العبارة تنتهي الرواية.

(1) الدقل: ص 24.

(2) نفس المصدر: ص 144.

(3) أنظر نفس المصدر: ص 201، 211.

(4) الدقل: ص 333.

المرفأ البعيد: ظهرت الطبعة الألى من هذه الرواية سنة 1983 في بيروت. وهي أكبر الروايات الثلاث حجماً حيث يبلغ عدد صفحاتها إلى 408 صفحة. تدور الوظائف السردية في هذه الرواية حول محورين أساسيين هما: بقية حكاية سعيد حزوم مع كاترين الحلوة وأبيه الذي لم يعثر عليه. يعود سعيد حزوم إلى الحيّ بعد غرق المركب و يواجه العطالة من جديد كما لا تصدق القصة التى يروي سعيد على كاترين بغرق المركب بل تتهمه بأنه قام بالجريمة.

إن أبرز الوقائع التاريخية في ثلاثيته هي الوقائع الاجتماعية والسياسية التي توطر الأحداث في هذه الرواية من أحداث سنة 1939م المتمثلة في الصراع بين العرب والأتراك، والأزمة الاقتصادية العالمية وأثرها على الحركة العمالية والقوى السياسية في القطر، والحرب العالمية الثانية وموقف الشعب السورى إزاء القوى العالمية المتصارعة، والصراعات السياسية من أجل الوصول إلى السلطة، والنفس التقدمي في النقابات والتنظيمات السياسية ... يعنى هذا، أن كل مؤلفات حنا مينة يفسر بعضها بعضاً، وكلها تنهلّ من عين واحدة وهي تاريخ سورية منذ فترة ما بين الحربين إلى نهاية الستينات وتاريخ حياة حنا مينة الشخصية الزاخرة بالوقائع والأحداث، ولذلك نلاحظ أن بعض الأحداث تتكرر أحياناً وأن بعض التحاليل الاجتماعية والسياسية تتشابه بشكل أو بآخر.

هذه بعض النوافذ على عالم حنا مينة التي نطلع من خلالها على القضايا الاجتماعية والسياسية في الفترة ما بين الحربين العالميتين في تاريخ سوريا. ومن خلال تعريف بعض الروايات المهمة أشرنا إلى بعض القضايا الاجتماعية السياسية في رواياته.

الباب الثاني

القضايا الاجتماعية في روايات حنا مينة

- الفصل الأول: القضايا الاجتماعية في رواياته: دراسة عامة
- الفصل الثاني: تحليل القضايا الاجتماعية في رواياته

الفصل الأول

القضايا الاجتماعية في روايات حنا مينة: دراسة عامة

حنا مينة كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين، عالج في معظم رواياته القضايا الاجتماعية من نواحٍ شتى. فقبل الخوض في الموضوع يجدر بنا أن نشير إلى العامل الاجتماعي في تكوين شخصيته وأعماله الاجتماعية، لأنه عاش تجربة التشرد والنفى والفقر والجوع ولكنه لم يكن راغباً في ذلك، بل كانت هذه التجربة بمثابة الواجب الذي فرضه عليه المجتمع، ومع ذلك يحمل التجارب الغنية التي ساعدته على معالجة القضايا الاجتماعية. فهناك ثلاثة عناصر لعبت دوراً هاماً في تكوين شخصيته الاجتماعية وهي الهامشية، وتأثير الماركسية، والدين. نقدمها بقدر من التفصيل فيما يلي:

الهامشية: فتح الروائي عينيه في مجتمع مخيم عليه الفقر والبؤس، والجهل، والنسيان، والتهميش الاجتماعي. فقد وجه الإحساس بالتهميش الاجتماعي حياة المؤلف طفولته وشبابه الأول. فقد انبثق وعيه في عائلة عاشت على الترحال مهددة بعدم الاستقرار الاجتماعي مدة طويلة، فالأبوان لم يفلحا في الانصهار في البنية الاقتصادية إلى حدود سنة 1939م. وقد وجد الأب العاطل في أغلب الأحيان نفسه متصلاً ببعض المهن الهامشية. والأم التي اشتغلت خادماً كانت تعيش تحت وطأة الخوف والقلق والاضطراب النفسي، وقد تعرضت العائلة للظلم باستمرار. ولقد قرب هذا الإحساس بالتهميش الكاتب، فقد كان شاباً من أنصار الحركة العمالية ومناضليها، فقد وجد لديهم مجالاً لتعميق وعيه الاجتماعي والإيديولوجي، فهو يذكر مرتين

على الأقل قصة "الكرّاس" أو "الكراس الصغير" الذي قرأه لأول مرة عن طريق أحد النقابيين¹. وذلك في روايتي "المستنقع" و "الثلج يأتي من النافذة" يعني هذا أن الأثر الخيالي حدّد معالمه الأثر الأوتوبيغرافي، ومع ذلك بيّن لنا تحليل شخوص الروائيين أن العمل النقابي متصل مباشرة بالعمل السياسي، فكل النقابيين سياسيون والمناضل النقابي هو سياسي يساري، وإذا حاولنا أن نخلق هذه الملاحظة المعتوية بحياة المؤلف الشخصية أدركنا أن مفهوم اليسار أو التقدمية يتصلان مباشرة بالعقيدة السياسية والاجتماعية للحزب الشيوعي السوري.

انخرط الكاتب فعلاً في الحزب الشيوعي السوري مبكراً، وإذا كان قد اتصل بالشيوعية في مدينة اسكندرونة عندما كان طفلاً يافعا فإنه قد عانق الأفكار الماركسية² وأصبح مناضلاً شيوعياً نشيطاً عندما كان في مدينة اللاذقية يشتغل حلاقاً. فهل يعني هذا أن تحليله السياسي الاجتماعي رهين انتمائه السياسي وأطروحات الحزب الذي انتمى إليه؟

وعندما ندرس أعماله الروائية نجد التهميش من الظواهر المحددة لأعمال حنا مينة الروائية. ذلك أن طبيعة البطل الروائي تترجم مفهوم التهميش. فالكاتب يختار أغلب أبطاله من فئة اجتماعية مهمشة أو تعيش وضعية تهميش وقتية، فالطروسي بحار ولكنه يعيش طوال الحدث الروائي وضعية اجتماعية تجعله على هامش حركة الحياة في انتظار اللحظة التي يعود فيها إلى الفعل. "فالطروسية" هي في نهاية الأمر فعل هامشي، فهو لايملك مركبا للمنافسة ويرفض أن يصبح عاملاً وبذلك يكون طرفاً مباشراً في الصراع. ثم إن المغامرة الكبرى في

(1) أنظر "المستنقع" و الثلج يأتي من النافذة
(2) حنّامنية كاتب الكفاح والفرح: محمد الباردي ، ص 263.

نهاية الرواية، وهي التي توّجت الطروسي بطلا، لم ينظر إليها أبو أمين مدير الميناء إلا باعتبارها تدخلا غير مرغوب فيه لأنه يخرج عن النظام الجماعي والرسمي في الميناء. وبالإضافة إلى ذلك، نلاحظ أن النزعة الإنسانية المثالية التي تغمر الطروسي تجعله يمارس بطولته على هامش الصراع الاجتماعي الحقيقي رغم التبرير الذي يقدمه الروائي نفسه عندما يفسر موقف بطله بلا مبالته إزاء صراع لا يهمه. كذلك يبدو زكريا المرسلني بطلا هامشيا بدون منازع، فهو صيّد يستهلك مردود سمكاته الصغيرة في تناول الخمرة، بالإضافة إلى موافقه إزاء المجتمع والعائلة. وهو منذ الطفولة لم يفلح في أي مهنة، البحر وحده منحه معنى الحياة وأهداه إمكانية مشاكسة حितانه ومغازلتها طوال حياته بعيداً عن الاهتمامات السياسية. والفعل الوحيد الذي أنجزه عندما قتل الحوت الكبير خال بالنسبة إليه من أي معنى اجتماعي وسياسي.

والإحساس باليتم يتصل وثيق الاتصال بمفهوم التهميش بالنسبة إلى سعيد حزّوم، فهدفه الأساسي هو العثور له على الأب حياً أو ميتاً ويتخذ البحث عن الأب معنى البحث عن الهوية الذاتية والجماعية معا كالعثور عليه يعني في النهاية الإدماج في صلب البنية الاجتماعية والسياسية في البلاد. يقول البطل "البحار" في النهاية له شجرة عائلة، ترى ماهي شجرة عائلتي؟¹ هو يصير على أن يكون أحد أفراد هذه العائلة، ولذلك فمثل هذه العبارة "أنت ابنتنا وأخونا الآن"² ترضي غروره. ومع ذلك فإن سعيد حزّوم ما استطاع أن يعثر على أبيه ولم

¹ الدقل: حنا مينة، ص 187.

² نفس المصدر، ص 188.

يفلح في أن يصبح صاحب مركب، كما يرفض أي يصبح في يوم ما عاملاً¹. ونتيجة لذلك فهو يرفض أن يكون أحد عناصر الصراع الاجتماعي (رأسمالي - عاقل) وهذا يعنى أنه يفضل الحياة الهامشية على الاندماج الاجتماعي. وفي نهاية الرواية يعود البطل إلى الوطن ولكنه يجد نفسه في واقع الأمر مهمشاً اجتماعياً فلم تقدر البنى الجديدة على استيعابه رغم تجربته الطويلة.

كما نجد أن ديمتريو عاش حياته كلها مهمشاً. فمنذ شبابه الأول يجد نفسه في مدينة اسكندرونة على هامش البنية الاجتماعية والسياسية فهو لم يستطع أن يكون طرفاً في الصراع الدموي بين اللواء والأتراك، وفي "اللاذقية" لم يجد مكانه في البنية الاجتماعية فرغم شهادته الموسيقية فقد ظل معلم موسيقى لدى أسرة تنتمي إلى البورجوازية الجديدة الصاعدة. وعلى هذا النحو يمكن أن نحلل شخصية فارس في "المصابيح الزرق" وشخصية الفتى في "الشمس في يوم غائم".

الماركسية وتأثيرها: الماركسية عامل قوي اجتماعي في روايات حنا مينة. والتهميش ظاهرة تعكس حالة نفسية للكاتب ولكنها تتصل بالعامل السياسي. ذلك أن سعى بطل حنا مينة إلى التهميش رهين تحليل موازين القوى السياسية التي لا تعتبر في صالح الطبقة العمالية ومن ثمة فإن هذه الطبقة غير مؤهلة لإفراز شخصية روائية مركزية تحمل عقيدتها السياسية وتعمل في إطار المفاهيم الاجتماعية والسياسية. فحامل العقيدة الماركسية لا يمكن أن يكون بطلاً في

¹ المرفأ البعيد : حنا مينة، ص 56، 57.

أعمال حنا مينة، ومع ذلك فإن الكاتب لا ينفك يؤكد دور الطبقة العاملة في تاريخ سورية الحديث، ولا سيما في رواياته التي تنتزع نحو السيرة الذاتية حيث يوحى بأن الحركة النقابية كانت تعمل بتوجيه من الحزب الشيوعي. إن النقابة في روايات حنا مينة هي نقابة حمراء. وهو لا يكاد يذكر شيئاً عن دور بقية الاتجاهات السياسية في علاقتها بالعمل النقابي، وهكذا فإن الحركة الشيوعية ضحت في منظور الكاتب من أجل الاستقلال بأبرز مناضليها (عبد القادر وفايز الشعلة و خليل وقاسم العبد). كذلك يعكس مفهوم البورجوازية الوطنية والدور الإيجابي الذي لعبته الكتلتان، اختيارات الحزب الشيوعي السياسية وجلّ الأحزاب الشيوعية العربية. لقد تحالف الحزب الشيوعي السوري مع الكتلة الوطنية ومع بعض أجنحة حزب البعث، وهو ما يبرر موقف حنا مينة في النظام القائم، وهو موقف نلخص في "المساندة النقدية" ويبدو جلياً في ثلاثية البحر. فهو يمتدح إنجازات نظام البعث الاشتراكية ولا سيما الإصلاح الفلاحي ولكنه ينقد أيضاً فساد النظام وعودة البورجوازية إلى الحكم.

كذلك يبدو لنا انتقاد البورجوازية الصغرى موقفاً "شيوعياً" حيث يستعمل محمد حرمل زعيم الحزب الشيوعي التونسي عبارة قلة صبر البورجوازي الصغير وسوء تقدير للتطور الموضوعي¹. كما تتبع أيضاً مساندة الاتحاد السوفياتي في الأعمال النظرية والإبداعية من اقتناع الكاتب بالتحليل الشيوعي للتجربة الاشتراكية الأجنبية.

¹ أنظر النهج، عدد2، 1983، ص 110.

الدين: إن العامل الاجتماعي في روايات حنا مينة يبدو جليا. فالقاموس الروائي عنده كثيرا ما يتلون بالعقيدة المسيحية، ولاسيما الأرثوذكسية، في مستوى التشابه والاستعارات والصور البلاغية، فهو في بعض تصريحاته يشبه نفسه بالمسيح إذ يرفض أن يفضّل أولاده وكتبه على أولاد الآخرين وكتبهم. وفي رواية "المستقع" يؤكد الروائي على لسان الطفل السارد أثر الكنيسة في تكوينه وشخصيته¹. فهو يجد لذة كبيرة وهو يؤدي طقوسه الدينية في الأعياد² ويطلب من العذراء أن يكف أبوه عن الشرب وأن تنقطع أمه عن العمل في المنازل وأن يصبح الحيّ نظيفا³. وكذلك يعترف في "هواجسه" بتأثير المسيحية في عقيدته وتفكيره عامة. فيقول "قرأت كل الكتب المقدسة وتأثرت بها كله وكثيرا ما أوظف تأثيري هذا توظيفا ثوريا"⁴.

وفي "الأنبوسة البيضاء" يصف الكاتب الروائي أثر العذراء في حياته قائلا: "وفي صف واحد وقفت مع شقيقتي أمام أيقونة العذراء وأمنا وراءنا وتلونا"⁵ أبانا الذي في السماوات" أولا و تلت أمي وشقيقتي الكبرى أومن بالله واحد"⁶. وفي كتاب "ناظم حكمت ثائرا" يذكر الروائي المسيح مشيرا إلى مأساته وعزله. كما أن "الصليب" كان بمثابة الاستعارة المثيرة التي يلتجئ إليها في روايته "الثلج يأتي من النافذة" فهو يشبه فياضا بالمسيح

¹ المستقع: حنا مينة ، ص 33.

² نفس المصدر، ص 141.

³ نفس المصدر، ص 143.

⁴ هواجس في التجربة الروائية-حدامنية، ص 173.

⁵ الأنبوسة البيضاء: حنا مينة، ص 50.

⁶ الثلج يأتي من النافذة: حنا مينة" ص 341.

الذي يحمل صليبه. ذاك هو حضور الدين في أعمال حنا مينة فإلى أي مدى أثر في فكره وأعماله الروائية؟

إن النزعة الإنسانية هي وليدة التعاليم الدينية. وفي روايات حنا مينة نجد أن نزعة إنسانية عميقة تؤثر في تصرفات الشخص، فالخياط يدعو كل الأمم قائلا: "يا جميع الأمم صفقوا بالأيدي ... اهتفوا بصوت الابتهاج لحبيبي، أبداع حمالا من البشر حبيبي"¹ وبذلك تتجاوز الرقصة دلالتها الاجتماعية لتصبح رمزا لخلص الإنسانية كلها. كما نلاحظ أن جلّ الشخصيات ينتابهم حب عفيف للطبيعة يخفى ولو مؤقتا الخلافات الكبرى بين الناس ولا يجد تبريرا إلا في هذه النزعة الإنسانية التي لاتحد. ورغم أن معنى الطبيعة من المعاني الرومنطيقية فهو يعبر عن أهمية العقيدة الدينية باعتبارها عنصرا اجتماعيا مؤثرا. وهكذا يبدو بطل حنا مينة دائما قريبا من الدين، فالمرسلي يعيش مع زوجة مؤمنة، وفي لحظات عزلته وضعفه يفكر فيها ويطلب منها أن تصلى من أجله، وأم الروائي نفسها امرأة مؤمنة، وأم فياض هي عذراء ينقصها الإطار، ويبدو خادم الكنيسة في "المصايح الزرق" رجلا وطنيا يفتح باب الكنيسة للمتظاهرين. ولقد لاحظ غالي شكري الإطار المسيحي الذي يحيط بأحداث رواية "الثلج يأتي من النافذة" وألحّ نبيل سليمان على تناقض المؤلف الإيديولوجي. ذلك أن الإحساس الديني يعمق النزعة الرومنطيقية التي تسهم سلوك البطل والتناقض الأيديولوجي لكاتب يناضل في صفوف اليسار². كما نرى ناقدا آخر رياض عصمت قد فهم أهمية الدين في

¹ الشمس في يوم غائم: حنا منية، ص 30.
² الأدب والأيديولوجية في سورية: غالي شكري، نقلا عن حنا مينة كاتب الكفاح والفرح لمحمد الباردي، ص 269.

مؤلفات حنا مينة ذلك أن رؤية حنا مينة هي رؤية مستقبلية وإنسانية. فالأدب حسب اعتقاده أوسع من الأيديولوجية. ولذلك يتجاوز الروائي مفاهيم الصراع الدموي الثوري ليدعو إلى بناء عالم أكثر إنسانية.¹

هذه هي العوامل الاجتماعية في أعماله الأدبية عامة وأعماله الروائية خاصة. والآن نريد أن نبحث عن الهياكل الاجتماعية في رواياته، حتى نتجلى المدلولات الاجتماعية بكل وضوحها.

الهياكل الاجتماعية في رواياته:

عندما نقوم بتحليل رواياته للعثور على القضايا الاجتماعية في رواياته نجد أنه اعتنى عناية خاصة بتحليل الهياكل الاجتماعية في سورية الحديثة منذ الحرب العالمية الأولى، وهنا نتحدث عن هذه الهياكل الاجتماعية في الريف والمدينة لإبراز القضايا الاجتماعية في رواياته.

– **الهياكل الاجتماعية في الريف السوري:** إن الريف حاضر في روايات حنا مينة، لكن "بقايا صور" و "الشمس في يوم غائم" تكتسبان أهمية خاصة وتساعدان على إبراز رؤية المؤلف يلوح الريف السوري في هذه الأعمال متخبطا في تناقضاته الاجتماعية، فهو يعيش صراعا حادا بين طبقتين، هما كبار الملاكين والفلاحون الفقراء. وتقوم العلاقات الاجتماعية على نظام الإقطاع، فأصحاب الأراضي الذين يقطنون في أغلب الأحيان المدن لا يترددون في استعمال السوط لردع الفلاحين ومعاقبتهم فهم سادة عبيدهم فالمالك الكبير عندما يسرف يلتجئ إلى

¹ الصوت والصدى: رياض عصمت، ص 232.

ضرب الفلاحين الذين يشتغلون على أراضيهم. وأبوالفتى في رواية "الشمس في يوم غائم" يقتل بنفسه الفلاح الذي رفض أن يسلّم حصاده، ثم يضاجع زوجته¹. وهكذا يصور الفلاحون في مثل هذه الروايات بلا أرض ولا يملكون أجسادهم. بالإضافة إلى هاتين الطبقتين يهتم حنا مينة بتصوير شخصيتين بارزتين هما الوكيل والمختار. فالوكيل عادة ما يكون رجلا قويا يحافظ على أرض سيدة بقوة السلاح ولكنه لا يخفى أحيانا طموحاته ورغباته². وأما "المختار" فهو المسؤول الإداري في الريف وهو يمثل السلطات الرسمية التركية أو الفرنسية. ومهما تكن مكانته في القرية ونفوذه فإنه يظل رجلا ضعيفا في نظر السلطة المركزية إذ يستطيع رقيب قليل الأهمية أن يهينه بحضور أعيان القرية³.

بيد أن الروائي يعتبر هذه الهياكل الاجتماعية هياكل قديمة ومتخلفة وموروثة عن النظام العثماني، ومع ذلك فإن الاستعمار الفرنسي لم يؤد إلى زيادة الإنتاج في الريف وبالتالي لم يغير العلاقات الاجتماعية فيه كذلك طريقة الحياة. ففي رواية "الشمس في يوم غائم" يتعرض الروائي إلى شخصية المستشار وهو ممثل السلطة الفرنسية الذي يعمل على المحافظة على العلاقات الاجتماعية التقليدية بين منطقتي التاريخ إذ لم يطور نمط الإنتاج ولم يغيره. وفي نفس الرواية يرسم الروائي تخلف وعي الفلاحين والتناقضات الداخلية التي تضعفهم، ولكنه مع ذلك يؤكد أن المستقبل لفائدتهم لأمحالة. ولذلك نراه في "بقايا صور" يشير إلى بداية وعيهم

¹ الشمس في يوم غائم: حنا مينة، ص 140-142.

² نفس المصدر، ص 253.

³ بقايا صور: حنا مينة، ص 340.

الاجتماعي بالظلم وتمردهم الفطري.¹ كما نراه في رواياته الأخيرة وخاصة " المرصد" و "الثلاثية" يمجّد الإصلاح الزراعي بعد الاستقلال وانجازات نظام حزب البعث في سبيل تغيير وجه الريف السوري منذ بداية الستينات². ومهما يكن من أمر فإن النتيجة التي نصل إليها هي أن قضية الأرض قضايا الفلاحين ليست من القضايا الهامة التي تستقطب اهتمام المؤلف إلى درجة³ أن رواية "بقاصور"، وهي أبرز رواياته التي اهتمت بقضايا الريف، لم تتعرض إلى أوضاع الفلاحين إلا في حدود علاقتها بحياة العائلة، فمن الطبيعي أن نقول إذن إن المسألة الفلاحية ليست جوهر تفكير حنا مينة في الاشتراكية.

الهيكل الاجتماعي في المدينة السورية: الهياكل الاجتماعية في المدينة السورية تبدو من وجهة نظر الروائي واضحة ومعقدة في نفس الوقت. فإذا كانت الثنائية (قوى وضعيف، مستغل ومستغل) تسهم العلاقة الاجتماعية في الريف فإن سلسلة من العلاقات الاجتماعية في تطور مستمر، تمنح المدينة هويتها، فهي إذ تجلب المثقفين من أصل ريفي، تستقطب كل هذه العلاقات في تناقضها وتداخلها. ولكن البورجوازية الصغرى تظل في تصور الروائي النواة المركزية، وهي تتكون من المثقفين المنحدرين من الريف وشرائح التجار والصغار والحرفيين والموظفين.

إن أغلب أبطال روايات حنا مينة ينتمون لهذه الفئة الاجتماعية. فالنجار والصيد والمثقف والعسكري كلهم برجوازيون صغار بالمعنى الماركسية للكلمة. وتبدو البورجوازية

⁽¹⁾ نفس المصدر، ص 355.

⁽²⁾ المرصد، حنا مينة، ص 8.

طبقة في نمو مستمر. ففي رواية "الشراع والعاصفة" يصف حنا مينة صعود هذه الطبقة أثناء الحرب العالمية الثانية على حساب الإقطاع الذي لا يزال يحاول أن يجدد نفسه بربط علاقات مع بعض شرائح البورجوازية الصغرى، ولكن بدون فائدة. وتتكون هذه الطبقة من التجار الكبار والصناعيين.¹

وأما طبقة العمال فقد انتظمت بدورها فيما بين الحربين، وقد لاحق حنا مينة تطورها منذ هذه المرحلة إلى بداية سنة 1978م على الرغم من أن أبطاله الرئيسيين لا ينتمون عادة إلى هذه الطبقة. ففي رواية "الشراع والعاصفة" يقف السارد إلى جانب نديم مظهر في مواجهته مع "أورشيد" وذلك لكي يؤكد الروائي من خلال هذا الموقف أهمية دور الطبقة البورجوازية في النمو التاريخي للمجتمع السوري. فقد لعبت هذه الطبقة فيما بين الحربين دورا إيجابيا في تحديث نمط الإنتاج والعلاقات الاجتماعية، ولكننا نلاحظ أن هذا الموقف يتغير في "المرصد" و "حكاية بحار" إذ يلجّ على أهمية الدور الذي لعبته البورجوازية الصغرى في هذه المرحلة المهمة من تاريخ سورية الحديث. فهي التي تزعمت الحركة الوطنية والاجتماعية، ولكنها منذ سنة 1960م بدأت تفقد مواقعها لفائدة البورجوازية الكبرى، وبذلك عرضت كل المكاسب الوطنية للخطر.²

وفي حقيقة الأمر فإن الروائي منذ روايته "الشمس في يوم غائم" التي صدرت سنة 1975م كان قد أعلن فشل هذه الطبقة، فالفتى الراقص يجسّم إيدولوجيا البورجوازية الصغرى

¹ الشراع والعاصفة: حنا مينة، ص42
² المرصد: حنا مينة، 16.

التي تستعد للوصول إلى الحكم عن طريق محاولة تجاوز التناقضات الاجتماعية والبحث عن المصالحة.

● **أهمية العمل الجماعي والانتماء:** في رواية "نهاية رجل شجاع"، نرى أن حياة مفيد المنتوف تنتهي نهاية مأساوية لأنه يقاوم فكرة الانضمام إلى العمل الجماعي¹ على الرغم من تعاطفه مع أنصاره ودعاته، ظنا منه أن قوته الجسدية الاستثنائية تستغنيه عن الآخرين فحاول مقاومة العجز المحتكر وعصابته بجسده فالعمل الفردي يؤدي بصاحبه إلى طريق مسدود هنا تبرز أهمية الجماعة والعمل الجماعي.

● **المرأة:** المرأة تحل مكانة بارزة في القضية الاجتماعية. وقدمت روايات حنا مينة صورا متعددة من المرأة على النحو التالي:

– **المرأة الفقيرة:** قدمت الروايات المرأة الفقيرة أمًا وزوجة وعاملة ومومساء، وظهرت من هذه الفئات شخصيات نامية وأخرى ثابتة، واتخذت منها شخصيات نموذجية رمزية، والمرأة الفقيرة توجد حكاياتها في "بقايا صور" و "الياطر" و "الشراع والعاصفة" و "حكاية بحار" و "مصايح الزرق" وعدد الشخصيات النائية الفقيرة كثيرا جدا.

– **المرأة الثرية:** وبالانتقال إلى الحديث عن المرأة الثرية في الروايات يلحظ الدارس قلة عددها، وصغر الحيز الذي تشغله، ومع ذلك فقد عظت شرائح المجتمع الثرى من إقطاعية وبورجوازية، وتوجد نماذج المرأة الثرية في "الشمس في يوم غائم" و "مأساة ديمتريو".

¹ رواية نهاية رجل شجاع: حنا مينة، ص 249.

– المرأة المتعلمة: بصدور رواية "الرحيل عند الغروب" تبدأ صورة جديدة للمرأة بالبروز تلك هي صورة المرأة المثقفة التي تمثلها الكاتبة المُقلّدة والجامعية سلافة التي أظهرتها الرواية أرملة لصانع ثري وعشيقة للبحار السابق وابن المهرب الثري فاطر اللجاوى، الذي انقذها من الانتحار فوهبته قلبها وجسدها.

المرأة الأجنبية: تنوعت صورة المرأة الأجنبية في رواياتها وتعددت، وامتدت لتغطي الرويات من صدور أولها إلى آخر واحدة منها وهي "المغامرة الأخيرة" الصادرة عام 1997م. ومن أوائل الأجنبيةات ظهورا في الروايات أم زخر يادس في "الياطر". وتتقلب صورة المرأة الأجنبيةة في رواية "الربيع والخريف" فتبرز صورة الفنانة ذات الشخصية المستقلة والتي تتعامل مع الرجل معاملة الند للند، وهي شخصية "إيرجكا".

الصراع الاجتماعي: الصراع فيما بين القوي والضعيف أو بين الطبقة المستغلة والطبقة المستغلة، والصراع بين قوى الشر والخير لأجل استعادة الاستقرار الاجتماعي. ويبدو أن معظم روايات حنا مينة تركز على قضايا الصراع الاجتماعي والوطني .. ويلاحظ أن اهتمام الروائي أو انتماءه قد جعل صورة المناضل تتجلى في مظهرين: مظهر المناضل العامل ومظهر المناضل المثقف وكل منهما يلعب دورا حيويا في توجيه الآخر. والصراع الاجتماعي يوجد في "الثلج يأتي من النافذة" و "المصايح الزرق" و "الشراع والعاصفة" و "الشمس في يوم غائم" و "الياطر".

التفاوت الاقتصادي: في رواياته نجد عدة شخصيات رئيسية إقطاعية و بورجوازية أثرية ترى أن مصالحها مرتبطة ببقاء المحتل، كما تؤكد على أهمية العلاقة بين القضيتين الاجتماعية والوطنية، ومن هنا ظهرت معظم الشخصيات الثرية والأجنبية - الفرنسية ثابتة بغیضة تتشابه في الأساليب التي تستخدمها لاستغلال الناس وسلب خيراتهم وقمع كل حركة تطمح إلى التغيير عندهم. شخصية أبي رشيد في "الشراع والعاصفة" وشخصية العجوز في "نهاية رجل شجاع" والشخصيات الثرية تدل على التفاوت الطبقي والتمایز فيما بين السكان.

الاحتلال: في رواياته عدة شخصيات أجنبية ذكورا وإناثا تدل على الاحتلال والاستعمار. والرواية ترمز بها إلى الوجود الأجنبي المستغل، الذي يمتص دماء الشعوب انسجاما مع الرؤية العامة، حيث تجعل الرواية من الحدث الثاني رمزا للخطر القادم عبر البحر.

أهمية العمل ومعاناة الطبقة العاملة: نجد في روايته "الثلج يأتي من النافذة" شخصية الحرفي أبي روكز لتخدم رؤيتها التي تبجل العمل اليدوي خصوصا أن هذه الرواية قدمت معادلة المثقف العامل مقلوبة فجعلت "فياضا" البطل المثقف يمارس العمل اليدوي في لبنان فيسد فجوات في شخصية ويعود لمواصلة النضال في بلده، وصورة الرواية مريضا، وقلقا من عدم حرص الدولة على صيانة حقوق ذوي الصناعات الصغيرة وحماية مخترعاتهم. ومن هنا تتجلى أهمية العمل وتبرز معاناة الطبقة العاملة.

فالانتماء إلى الجماعة والعمل الجماعي، والبحث عن العدالة الاجتماعية بشتى أشكالها، ومقاومة الاحتلال والاستعمار والفاشيم، والحرب ضد التمايز الطبقي، ومساندة الفقراء،

ومشكلة المرأة، واضطهاد الطبقة العاملة، والكفاح الاجتماعي وغيرها من مظاهر القضايا الاجتماعية في رواياته.

الفصل الثاني

تحليل القضايا الاجتماعية في رواياته

بعد الإشارة إلى القضايا الاجتماعية في الفصل الأول من هذا الباب نقوم بتحليل القضايا الاجتماعية الهامة التي تعالجها روايات حنا مينة. أمثال: الأمية والجهالة، وقضية الفقر والهامشية، وقضية المرأة، والظلم والبطالة والشجاعة والمقاومة.

الأمية والجهالة:

روايات حنا مينة هي صورة صادقة وصفت ذلك العصر كما كان من الجهل والامية، فالأب في "بقايا صور" ... كان لا يقرأ ولا يكتب. العائلة كلها لا تقرأ ولا تكتب، وكذلك الحي¹. نجد في حياة الريف في العشرينات، بكل ما فيها من جهل واستغلال وبؤس وتخلف، وبكل ما أصابها من نكبة الحرير الطبيعي، هذه الصناعة الوطنية التي قتهلا الحرير الاصطناعي². وتضطر الأم بقول إبنته "إذهبي يا صغيرتي واعلمي لنأكل من عملك خبزاً"³. كما نجد في "المستنقع" بأن في حارة الصاز ينقطع الخبر عن الدنيا بسبب الجهل كما يتضح بهذه المحادثة:

-ومن سنوات وأنا أسأل عمن يكتب لي رسالة فلا أجد..

أنقطع الخير من الدنيا؟

¹ بقايا صور: ص 66.

² حنا مينة: حوارات ..وأحاديث في الكتابة الروائية، ص 80-81.

³ بقايا صور: ص 141-142.

- لم يقطع الخير من الدنيا، ولكن أين الذي يقرأ ويكتب بيننا؟ من السويدية إلى "الأكبر" إلى اسكندرونة وأنا أسأل عمن يفك الحرف فلا أجد..¹.

أما الفتيات فهن أقل حظاً في هذا المجال كما نرى في "القطاف" عندما يستفسر البطل الأب عن دراسة ابنته يجيب: "رئيفة بنت، والمدرسة لم تُخلق للبنات.. مع ذلك أرسلتها.. تعلمت فكّ الحرف في مدرسة الطائفة². ونجد في رواية "المصايح الزرق" فئات بسيطة ساذجة من السكان، تجهل حقوقها وتتخذ بسرعة عن هذه الحقوق، وكان المختار يستغل ببساطة هؤلاء فيخدعهم وهو يبتسم ابتسامة شيطان من بين أسنانه الصفراء..."³.

كما نرى صالح بطل الرواية "حكاية بحار" يعد من اليد الساعدة في الحيّ ولكنه أيضاً لا يقرأ كما يقولون: "لو كان صالح يفكّ الحرف". ويقول آخرون: ليس في الحيّ كله من يفكّ الحرف.. لم تُخلق المدارس لنا.. إنها لأولاد الأغواث"⁴. كذلك الأم لا تعرف شيئاً ما يحل خارج الجدران الأربعة صالح يقول: عجيب.. أنا أتحدث عن الوطن وأنت تتحدثين عن البيت⁵.

نفس الشيء نجد في رواية "الدقل" يقول سعيد في نفسه: "يا للوحشة" كان ينظر إلى الفتى حمود ويفكّر. إنه خليق بأن يكون في المدرسة. أمثالهم ينامون في أسرّتهم الآن. وهو هنا يتعرض للانتهاك. لقد أدخلوه السجن لأنه سرق، لكنه لن يخرج قبل أن يتعلم كل صنوف

¹ المستنقع: ص 70.

² القطاف: ص 269.

³ المصايح الزرق: ص 71.

⁴ حكاية بحار: ص 180.

⁵ حكاية بحار: ص 241.

الرديلة. سيُدفع إلى الجريمة دفعا- السجن ليس للإصلاح. الطفل هالك لا محالة. الطفل هالك لا محالة!¹ و في رواية "نهاية رجل شجاع" نرى صورة الفقر والذل والجهل التي تفقد الانسان إنسانيته وتحوله لحيوان، يقطع ذنب الحمار ويُلقّبه المعلم شعبان: " .. أنت وحش!" وطردها من المدرسة². والأب في "عاهرة ونصف مجنون" الجاهل فطيم، لم يكن ينام إلى جانب زوجته عادة، بل على فراش قرب عتبة الغرفة، وفي أسبوع مرة أو مرتين، يعلن أمام الجميع أنه سينام في السرير مع زوجته³. ويقول علنا "أفعل الذي يفعله الذكر مع الأنثى .. هذا حقي!"⁴. والأولاد لا يعرفون شيئا سوا الأصباح والأمساء، يطلع الضوء فيعرفون أنه الصباح يبشرهم بالنهار، وفيه السعي وراء اللقمة⁵

كذلك نرى في "على الأكياس" لا يستطيع الكاتب الحصول على العمل بسبب الفقر والجوع فيضطر للعمل الشاق على الرغم من ضعفه و صغر سنه، فعندما يحاول رفع الأكياس يسكت على الأرض ويسيل الدم من الأنف ويصيح الأطفال: مات! وكذلك الأخوان اللذان يعملان معه والأطفال الآخرون يعملون في وقت ينبغي عليهم أن يذهبوا إلى المدارس⁶. أما المرأة في رواية "البحر والسفينة وهي"⁷ فلا دور لها في مجال التعليم، وخاصة المرأة في الأوساط الفقيرة، وكذلك الجاهلة، في الشرق، تتعذب، لشعورها بأنها واسطة إنجاب، آله تفريخ لا أكثر!

(1) الدقل: ص 61.

(2) نهاية رجل شجاع: ص 36-37.

(3) عاهرة ونصف مجنون: ص 7.

(4) عاهرة ونصف مجنون: ص 17.

(5) عاهرة ونصف مجنون: ص 43.

(6) أنظر للتفصيل "على الأكياس" خاصة ص 14.

(7) البحر والسفينة وهي: ص 73.

قضية الفقر والهامشية

عاش حنا مينة حياة صعبة في الطفولة فصور حالة العائلة والحي في رواياته، من كل بؤس وفقر وشقاوة. نجد في رواية "بقايا صور" بأن أمّ الفتى تضطر لبيع نصف غذاء الفتى بسبب الفقر. تذهب إلى ناس أغنياء في اللاذقية، لإرضاع ابنهم الذي من عمره تقول: "لقد عزّ عليّ أن "أبيع" غذاءك... ولكن والدك كان غائبا في إحدى رحلاته، ولم يكن لدينا ما نأكله، ولا أستطيع أن أعمل خادمة وأنت رضيع، فاضطرت لكي أغذيك بأن أبيع نصف غذاءك.."¹

أما البيت فلم يكن بيتا. كان أشبه بخيمة في قفر، ومن كل الأطراف تعصف بها الريح². وأبوه يبقى غائبا من البيت كثيرا.. يتخلى عنهم لأنه عاجز عن أن يفعل شيئا لأجل العائلة، يقول الفتى:

" كنا سجناء مقيدين على نحو ما. دَين المختار هو القيد، وكوخه الطيني هو السجن..."³. ولأجل الدَين تضطر الأخت بالعمل في بيت المختار، " أمّي لم تبع أختي بثلاثين من الفضة، ومع ذلك أخذت مقابلها ما هو أثن لنا من الفضة.. أخذت شعيرا وذرة. كنا جياعا. وكانت أختي فدية الجوع. لقد رضيت ولكن تفكر كيف ستواجه ابنتها في الصباح، و بأي كلمات ستقول لها: " اذهبي يا صغيرتي واعلمي لنأكل من عملك خبزا"⁴. وكذلك أهل الحيّ يواجهون الفقر بكل أنواعها ليس لديهم حذاء في الصيف وهم حفاة، وفي الشتاء لم يتبدل حالهم إلا قليلا، تبدل بالنسبة للرجال وبعض النساء فقط، أما الأطفال الصغار فقد كانوا بلا أحذية طوال الفصول.. فعلى الفتى أيضا

¹ بقايا صور: 88-89.

² بقايا صور: ص 110.

³ بقايا صور: ص 122.

⁴ بقايا صور: ص 141-142.

أن يظل بلا حذاء طوال ثلاثة أعوام¹. يصف الفتى هذه الأحوال الصعبة والمشاكل التي تواجه العائلة "تتابعت الأيام التموزية الحارة ونحن في العراء في وقدة الشمس نهارا وتحت الندى ليلا.."². ومع الشتاء لم يعد في القرية ما يؤكل. حتى العشب الذي نبت على حوافي المياه بعد نكبة الجراد اقتلعوه وأكلوه، ودكان القرية أغلقت³.

أما في رواية "المستنقع" بسبب الفقر الفتى لم يستطع الذهاب لرحلة إلى انطاكية التي نظمتها المدرسة. لأن ليس في وسع الأسرة أن تدفعه أربعة قروش للاشتراك في الرحلة⁴. وإذا طال مرض الوالد فنصحوه أن يذهب إلى الطبيب. وكان أهل الحيّ يمرضون يقضون بغير طبيب، لأنه ليس لديهم ما يدفعونه أجرا للمعاينة⁵ ولم يكن في الحيّ كله صاحب مهنة محترمة، لا نجّار ولا خياط ولا حداد. الرجال عتالون في الميناء والأسواق. وبعضهم ماسح أحذية، والنساء والبنات خادمت في البيوت، والأطفال متشردون في أزقة المدينة، يتعلمون، منذ الصغر، تلك الحماقات التي ستجعل منهم لصوصا أو سوقة، وغالبا، في الكبر، عتالين في الميناء ومتسودعات البضائع، والقلة منهم، تذهب إلى المدرسة، والفتى كان واحدا من تلك القلة⁶.

¹ بقايا صور: ص 244.

² بقايا صور: ص 247.

³ بقايا صور: ص 343.

⁴ المستنقع: ص 44-45.

⁵ المستنقع: ص 52.

⁶ المستنقع: ص 81.

أما الفتيات فحالها سيئ لا يذهبن إلى المدرسة، فأخت الفتاة تضطر للعمل في بيت المختار لأن المدينة فقيرة كلها¹. وبسبب الفقر قام أندون بقتل نفسه انتحارا كان شابا غير متزوج. أه كم عانيت ذلك، وكم رأيت الآباء والأمهات يخرجون جسوم تلك الحشرات بدبابيسهم ويضعونها في أفواه أطفالهم! وكان الأطفال يأكلون بشراسة الجائع حتى تمتليء معدتهم. وعندئذ يكفون عن البكاء في طلب الطعام، ويروحون يلعبون، فيفرح الأهل، ويناسون قليلا ما هم فيه من بلاء².

نرى حالة العائلة السيئة في رواية "القطاف" أيضا، حيث أبو الفتى سالم لا تلصق مؤخرته بأرض... خلق ليرحل³، وهم في القلاة يأكلون خبزهم بعرق جبينهم و يمضغون لقماتهم المغمسة بالدم⁴. وبطل الرواية فارس في "المصاييح الزرق" يواجه البطالة بسبب الحرب، لأن صاحب المتجر مطلوب إلى الحرب⁵. وهو يدعو فارس و يلقي في يده عشر ليرات، قائلا: "هي بقية حسابه، وابتسم له ابتسامة مغتصبة، وقال له: مع السلامة!"⁶. نرى مشهد عجيب في هذه الرواية يتناولون الخبز من بيت النار، ويلقونه فوق الأيدي الممدودة فتتلقفه وتحترق به، وتتعارك عراكا قاسيا حول كل رغيف، وفي غمرة هذا العراك تتحول الأصابع إلى مخالب، والأسنان إلى أنياب، وتعصف بالجميع عاصفة جامحة من حب القتال، وتثور في نفوسهم كل مآسى الماضي، قاذفة برواسب الذل والخنوع والخوف إلى الشيطان⁷.

¹ المستنقع: ص 119-120.

² المستنقع: ص 356.

³ القطاف: ص 14.

⁴ القطاف: ص 103.

⁵ المصاييح الزرق: ص 19.

⁶ المصاييح الزرق: ص 19.

⁷ المصاييح الزرق: ص 113.

كانت الأصوات تتعالى من كل صوب:

- يا حسن..

- يا حسن..

- يا حلاة..

- يا .. يا حسن ..

- طيب، طيب هل قامت القيامة؟

وزعق رجل كان يقف مضغوطا بين الجدار والناس:

يا ليتها قامت قيامتك .. بتنا أمس بلا طعام¹.

الثلج يأتي من النافذة: نجد صورة الفقر في هذه الرواية واضحة. فيّاض بطل الرواية وهو يعاني من الفقر والجوع وهو يضطر للعمل في البناء. وكذلك عائلة خليل حالها سيئة. تقول أم خليل: "ألا ترى حالنا؟ لا توجد ثياب على ظهورنا، ولقمة الخبز لا نحصل عليها إلا بألف جهد². ويقول فياض: "عمل النهار لأجل اللقمة، وعمل الليل لأجل الفكر، وأني سعيد جدا بالعمل الثاني³. وكذلك يبدل اسمه بسليمان وهو عامل بناء في ورشة "كرم الزيتون" .. انتهى عهد "المدارس والمكاتب" .. قطع المعبر البارد بين ما كان وما سيكون، ووضع حدا للخور

¹ المصاييح الزرق: ص 113-114.

² المصاييح الزرق: ص 113.

³ المصاييح الزرق: ص 146.

المعذب¹. وهو الآن في صف طويل يقف بين عشرات العمال. والمعمار يناديه اسمه، ثم يرسله إلى الطابق الثالث لإنزال الأعمدة الخشبية الحجارة إلى الباحة².

كما نرى صورة الفقر في رواية "الياطر" بطله الرواية شكية تواجه الفقر وتضطر بالرعي مقابل الحبوب "زوجي غائب.. ذهب إلى الأناضول ليشغل، وأنا فقيرة، لست من القرية، ولا يعطونني، في مقابل الرعي إلا الحبوب³.

وجد في "حكاية بدّار" بطل الرواية سعيد حزم يلد في .. البقعة المبرقشة، ذات الفوضى، .. في الحيّ البحري، الفقير، البارزة أضلاعه كهندي مُدقع، الزاخر برجال ينتزعون لقمته من أشداق الموج. ثم يهاجر من اللاذقية إلى مرسين، ويستقر فيها إثر رحلة بحرية. يجد في الحيّ أشباها له من كل البلاد الساحلية: "مغامرين، متبطلين، متسكعين بدّارة، صيادين، عمّالا في مختلف المهن"⁴. يري الفقر في البر والبحر كما يقول: " .. آه كم رأيت من الفقر والظلم⁵.."
قتلت الجوع بالحي. كان الرجل يصوم ليأكل أولاده. وكانت العائلة التي تتوفر لها أرغفة من الخبز تقسط تناولها على أيام. تخفيها كيلا يراها الآخرون من الجياع. وأمام الانهيار الصحي، كانت المرأة تبغ أيما شيء مقابل حفنة من الطحين، تعجنها وتخبزها على الصاج، وتطعم صغارها وهي تبكي⁶.

¹ المصاييح الزرق: ص 202.

² المصاييح الزرق: ص 202.

³ الياطر: ص 44.

⁴ حكاية بدّار: ص 148

⁵ حكاية بدّار: ص 178-179.

⁶ حكاية بدّار: ص 263.

كما نري في رواية "الدقل" بأن الجوع يؤدي الولد حمود إلى فعل شيء إجرامي:

.. لماذا سرقت؟

- كنت جائعا.

- الذي يجوع يعمل ولا يسرق.. فهمت؟

- لم أجد عملا..كنت جائعا ولم أجد عملا¹.

وأهل الحيّ كله يواجه الفقر .. شمس صفراء، ذابلة، معلقة فوق المدينة والبحر، والناس يلوبون.. لا عمل، لا بيع، لا شراء. كساد. عطالة، فقر.. والأزمة تنيخ². والفتاة ترقد عارية على سرير عتيق من جوز. أطعمت اليوم كبدها للذئب. في الصباح تستجمع ما تبقى من صباها. في الليل تعتصر أيدٍ قدرة هذا الصبا، تعبت به كما الطبيب في جثة تحت التشريح، أيتها السماء! كم أنت بعيدة يا سماء! الفقراء يستيقظون مع الفجر، يجب أن يركضوا وراء رغيف خيال: الرغيف، في هذه المدينة خيال³.

نهاية رجل شجاع: وهي ملحمة عن القهر الاجتماعي والفقر والذل والجهل التي تفقد الانسان إنسانيته وتحوله لحيوان، أو بالأحرى وحش لا أمل له باسترجاع إنسانيته إلا عن طريق التدمير الذاتي و الانتحار. مفيد بطل الرواية يفضّل السجن على الحرية "السجن رحمة لي،

¹ الدقل: ص 64.

² الدقل: ص 115.

³ الدقل: ص 252.

أجد فيه مكانا للنوم واللقمة"¹ و يقول: "أستطيع أن أقوم مقام البغل. كل ما أريده هو اللقمة. أنا أمام هذين الشرّين اللذين يكثران في وجهي: البطالة والجوع!"². ولكن الفقر لا يدعه يفلت وأخيرا يضطر إلى قبول "أوراق فقر الحال"³ كما يقول أستاذ ماهر " اللقمة هي رأس المشكلة"⁴.

نرى في رواية "عاهرة ونصف مجنون" في العُرفة الواحدة، الفقيرة التي لا تتسع إلا إلى سرير خشبي تنام فيها البنت لوارنس إلى جانب والدتها⁵. لوارنس شعلول من حقها وبادفع أنني أن توغل في طلب اللذات مع رجل وآخر بالزواج وغيره وأن فجورها مبرر تماما لأنه حق مكتسب⁶. لكن الحق على من؟ على الرجل؟ لا! على المرأة لا! على الأولاد؟ لا أيضا! فعلا، فإذا قلنا الحق على الفقر⁷. وهم لا يعرفون ساعات الزمن في الغرفة الوحيدة الفقيرة، فالتقويم الوحيد لديهم هو الأصباح والأمساء، يطلع الضوء فيعرفون أنه الصبح يبشرهم بالنهار، وفيه السعي راء اللقمة⁸.

حنا مينة يقول عن نفسه في مجموعة قصصه "على الأكياس"، كيف كان حال الأسرة لا تجد ما تأكل فيقبل النقود من السيّدة الغنية، فلما علمت الأمّ أوضحت له: "هذه النقود ليست لك!"

(1) نهاية رجل شجاع: ص 48.

(2) نهاية رجل شجاع: ص 50.

(3) نهاية رجل شجاع: ص 366.

(4) نهاية رجل شجاع: ص 85.

(5) عاهرة و نصف مجنون: ص 6.

(6) عاهرة و نصف مجنون: ص 12-13.

(7) عاهرة و نصف مجنون: ص 13.

(8) عاهرة و نصف مجنون: ص 43.

فاحتجبت: "لكنني لم أسرقها!" فقالت: " هذه صدقة، ولا أريد أن تقبل صدقة من أحد"¹. وأبوه كان يبيع المشبك والأولاد ينتظرون مجيئه في المساء. العائلة الفقيرة ليس لديها شيء للأكل، وتوفيت البنت الصغيرة، والأم تبكي عليها، وكذلك الكاتب بدوره، والأم تخفي الألم ويعطيه بعض النقود ليذهب و يأكل شيئاً. بسبب الفقر يضطر حنا مينة للعمل مع أنه ضعيف لا يصلح للعمل الشاق كمثلته، مع أن الأخوين يساعده في العمل ولكن حنا كان ضعيفا جدا لا يستطع أن يحمل الوزر الشاق، فعندما حاول رفع الأكياس سكت على الأرض وسال الدم من الأنف فصاح الأطفال: مات! و كذلك نوري في "بطاقة توصية" لا يحصل على العمل ويواجه الفقر والعطالة ويضطر للحصول على بطاقة توصية ولكن لا فائدة منها. كما نجد إبراهيم في "علبة التبغ" وهو يسكن في غرفة الغسيل: لسببين: لا يجد الغرفة المناسبة ولا يستطيع في الفندق لخوف رجال الأمن، والثاني عليه أن يحمل قليل الأجرة². وإذا تسأله الفتاة عن التبغ: "كيف تركت التدخين؟ يقول: " لا أملك ثمن التبغ، صدقتي، ولهذا لم أدخن منذ شهر وأكثر³. وتبدلت الحياة نسبيا في "رسالة من أمي" فيصبح من ماسح الأحذية إلي كاتب⁴.

نجد رواية "شرف قاطع الطريق" تروي لنا صورة الفقر في عشرينات من القرن العشرين حيث كان الفقير فقيرا في كل شيء، وكان بانسا إلى آخر حدود البؤس، شقيا شقاء أسود وكانت عائلة حنا من أفقر العائلات في حقول التوت المترامية، التي يعيش المربعون فيها

(1) على الأكياس: ص 2.

(2) علبة التبغ: ص 3.

(3) علبة التبغ: ص 32.

(4) رسالة من أمي: ص 5.

على تربية دود القزّ، أو دود الحرير، وكان الحقل ملكا المختار حجازي، الظالم بغير رحمة، المرابي بغير ذمة، الموسوس قهريا حدّ الجنون!¹ وكان المختار حجازي بمثابة الآغا وهو الحاكم، وهو الأمر الناهي وهو يقول الأم " اللعنة عليك وعليه، أنت امرأة تافهة، وهو رجل أئفه.. أريد تسديد الديون، وإلا جرجرتك أنت وأولادك إلى السجن!"، لاحت المجاعة كعلامة الطاعون، باع الناس بعض ما يملكون، وبعضهم باع كل ما يملك، افترض آخرون، تسولوا، أكلوا الحشائش حتى لم تعد، وأخر الخريف، حشائش ولا قروض ولا أعطية، مهما تكن ناحلة، لأیما متسوّل أو متسوّلة!²

ونرى زبيد في رواية "المغامرة الأخيرة" يواجه الفقر خارج البلد فهو يقول: "كنت أعيش حياة الغربة، قطرة قطرة من عمري، وكانت الالتزامات لا تترك لي وقتا للراحة، للتأمل، للنظر إلى الواراء، أو التفكير في ما هو آتٍ، للغربة قانونها، وللغربة أخلاقياتها، وللغربة فسادها وإفسادها أيضا، وقد سرت بين هذه الدوائر الغريبة بأناة، وحذر، وجد، مكافحا، قدر الإمكان، كيلا أقع في شرك أية دائرة منها³.

هكذا نرى روايات حنا مينة بأنها تشير إلى هذا الداء الذي يواجهه عامة الناس من الفقراء والفلاحين ولا يجدون السبيل للخلاص منه لأن الأقوياء هم يأكلون الجبن في حين يأكل الفقراء من عرق جبينهم.

¹ شرف قاطع الطريق: ص 23.

² شرف قاطع الطريق: ص 36.

³ المغامرة الأخيرة: ص 247.

قضية المرأة في روايات حنا مينة

المرأة حاضرة بقوة في معظم روايات حنا مينة، فإنها ضحية من نواحي شتى من الظلم والاستبداد والقهر من قبل المجتمع الذكوري. وهي تعاني الأمية كما لا تتمتع بأي مكانة في المجتمع الذكوري. إن المدرسة لم تُخلق لها، فإنها تستعمل كآلة لخدمة الرجال من العلاقة الجنسية إلى تفريخ الأولاد وتربيتهم والعمل في المطبخ والغسيل. فصور حنا مينة خلال رواياته الصور للمرأة في ذلك العصر.

قضية المرأة " في "بقايا صور"

نجد في هذه الرواية كيف تواجه المرأة ظلم المختار في القرية. أم الفتى تذهب بسبب الحالة السيئة إلى المختار وتحاول أن تشرح له وضع العائلة فيسحب المختار عصاه ويخرج إليها لضربها.

"... وركض رجل فأمسك بالعصا، وتقهقرت الأم ما استطاعت، لكن قدم المختار طالتها في بطنها، فسقطت في الوحل تنشج وتستجير..

- يا مختارنا! ارحمنا يا مختارنا!¹

ولا يكتفي بهذا بل يهددها بالحبس ويتعامل معها ومع أولادها كالمتاع لا روح فيها.

-هرب زوجك؟

¹(بقايا صور: ص 11).

- لم يهرب يا مختارنا، ذهب ليسترزق

كذّابة.. هرب زوجك ليأكل أموالي.. يا أولاد الكلب! أشفت عليكم فسلمتكم البستان والبيت. فتحت لكم حسابا في الدكان، وبعد شهر يهرب زوجك، يتركك أنت! ماذا أفعل بك أنت؟ من يسدد الدّين؟ وموسم القز؟ اسمعي! تعرفين من أنا؟ أنا اللوشية... أستطيع حبسك في هذا البيت. أستطيع شنقك على "التوتة" مثل كلبة بلا أصحاب.. وعند الاقتضاء أبيع أولادك¹.

نجد بأن الأم عندما ترجع من بيت المختار بعد العمل فلا بدّ أن تمر بالدكان ليتأكد المختار أنها لم تسرق شيئا من بيته رغم أن زوجته طيبة و مضطهدة مثل مرابييه، والأم تجد لديها العزاء. تساعدها في بعض الأعمال... ولكن الستّ لا تستطيع أن تعطيه شيئا خشية زوجها². وعندما لم تستطع الأم أداء الدّين طلب المختار الأخت خادما ورهينة في حين طفلتها الصغيرة تحلم بالذهاب إلى المدرسة، تضطر أن تذهب لتعيش بعيدة، غريبة، شقية، في خدمة رجل لا يرحم. وعندما رفضت الأم وصرخت على وجهه:

- بنتي صغيرة لا تصلح لخدمة الناس.
- نحن غير الناس.. المختار غير الناس.
- المختار على رأسنا، ولكن بنتي صغيرة..

¹ بقايا صور: ص 123-124.

² بقايا صور: ص 125.

يا بنت الكلب .. تنبحين في وجهي؟ قلت لك هاتي بنتك لتخدم عندنا فترفضين؟ هذا الأنف العالي سأكسره¹.

وكذلك نجد في هذه الرواية حالة المرأة كيف يتعامل زوجها معها بعد أن أصبحت ضحية من قبل الأشقاء الذين نزلوا على بيتها في حالة غياب زوجها وأغتتموا الفرصة فركبوها. وماذا بعد عندما انتشر الخبر في الحيّ طردها زوجها من البيت².

المستنقع: نرى في هذه الرواية حال الحيّ والإنجاب الكثير. الإنجاب من دون وعي كان معروفا في ذلك العصر برغم من الفقر والحال السيئة. كانوا، في الحيّ يجهلون منع الحمل، حتى الإجهاض الذي كانت النساء تتمناه، لشدة الفقر وكثرة الأولاد كان يتم بوسائل بدائية ضارة³. ولم يكن الرب يستجيب، وكانت الأم تعتبر الحمل عقابا منه، وكذلك تعتبره النساء الأخريات، ورغم جميع الاحتياطات كانت النساء يحملن ويلدن بكثرة، مثل الأفاعي والضفادع والديدان التي تتوالد في ذلك المستنقع الرهيب⁴.

كما نجد الدعارة والمبغى كانت شائعة في ذلك الحين. فنتعرف عليها بواسطة الفتى وهو يقول:

(1) بقايا صور: ص 136.
(2) أنظر بقايا صور: ص 113-114-115-116.
(3) أنظر المستنقع: ص 113-114.
(4) المستنقع: ص 115.

وعجبت لماذا لا ينفذ الرجال هؤلاء البنات، مادام ذلك في وسعهم، وقلت في نفسي: لو تزوج كل رجل فتاة من هناك لأغلق المبغي، وصار مكانه حيّ نظيف للسكن، وتطهر النهر، وزادت خضرة الأشجار¹.

الربيع والخريف: نجد في هذه الرواية بأن هناك فرقا كبيرا بين المجتمع الشرقي والغربي. إن المجتمع المجري "مجتمع مفتوح والتعصب المذهبي لا أثر له"² و يجد بطل الرواي بودابست بأنها "باريس الصغيرة"³.

إن المرأة في المجر تستمتع بالحرية والحقوق والإظهار بالرأي. نجد في هذه الرواية إمرأتين بيروشكا و أيرجكا ذواتا طبيعتين مختلفتين، ولكنهما تعكسان الحرية الفردية التي يتمتع بها المجتمع المجري، وتحرر المرأة المجرية واحترامها، فقد منحتة الأولى حبا بدون مقابل ضحت بكل ما تملكه في سبيله ولكنها لم تفهم تصرف عشيقها الشرقي وقضيته السياسية.

وأما الثانية فقد عرفت بحكم خبرتها، وعلى هذا النحو، تعكس الحياة اليومية للمواطنين الحرية الفردية والسياسية في المجتمع المجري. هنا لا خلط بين الحب والدعارة. تحب المرأة تمارس الجنس مع من تحبه وهذا حقها لكن الجسد غير معروض للبيع⁴. فالمرأة معيار في حضارة الرجل⁵.

(1) المستنقع: ص 171.
(2) الربيع والخريف: ص 88.
(3) الربيع والخريف: ص 20.
(4) الربيع والخريف: ص 110.
(5) الربيع والخريف: ص 47.

أما المجتمع الشرقي فنجد فيه يخلطون هذا بذاك، كل حب ممنوع، كل ممارسة مرفوضة، الفئانة والعاهرة سواء .. الشرف محدود في الحوض. إفعل ما شئت في السر.. إذا استطعت الاستتار بقيت شريف. نفاق اجتماعي¹.

القطاف: نرى في هذه الرواية الزواج قبل النضج. إن إنخراط البنات في سلك الزوج في الوقت الباكر أيضا مشكلة المرأة لأنها لا تستطيع الحصول على العلم، والإطلاع على خارج نوافذ البيت وهي لا تعرف ماذا يحل خارج الجدران الأربعة. فهي تقضي حياتها في خدمة الزوج والأولاد. والأباء يقدمون الأعذار هكذا.

... كيف تتزوج بنت الأربعة عشر؟

تتزوج لأنها تتزوج.. هذه عادتنا.. إذا تزوجت البنت باكرا تصون نفسها عن الفحشاء².

فحياة المرأة تبقى هكذا في خدمة الأسرة ولا تحصل على العلم كما يتضح عندما يتكلم الفتى مع والد رقيقة وعن تعليمها فيجيب هو بدوره:

"رقيقة بنت، والمدرسة لم تخلق للبنات.. مع ذلك أرسلتها.. تعلمت فكّ الحرف في مدرسة الطائفة"³.

¹ الربيع والخريف: ص 166.

² القطاف: ص 121.

³ القطاف: ص 269.

المصاييح الزرق: نرى فيها الظلم والإغتصاب في الحيّ من قبل الفرنسيين - اعتدى على بنت مصطفى الصيداوي عادت إلى البيت ممزقة الملاية، لقد اعتدى جندي انكليزي ثمل... فعزم أخوها على الثأر ولكن ماذا في وسعه أن يفعل وحده بدون سلاح وهم كثيرون. ولم يأت الإنصاف بل اعتقل شقيق الفتاة¹. و بعد هذه الحادثة قام أصحابالحيّ بإغلاق الخمر للأجانب، مُنعتِ النساء من الخروج عن البيوت، ولكن بعد هذا كله وقعت حادثات من قتل ونهب واغتصاب، وأصبحت الحياة معقدة وصعبة، وليس هناك أمان². أما النساء اللواتي يقعن في أيديهم فكانوا يغادرونهن، وقد زرعا في أجسامهن أمراضا لا حصر لها، وفي أحشائهن أجنة لا تعرف أباهن³.

وكذلك نجد في هذه الرواية بأن المرأة هي ضحية دائما من قبل الرجل، فبطلة الرواية رندة عشيقة فارس وحببيته لا تستطيع أن تتزوج مع فارس ولا تعيش معه لأن الحال لا تسمحها. كما يذهب فارس إلى بيت السيّدة للعمل وللحصول على هذا العمل عليه أن يقبل شروطها فلما عثرت رنده على الحقيقة قامت بتضحية حياتها.

- إذهب إليها ودعيني .. لا أريد أن تفقد عمك لأجلي. وأدارت له ظهرها ومضت رافضة أن تلتفت إليه⁴.

¹ المصاييح والزرق: ص 168-169

² المصاييح والزرق: ص 171.

³ المصاييح والزرق: ص 172.

⁴ المصاييح والزرق: ص 244.

الثلج يأتي من النافذة: نرى في هذه الرواية سوء المعاملة مع المرأة. عندما يخرج فياض من بيت خليل ويذهب للبحث عن العمل ويصل إلى المطعم بمساعدة فتاة، وبعد وصوله إلى المطعم يسمع فجأة إطلاق النار، فيقول المستخدم لفياض بنسيان الأمر كل ما شاهدته قائلاً:

البنات عندنا صغيرات وجميلات.. والموردون يتقيدون بهذا الشرط .. وحين تدخل البنات يعاملونها كالزهرة .. توضع في أفضل إناء ... ولكن حين تنذل .. ؟ هنا لا يبقون زهورا ذابلة.."¹.

كذلك نجد فتاة أخرى هي اضطرت للعمل الشاق لأداء الديون. وواجهت الظلم كثيرا ولما لم تطق المواجهة حاولت الهروب من البيت فضبطتها صاحبته وجرتها في طول الزقاق وهي تصيح: " ادفعي دينك أولا" والفتاة تجيب " دينك لا يوفى.. مصصت دمي! مصصت دمي!"².

الباطر: نجد في الرواية بأن شكيبية تواجه المشكلة وتضطر للعمل لا يليق بها لأن البطن الخالي يجب عليها أن يملأه، وبعد كل هذه المواجهة لا تحصل على الأجور الكافية لتربية الأولاد .

وعندما يلتقي بها زكريا المرسلني في الغابة ويقول لها بشراء السمك فتجيبه بدورها:

هيه أنت ألا تشترين أيضا؟

- أنا لست ابنة الآغا ولا المختار..

¹ الثلج يأتي من النافذة: ص 76.
² الثلج يأتي من النافذة: ص 243.

- زوجي غائب.. ذهب إلى الأناضول ليشغل، وأنا فقيرة، لست من القرية، ولا يعطونني، في مقابل الرعي إلا الحبوب..¹

ولكن مع هذا كله فإنها تعرف كما تحترم نفهسا إنها تستطيع المقاومة لأجل العيش والحياة وتربية الأولاد. إنها ساعدت المرسلني، إنها في الغابة، هي السيدة وفي الحب هي القوية وفي الصراع هي المنتصرة². شكية ليست كغير المرأة، كما يقول زكريا المرسلني: «كانت امرأة وكنتُ أظن المرأة بنصف العقل، أو بدون العقل، بل أقل من لا شيء، مثل البطيخة، مثل المجردة، إذا جعت أكلت منها والسلام. كان دورها إشباعي إذا جعت، تم لا كيان لها ولا اهتمام بها إذا شبعتُ منها. وما هي شكية تبدو شيئاً آخر، امرأة أخرى أحتاجها في الجوع والشبع. دخلت في دماغي بنت أمها. وجدت نفسي، أمام لغز اسمه شكية، ووجدتها مخلوقاً في رأسه عقل، وهي ليست بطيخة ولا أكلة مجردة³.

فهي بدأت بخلاف زعم المرسلني بنزع شروال المرأة يجب على المرء يضع فيه شيئاً .. شكية هي التي وضعت هذه المرة شيئاً في شرواليه، بل هي التي أعطته شروال كله⁴. فإنها شجاعة أكثر مما يفهما المرسلني- شددت من قميه وقالت- ارمني مرة أخرى في الدغل. أنا لا أضرب رجلاً. في ضعيتنا المرأة لا تضرب الرجل. تقتله ولكنها لا تضربه، وأنا لن أضربك ولن أقتلك. قلت لك أنني لا أعطي نفسي بالسلك، ولا بالقوة، ولا أخافك، وأحس بالشفقة

¹ الياطر: ص 44.

² الياطر: ص 242.

³ الياطر: ص 242.

⁴ الياطر: ص 220.

عليك، لأن حسي يقول أن لك مشكلة، وأنت قلق؟، وتكاد تجن.. ارجع إلى الخيمة، أو اذهب في الغابة. لقد سلحتك..¹

ماساة ديمتريو: حمل ثقل الآخرين: إن المرأة لا تتمتع بالحرية في المجتمع الذكوري وليس لديها خيار حتى بعد الحصول على قدر كافٍ من العلم والمعرفة فإنها تتحني أمام قضاء المجتمع الذكوري التي تعيش فيه فلا تستطيع مخالفة العادة القديمة فهي تقول بنفسها:

أنا هي المرأة ذات الابتسامة. اسمي راجعة، وهو اسم باهت، لو خُبرت لاخترت غيره. كنت أختار اسما عصريا، مزهرا، مرنا لكن والدي أطلقه عليّ منذ ولادتي، فإن عليّ كالآخرين، أن احمل وزر غيري. ولكم فكرت: لماذا؟ ألا يكفي أننا جننا إلى هذه الدنيا بغير إرادتنا، وسنغادرها بغير إرادتنا، حتى نحمل اسما لا بد لنا في اختياره؟"².

فلا تسمح لها بعيش الحياة كما تحب هي. ذات يوم تقدّم رجل لخطوبتها. سألها والدها عما إذا كانت تقبل. ترك لها الخيار وقال:

- قرري بنفسك .. الزوج لا بد منه .. والحب؟

- هذا شيء آخر..³

فهل الزواج يكفي أن يسمح للزوج كل التصرف وليس لدى الفتاة مشاعر كما تقول راجعة: أسلمتني لرجل لفّ أصابعه الشيطانية على شعري، لمجرد أنه، بحكم مؤسسة الزواج الملعون،

¹ الياطر: ص 253.

² ماساة ديمتريو: ص 21.

³ ماساة ديمتريو: ص 25-26.

قد صار مالكي¹. وزوجه لا يناسب لها وهو لا يهتم بمشاعرها بل ترغب في راجعة لسببين:
جسدها وثروتها². وراجعة تواجه المشكلة من كلا الطرفين "والدها على فراش الموت،
وزوجها فاشل³.

وقد أخطأت بارتضائها هذا الزوج، وأخطأ والدها بالموافقة عليه، مهما كان دافعه، ولكن
والدها رجل من هذا البلد، من هذا الشرق، من هذه البيئة، وقد انحى أمام أحكامها، خضع لها،
خان فهمه وتمييزه ومعرفته في سبيل ألا تبقى راجعة وحيدة بعد موته .. "إذن هو، على نحو
ما، مذنب .. وأنا مذنب، وكلنا مذنبون .. والمجتمع هو المذنب الأكبر⁴.

فهي تبقى مقيدة بالقيود الاجتماعية، ن الحبل الصديّ حبل وهمي، لكنه حقيقي بقدر ما هو
وهي .. "إنها حرة. لكنها لا تقوى على ممارسة حريتها". دون ذلك الطلاق، هجران البيت،
فراق الطفلين، إحداث ضجة اجتماعية، وهذا كله كانت تقبله و ترتضيه، تتحملة، وهي تقول:
لو كان ثمة من يأخذ بيدي، يشجعي، يساعدني، يحميني.. ولو أن راجع جاء..⁵ ولكن تفكر مرة
ثانية وهل يأتي حرا هو الآخر، منقلبا من القيود الاجتماعية، ثائرا على المجتمع، رافضا له، أم
ينحني، يركع، أو يفصل من القدرة على المقاومة، فيصبح مذنبا بدوره، مثلها ومثل والدها
وزوجها⁶. فالمرأة في المجتمع الشرقي، ضعيفة حتى بقوتها، لا تنتفع بعلمها في مقاومة

¹ مأساة ديمتريو: ص 33.
² مأساة ديمتريو: ص 46-47.
³ مأساة ديمتريو: ص 73.
⁴ مأساة ديمتريو: ص 117.
⁵ مأساة ديمتريو: ص 117.
⁶ مأساة ديمتريو: ص 117.

محيطها، ولا بثقافتها في التمرد على البيئة وامتلاك حرية التصرف كالرجل¹. راجعة على الرغم من أنها متعلمة و في بيت والدها وفي قراءتها بالعربية والفرنسية الكثير مما لا يحصل عليه الجامعيون أنفسهم. لكن عليها، من الآن فصاعداً، تتحمل كل الأشياء المطروحة من قبل الزوج ولا تذكر الفلسفة والموسيقى أو المدنية والحضارة، في البيت صنم واحد هو المال. هذا الصنم تخلق للعبادة². وجدار من أسمنت الزمن الحديث، زمن المراسم، والطقوس، مؤسسات الزواج، وحد الحد الذي يصرخ ... "لا يمكن"³ الخروج من المؤلف. ومن جانب آخر ديمتريو فكان أقل استعداداً للمقاومة⁴. ولا يمتلك الجرأة "للوقوف في وجه المجتمع"⁵ أخذاً يد راجعة. فيرحل ديمتريو و ينصح راجعة للبقاء مع زوجها وإبنها⁶.

حكاية بحار: نرى في هذه الرواية مشكلة كاترين وتردها من الحيّ. فبحسب بطل الرواية صالح حزوم كاترين تجاوزت الحدود المقبولة. أعطت نفسها للغرباء، للاعداء، ولم تراع حرمة الحيّ، ولا كرامة أبنائه، ولا مشاعر السجناء منهم. عملها في منتهى الدناءة. ومن النوع الذي لا يغفر، ومهما تذرعت بالخوف فان ذنبها لا يغفر.. ثم ماذا تخشى؟ الموت؟ لقد مات غيرها، وبفعلتها هذه دنست ذكراهم⁷. أنها خانت الحي مع أعدائه. "كان بإمكانك أن تتصرفي

(1) مأساة ديمتريو: ص 117.

(2) أنظر مأساة ديمتريو: ص 152-153.

(3) مأساة ديمتريو: ص 162.

(4) مأساة ديمتريو: ص 187-189.

(5) أنظر مأساة ديمتريو: ص 194-195.

(6) مأساة ديمتريو: ص 192.

(7) حكاية بحار: ص 208.

كيف تشائين،" مع من تشائين من رجال الحيّ أما فعلتك، مع الأتراك في هذا الحي العربي، والرجال في السجن. فانها خيانة لقومك.. ومن يخون قومه جزاءه معروف...¹

أما أم سعيد حزوم هي وجه أليف.. طيب.. كانت تتحدث على مهل بصوت مطمئن، ونادرا ما سمعتها تشكو، فهي راضية بأن تكون ربة بيت، وأن تفني حياتها بالطبخ والنفخ والإنجاب.² فهي لا تعرف ماذا يحل خارج البيت يقول صالح للعودة إلى سورية وهي تفكر عن البيت ماذا ستفعل معها فقال والد سعيد - عجيب.. أنا أتحدث عن الوطن وأنت تتحدثين عن البيت!³

الدقل: نرى في هذه الرواية بأن المرأة ليست لها قيمة مشاعرها بل متاع للأثريا وهي لعبة تشتري بالمال من الدكان فالكفاءة تفقد أهميتها أمام الأموال وهي مضطرة أمام المجتمع الذكوري. نجد مثل هذه النماذج في هذه الرواية بأن زوج عزيزة هو أكبر منها بكثير.

- وكم يكبرك؟

- أربعين سنة..

- جريمة..

- كغيرها ... الجرائم كثيرة.. لو أحصيت عدد الشيوخ الذين تزوجوا قتيات صغيرات،

لعلمت أن زوجي كغيره، ليس شادا أبدا.

- وكيف وافقت على الزواج منه؟

¹ أنظر حكاية بدّار: ص 216-217.

² أنظر حكاية بدّار: ص 222-223.

³ حكاية بدّار: ص 241.

- أنا لم أوافق.. لكن ما قيمة ذلك؟ والدي وافق وهذا هو المهم. أنا من عائلة فقيرة وزوجي غني.. المال يشتري كل شيء¹.

كما صور الكاتب المرأة ضحية المجتمع التي تضطر لبيع جسمها لملأ بطنها بسبب الفقر ويرى سعيد حزوم الفتاة ترقد عارية على سرير عتيق من جوز. أطعمت اليوم كبدها للذئب. في الصباح تستجمع ما تبقى من صباها. في الليل تعتصر أيدٍ قدرة هذا الصبا، تعبت به كما الطبيب في جثة تحت التشريح، أيتها السماء! كم أنت بعيدة يا سماء! الفقراء يستيقظون مع الفجر، يجب أن يركضوا وراء رغيف خيال: الرغيف، في هذه المدينة خيال².

المرفأ البعيد: أما صورة كاترين الحلوة فتبدو مغايرة من النساء الأخريات فهي على الرغم من مواجهة المشاكل من قبل الحيّ تتمتع بحريتها ولديها الجرأة. وهي "لا تكون لرجل واحد إلى النهاية. تبدّل الرجال كما تبدّل الفساتين...³" يصفها سعيد قائلاً: "بعد والدي لم تثبت على رجل. الرئيس زيدان هو الزوج الرابع في الحلال، أما الحرام فلا أحد يدري.. أنا دخلت في هذا الرقم. كنت من بين عشاقها، لكنها سرعان ما تناسنتني. انقلبت عليّ. اتهمتني. اخترعت التهمة لكي تتركني⁴. فترى هنا حقيقة المرأة عندما لا تريد فليس من قوة ترغمها. يمكن أن تغتصبها.

¹ الدقل: ص 149.

² الدقل: ص 152.

³ المرفأ البعيد: ص 105.

⁴ أنظر المرفأ البعيد: ص 105-106

أن تفترسها، لكنك لا تقوى على إجبارها. إذا كفت عن حبك، فلن يكون في وسعك أن تزرع
الحب في صدرها من جديد بأي شكل¹.

كما نرى مشاركة المرأة في المظاهرة. فتاة جامعية قادت مظاهرة وهو غريب في المجتمع
الشرقي والمرأة لا تليق لها. ولكن من الممكن أن يحدث هنا أيضا:

- تستبعد شيئا.. المرأة العربية لا دور لها الآن، لكنها ستنهض.. من قال إن الحريم لن
يزول..؟

- قال عمر:

- المرأة لم تخلق لهذا..

فأشعل سيّد سيكارة وسأل:

- ولماذا خلقت إذن؟

- للبيت..

- حين تتعلم وتعمل.. ستجد طريقها إلى خارج البيت أيضا.

- مستحيل!

- لا شيء مستحيل..

- ويسمحون لها؟

- (...)

¹ المرفأ البعيد: ص 117.

- لا أحد يطلب السماح من أحد في مثل هذه الأمور.. إنها تحدث لأنه لا بدّ أن يحدث..

- عندئذ تكون القيامة قد دنت..

- هذا ما نرجوه.. نحن بحاجة إلى قيامة يا صديقي¹.

نهاية رجل شجاع: نجد المرأة العربية في هذه الرواية بأنها ضحية وهي تستخدم كآلة الجنس

وهي تصبح فريسة الشرطة العسكرية "البريفوتة" الفرنسية ويحترشون بالنساء ويطلقون على

المرأة العربية بـ "فطمة"². كما نجد مشاكل ليبية وهي عشيقة مفيد الوحش فأنها تواجه

المشاكل الكثيرة في الحياة بعد دخول مفيد في السجن³.

الرجل الذي يكره نفسه: في هذه الرواية نجد كيف تواجه المرأة المشاكل في المجتمع الذكوري

الشرقي. فإنها هي الضحية والرجال هم شرفاء ولو يقومون بألف جريمة. يسأل دعبوس:

- هل أنت أنسة أم سيّدة؟

- وما الفرق؟

- البكارة!

- هذه التي من ابتكار الإنسان؟

- وعليها يتوقف شرف البنت.

- وشرف الرجل؟!!

¹ أنظر المرفأ البعيد: ص 130-131-132.

² نهاية رجل شجاع: ص 69.

³ نهاية رجل شجاع: ص 302.

- الرجل في مجتمعنا الذكوري شريف ولو كان فاسقا..¹

فالناس ينفق نصف الحياة في التفكير بالجنس، في الشرق ، أما في الغرب فإنهم يعطون الجنس في المدارس...². فمتاعب المرأة في هذا الشرق، تحتاج إلى كتاب، بل إلى كتب، إنها يا عزيزتي ضحية! المرأة في كل مراحل حياتها، ضحية عندنا، وكل الظلم الاجتماعي ينصبّ عليها، وهي، البهيّة، محرومة، لا من البهاء وحده، وإنما من مجرد الاعتبار أيضا، في قدميها أغلال، وفي يديها أغلال، وفي عنقها أغلال، ومن أشكال مختلفة ولا تجد سبيلا للخلاص من أغلالها حتى مع النضال³.

وأن المرأة هي عاهرة لأنها ضحية مجتمع لا عدالة فيه ولا مساواة .. وهذا ليس ذنبها، فمهنة الدعارة قديمة قدم التاريخ... إنه يعطيها مالا لا روح فيه، وهي تعطيه جسدا لا روح فيه، وهذا تكافؤ وتماتل⁴ . لكن لماذا تؤخذ المرأة وحدها، بجريمة فعلة مشتركة، ولا يؤخذ الرجل، الشريك في هذه الفعلة؟ لماذا تلاحق اللعنة كاترين، ولا تلاحق سعيد الذي خان أباه معها؟ .. وحاسب هذا الضمير كاترين لأنها أنثى! أليست هذه مفارقة كبيرة في حياة أبناء آدم، لا يوجد لها مثيلا في حياة الطيور والأسماك والزواحف؟!⁵ المرأة عبدة والرجل هو الذي استعبدتها ظلما وطغيانا⁶. فمن هو المجرم الحقيقي في قضية كاترين الحلوة: تقول كاترين: لا! لم أخن!

¹ الرجل يكره نفسه: ص 60.

² الرجل يكره نفسه: ص 61.

³ الرجل يكره نفسه: ص 62.

⁴ الرجل يكره نفسه: ص 71.

⁵ الرجل يكره نفسه: ص 133.

⁶ الرجل يكره نفسه: ص 164.

أنا لم أشأ، الحظ هو الذي شاء، فماذا في وسع الإنسان أن يفعل أمام مشيئة الحظ؟ .. . نشبت معركة في مدينتنا مرسن، بين العرب والأتراك، واستبسل فيها صالح، ورد العدوان عن "حيّ الشرادق" لكنه، هذه المرة دفع الثمن سجنا لخمس سنوات، وعقب سجنه عادت الأحجار تتساقط عليّ وعلى كوشي، وبعد ذلك استباحه بعض الأتراك واغتصبوني، فكنت الضحية من جديد، الضحية التي سقطت غدرا، ولم يشأ صالح، بعد خروجه من السجن أن يتفهم وضعي، فطرمني من مرسين¹. كما يقر صالح بهذا أيضا: نعم! أنا المذنب وكاترين هي البريئة، و قد ندمت إلا أن الندم لا ينفع بعد فوات الأوان².

عاهرة ونصف مجنون: قضية المرأة في هذه الرواية جلية وواضحة. فالمرأة كيف تواجه الفقر وظلم المجتمع الذكوري فهي تستخدم كآلة الجنس والرجل هو الأعلى دائما لأن حق الزوجية يسمح له كل التصرف وعليها أن تقبل أوامره. فالزوج يخاطب زوجته –

- يا عاهرة. قلت لك لا حسّ ولا حسيس .. صرنا في نصف الليل .. خائفة من أيّ شيء؟ من..³

أما البنت لورانس فهي تتعذب كثيرا بهذه اللعبة القذرة، تحب أمها، تكره والدها، تريده أن يموت...وعندما تنتهي المعركة بين والديها، تضع يدها في أسفل بطنها، تحسّ ، على نحو ما،

¹ أنظر الرجل يكره نفسه: ص 196.

² الرجل يكره نفسه: ص 196.

³ عاهرة ونصف مجنون: ص 9.

أن هذه النقطة، في أسفل البطن¹. فهي تسمح نفسها ومن حقها وبادفع آنيّ أن توغل في طلب اللذات مع رجل وآخر بالزواج وغيره وأن فجورها مبرّر تماما لأنه حق مكتسب². ولكن من هو المذنب والحق على من؟ على الرجل؟ لا! على المرأة لا! على الأولاد؟ لا أيضا! فعلا... فإذا قلنا الحق على الفقر³.

والمجتمع الذكوري له كل نوع من حرية التصرف فيقول الأب الجاهل فطوم:

أفعل فيها ما أريد .. لا عيب في الحلال، سمعت؟ سمعتِ وإلا أجعلك تسمعين بالقوة؟ على المرأة أن يطيع زوجها، أن تتعري تماما، بالشكل الذي يريد، و في الوقت الذي يريد.. وإلا لماذا هي زوجته؟! ولماذا خلق هذا لهذا؟⁴ أفعل الذي يفعله الذكر مع الأنثى .. هذا حقي!⁵.

فداء الجنس داء لوانس ورثته عن أبويها في الغرفة الوحيدة، الفقيرة، التي كانت تنام فيها العائلة كلها، وهي الطفلة لصق خاصرة أمها التي لا يعرف والده كيف يتستّر وهو يركبها⁶. دفعت لوانس ثمن أخطاءها ما تتطلب أثمانها، "والثمن كان دائما جسدها، فالأنثى بائعة جسد، والمشترون هم الرجال"⁷. لورانس بعد الخروج من البيت ذهبت إلى بيت سيدة غنية شاذة⁸.

(1) عاهرة ونصف مجنون: ص 11.
(2) أنظر عاهرة ونصف مجنون: ص 12-13.
(3) عاهرة ونصف مجنون: ص 13.
(4) عاهرة ونصف مجنون: ص 14-15.
(5) عاهرة ونصف مجنون: ص 17.
(6) عاهرة ونصف مجنون: ص 22.
(7) عاهرة ونصف مجنون: ص 32.
(8) أنظر عاهرة ونصف مجنون: ص 28-29.

وهي فخورة أيضا باختيار هذه المهنة تعليقا على قول مدير الجامعة الذي، مرة قال لها "كل هؤلاء الطلاب سيمضون، بعد تخرجهم، إلى صفوف العاطلين عن العمل" والحمد لله انني لست منهم، لأنني اشتغلت على جسدي، وتجارة الجسد أقدم تجارة في هذا الكون المبارك¹.

تحاول هذه الرواية معالجة قضية حساسة جدا، لم يسبق أن عالجتها أية رواية عربية أو أجنبية ... مع أن هذه القضية ذات أهمية قصوى، تمس ملايين العائلات في الوطن العربي وحده، دون أن تأخذ في حسابهم العالم الثالث، المنكوب بالفقر كما هي نكبة في الوطن العربي². و أن لورانس شعلول هذه مدهشة في صراحتها، لسبب من أنها تتحدث عن والديها في الغرفة الوحيدة الفقيرة، وكيف كان يمارسان الجنس كواجب زوجي ودافع شقي³.

حمامة زرقاء في السحب: في هذه الرواية نرى التفاضل تجاه المرأة ... أنا أو من بالمرأة، وأؤكد أنها هي وحدها تصنع التقدم الاجتماعي، وحين تتعلم المرأة وتعمل، ستصنع المعجزات⁴.

علبة التبغ: إن الأسرة تواجه المشاكل المتعددة حيث يلجأ إليها إبراهيم. فنجد البنت الصغيرة "ماغي" لا يتزوجها أحد لأنها ليست جميلة و "ما ذنب ماغي إذا كانت قبيحة؟ لماذا يأتي أحدنا إلى هذه الدنيا جميلا والآخر قبيحا؟"⁵ مع أنها تتكلم الفرنسية جيدا.

¹ عاهرة ونصف مجنون: ص 33.

² عاهرة ونصف مجنون: ص 93.

³ أنظر عاهرة ونصف مجنون: ص 93-94.

⁴ حمامة زرقاء في السحب: ص 312.

⁵ علبة التبغ: ص 17.

في "الأبنوس-----ة البيضاء" نرى كيف يفكر المرأ عن النساء.

ملكة ماري: نحن مدينون في تقدمنا إلى المرأة¹.

قال المهندس:

- المجتمع لا يتقدم على ساق واحد..

قال الرسام:

- الساق الجريئة.

استحسنت السيدة:

- هذه هي .. الساق الجريئة.

تمنطق المهندس:

- برهناك؟

- أنديرا غاندي..

- هذه ظاهرة شاذة.

صاحت السيدة:

- و لتكن .. تحرموننا حتى من شذوذ الظاهرة¹.

¹ (الأبنوسة البيضاء: ص 5.

شرف قاطع الطريق

إن المرأة في هذه الرواية ضحية المجتمع الذكوري فـ كاترين أنها تعرضت ذات ليلة لعميلة اغتصاب في غياب زوجها المسافر إلى أنطاكية. فقد اقتحم لصوص بيتها مروّ عينها مع طفلها، ولم يكتفوا بالسرقة، بل جرّوها إلى المطبخ، وهناك اغتصبوها. والزوج بعد عودته من أنطاكية، أدان الزوجة، طردها من البيت، اتّهمها بالزنى، بأنها هي التي في غيابه سرّبت خبرا للمعتدين عليها، بأن زوجها غائب في سفر لن يعود منه إلا في اليوم التالي ... كاترين روت الحادث كما وقع، أقسمت أنها قاومت مغتصبيها ما استطاعت المقاومة. أرت الزوج، وكذلك بعض النسوة من الجيران، أثار العنف الذي استخدمه المعتدون، والكدمات على جسدها وهي تقاوم للإفلات والهرب، إلا أن الزوج "الغيّور" على شرفه، المنافع عن عرضه، اختار الطريق الأسهل لغسل العار الذي لحق به، فلم يذبح الزوجة "الخائنة" كما هو العرف، ولم يصل الضرب المبرح الذي أنزله بها حدّ إمانتها، لذلك طلقها دون الرجوع إلى المحكمة الروحية، معلنا، بغير قليل من الاعتداد والتباهي، وأنه لا يقبل مهما كله ذلك أن تبقى " امرأة عائبة" في بيته! .. عنثرة زمانه!².

أما الجيران فهم انقسموا إلى فئتين: الأكثرية التي وقفت ضد المرأة، ومؤيدة تصرف زوجها "الشريف" مبررة ضربه الزوجة حد الموت، طردها من البيت، دون أن تشفع لديهم دموع طفلها، دون أن يهتموا بدفاعها عن نفسها، والأقلية المؤلفة من رجل أو اثنتين، ومن مرأة أو

¹ (الأبنوسة البيضاء: ص 5
² (أنظر شرف قاطع الطريق: ص 8-9).

أكثر، التي حاولت بالنصح دفع الأذى، تحنين قلب الزوج بالرحمة بولديه، إفهامه بما في المنطلق من ترجيح كفة العقل، أن امرأته ليست عاتبة، وأنها اغتصب بالقوة، وأن الرجال عاجزون عن مقاومة اللصوص وقطاع الطرق، فكيف بامرأة عزلاء، وحيدة في بيت ضائع بين حقول التوت، وأن هذه المرأة غير متواطئة وإلا ما قاومت، ما صرخت، ما تعرضت للعنف البادي على جسدها!¹.

الزمن كان إلى جانب الزوج، العشرينات من هذا القرن كانت موبوءة بالجهل، بالتخلف، بالظلم الاجتماعي، وكانت السيادة المطلقة للرجل، وكان الرجال كما هم أن بعضهم الآن، من الذين يبيحون لأنفسهم ارتكاب المحرمات، والويل كل الويل لزوجاتهم إذا رفعن الصوت، أو احتجن، على ظلم الأزواج، لأن مصيرهن الطلاق، أقله الطرد من البيت، أو الهجر عند الذين يعدون أنفسهم من المتنورين أو الرحماء². 10

نرى اهتمام حنا مينة في رواية "المغامرة الأخيرة" تجاه المرأة. كما تقول شخصية أجنبية لبطل الرواية "حب المرأة يعني تكريمها، فإذا لم يكرم المرأة، يكون متخلفا من الناحية الحضارية، وأنت إنسان متحضر³.. المرأة ليست جزءا من القضية، إنها القضية كلها"⁴.

البحر والسفينة وهي: نرى في هذه الرواية المجتمع الذكوري لا يرحم! عقلية الذكورية بلوى، تصيب المرأة دون الرجل، وتزداد الأمور سوءا وشقاء، في المجتمع المتخلف .. أما المناطق

(1) أنظر شرف قاطع الطريق: ص 9-10.

(2) أنظر شرف قاطع الطريق: ص 10.

(3) المغامرة الأخيرة ص: 124.

(4) المغامرة الأخيرة: ص 98.

البعيدة عن بيروت في الشمال والجنوب، وكذلك الأحياء الفقيرة، البائسة حتى في العاصمة، فإنها تقدم لوحة أخرى، مختلفة جدا، وأشد مدعاة للثناء!¹ المرأة في الأوساط الفقيرة، وكذلك الجاهلة، في الشرق، تتعذب، لشعورها بأنها واسطة إنجاب، آله تفريخ لا أكثر!² ويحق للأجنبية ما لا يحق للعربية أو الشرقية، يقول البطل: لعنة "الحريم" تلاحق.. إلى خارج الوطن، في السفر، والقيام، والقعود، تنام معنا وتستيقظ معنا، وكذلك تأكل وتشرب.. مزعج! تورّكنا!³ كما يعتبر صطيف القمطي سيادة المرأة في الباخرة "عيب على شواربه"⁴.

" ما أشق الحياة، عندما تترمّل المرأة، وتصبح عرضة للطمع، للاستعابة، للشائعات الكاذبة، في مجتمع ظالم، لا يرى في المرأة سوى جسدها .. مع أنها إنسانة، ولها عواطفها، وغرائزها، وتحتاج إلى من يقف إلى جانبها، يرد عنها الأذى، الكيد، الحقارات، وبكل أنواعها! وتحتاج إلى من يرى إلى روحها لا إلى جسدها فقط! إلى من يبادلها الحب، بصدق وشرف"⁵.

خلاصة القول

إن المرأة في روايات حنا مينة هي الطرف الآخر في علاقة الحب، ليست هامشية عنده ولا عند أبطاله. إنها أساس من أسس الوجود وجوهر فيه، ويكاد حب المرأة أن يكون مالكا لقلوب الأبطال⁶. فالحب في رواياته ذو نزعة إنسانية عميقة، لكنه ليس بالحب السهل، وغالبا ما يأتي

¹ البحر والسفينة وهي: ص 50.

² البحر والسفينة وهي: ص 73.

³ البحر والسفينة وهي: ص 116.

⁴ البحر والسفينة وهي: ص 143.

⁵ البحر والسفينة وهي: ص 151-152.

⁶ حوارات.. وأحاديث في الحياة الكتابة الروائية – لحننا مينة: ص 60.

عبر الصراع. المرأة والمستقبل هما قضية أدبه، ويأتي الحب دائماً رباطاً إنساناً، فيه كل الاحترام للمرأة وكل التجلى لأنبل الصفات فيها¹. فهو يقول: ارفعوا للمرأة تمثالاً.. كونو من حضارة العشرين، فموقف الرجل من المرأة قضية حضارية، ولا عبرة بالشهادات الكبيرة. المهم هو الفهم التاريخي، والاتساق معه.. كفّوا عن النرجسة بذكوريتكم يا عناترة هذا الزمان². كما يقول لو خيروني بكتابة كلام فوق شاهدة قبري لقلت لهم اكتبوا هذه العبارة " المرأة، والبحر.. وظماً لم يرتو"³. فهي إنسانة بهية.. وضحية، رحيبة إلى درجة أن لها قوساً واسعاً، تتدرج بين نهايته أوضاع المرأة في حالاتها المختلفة. فمن "مريم السوداء"، التي تتلقى كل عبودية الأنثى على يد زوجها "نايف الفحل" في "المصباح الزرق" إلى أم الفتى، "الدجاجة المباركة" في "الشمس في يوم غائم"، إلي امرأة القبو في هذه الرواية أيضاً وإلى "زّوبة" المهانة والمتردة في "بقايا صور"⁴.

فالأم الطيبة المتفانية في سبيل عائلتها، الحاملة كل وزر وآثام زوجها الصابرة على الشذوذه العائلي، وكل إدمانه ولا مبالاته بأسرته وأطفاله، تقابلها في "الياطر" "شكيبية" الراعية، التي لا ترفض سيطرة الرجل العاطفية فقط، بل تروّضه إلى درجة تحويله من وحش إلى إنسان، في مجابهة تصل حد الموت في الصراع الضاري عبر الغابة⁵.

¹ أنظر نفس المصدر: ص 74-75.

² نفس المصدر: ص 108

³ نفس المصدر: ص 109.

⁴ نفس المصدر: ص 129.

⁵ نفس المصدر: ص 129.

هكذا صوّرت المرأة الأم، والحبّية، والشقيقة، والزوجة، والعاملة، والمستهترّة والبغي. إن المرأة في كل هذه الحالات، تتبدّى ضحية ظروف اجتماعية وتقاليد سلفية، وسلطة زوجية مستمدة من حقه كرجلٍ قوّم على المرأة في مجتمع ذكوري. غير أن المرأة، في كل هذه الحالات تبدو بهيئة، وفي قلب اللوحة الاجتماعية السوداء لحياتها البائسة، تتبدّى روحها بقعة ضوء مشعة، ولا تتي، وبقدر درجة وعيها، تغزل كموحاتها وآمالها، عبر العمل، ولكد، والمثابرة، والتضحية التي لا حدود لها، والتمردّ المفاجئ الذي هو، بشريا، أكثر حدة عند المرأة، رغم كل عوامل القهر المتقاطعة فوق حياتها¹. لقد قام حنا مينة في رواياته برصد يقظة "الأماكنية الغافية": لدي المرأة السورية، في بعض المراحل من القرن العشرين. (بقايا صور، الياطر، الشمس في يوم غائم، المرصد) لكنه تجنب "إسقاط هذه اليقظة حيث لا وجود لها. فالمرأة لم تخرج من "الحريم" إلا حديثا²، ... إن ما جاء به حنا مينة من نماذج نسائية فيه صدق الواقع، حرارته، أمانته، وفيه تطلع واضح لكسر القيود، وتعشق للثوريين (شقيقة الفتى في الشمس) وتمردّ (امرأة القبو) وانتفاضة (زنوبة) وفيه تساؤل ذاتي عن عدالة الأرض والسماء معا، (الأم في بقايا صور). ومهما يكن وضع المرأة، فإنها ترنو إلى جديد، متقدم في وضعها الأسروي، (نجوى في الشراع والعاصفة) وهي تتوسل إلى ذلك بالدموع تارة، وبالتصدي للرجل طورا (شكيبية في الياطر)³.

الشيء المهم للمرأة لدى حنا في الرؤية الروائية بأن هذا الكائن لم تستطع القرون الطويلة من القهر أن تدمّر روحه، أو تشوّه إنسانيته، أو تقتل نزعة التحرّر في ذاته، وهو وارد مسجون في

¹ نفس المصدر: ص 130.

² نفس المصدر: ص 131.

³ أنظر نفس المصدر: ص 131.

قمقم، يخرج عملاقا حيثما تسدّى له ذلك، ويُسهّم إلى حد كبير، في صنع تقدمنا الاجتماعي، رغم الرجل أحيانا، أو مع في أحيان قليلة. المرأة، في رواياته، جديرة بلعب دورها المستقبلي¹.

المرأة البرجوازية- صاحبة المهندس، في قصة "الانبوسة البضاء" فهي امرأة مقدامة، تعرف كيف تقتحم على الرجل ذاته أمام بلقيس- الذي يريد عن طريق الملك بأكثر مما أراده عن طريق الوجدان شكيبية- المرأة الراحية- انها بلغت أن تحطم الوحش في "المرسلي" وكذلك الأم، البغي، الزوجة، "امرأة القبو". إن المرأة في رواياته، ليست صورة جزئية، وليست شريحة اجتماعية محددة، بل هي صورة للمرأة في حالات كثيرة²

يرفض حنا بأنه كاتب جنسي، فالمرأة أكرم من هذه النظرية الجسدية القاصرة. الجنس- حين يكون تعاطفيا إنسانيا- يصبح اجتماعية أيضا. لكن الجنس كثيرا ما يتردد في رواياته كعلاقة زوجية (الطروسي- نجوى) أو علاقة رومانتيكية (الطروسي- ماريّا) أو علاقة حب إنسان (فارس- رنده) أو علاقة تقريب بين إنسانين محتاجين إلى الألفة والأنس البشري (زكريا - شكيبية)³.

و المرأة في سورية في النصف الأول من القرن العشرين في الحريم لم يكن لها وجود في العمل أو التعليم، في المعمل أو الجامعة، وحتى دورها في الحياة الريفية كان تابعا للرجل، من حيث هي زوجة، أو فتاة تنتظر الزوج، وتقوم بالعمل الزراعي في أرض السيّد ومن خلال أسرتها نفسها.

¹ أنظر نفس المصدر: ص 131.

² نفس المصدر: ص 132.

³ نفس المصدر: ص 132.

التطور الذي حدث في بداية النصف الثاني من هذا القرن كان على صعيدين: اجتماعي وأدبي، فعلى الصعيد الأول بدأت المرأة السورية الخروج من الحريم، والإقبال على التعليم في كل مستوياته، وعلى العمل في بعض مجالاته، وعلى الصعيد الثاني تحول الأدب من الرومانسية إلى الواقعية، وطفقت حياة الشعب تصبح مدارات للأعمال الأدبية، خاصة في القصة والرواية. برزت المرأة لأول مرة في روايات حنا مينة، كعامله في مستودع للتبغ في اللاذقية (المصاييح الزرق)، وكانت "رندة" حبيبة "فارس"، شخصية رئيسية مقابلة وموارية في الرواية¹. ولكنه قدم المرأة دائما كوجوهوازٍ للرجل، صحيح غير مستقل عنه، لكن وجودها كان يعبر عن نفسه في لحظة الأزمة امرأة القبو².

كما نرى زنوبة امرأة تتحدى، منذ البدء، مواضع المجتمع من حولها³... ورجال الدرك.. إنه يمدد المرأة إنها في نظره قضية دائما. المرأة مغبونة اجتماعيا، مظلومة، مكبلة بالقيود، هذا صحيح. لكنها ليست ضعيفة، وليست أقل من الرجل ثورية ونضالا وبناء وعملا إنتاجيا حين تتوفر لها الظروف. "لذلك أمدد المرأة، هذه المباركة ثلاثا"⁴.

يعتبر حنا مينة المرأة نصف المجتمع، ولا يجوز أن يبقى نصف المجتمع العربي مشلولاً. في وقت يواجه فيه العرب التحديات من إسرائيل والاستعمار، حيث المجتمعات تعمل رجالا ونساء، إذن فعلى العرب بناء الدولة العربية العصرية الموحدة وتنفيذ مشاريع وخطط التنمية، ولا يمكن

¹ نفس المصدر: ص 134.

² أنظر نفس المصدر: ص 134

³ نفس المصدر: ص 139.

⁴ نفس المصدر: ص 145.

إنجاز كل هذا والمرأة مشلولة، ونصف المجتمع مشلول فهو يقول: من قال إن دور المرأة ينحصر في الطبخ والنفخ والإنجاب؟¹.

تحرر المرأة من التبعية، من الخنوع، من ظلم الرجل، من أسر المجتمع، يبدأ بتحررها الاقتصادي، وهذا يتطلب أن تتعلم المرأة وتعمل، وحين تفعل ذلك فإنها تشق طريقها بالاعتماد على نفهسا، وترغم الرجل على الاعتراف بحقها، وتصبح سيدة مصيرها، ويضطر المجتمع إلى تغيير نظريته إليها. المجتمع المتخلف ثرثار.. وعلى المرأة ألا تخاف ثرثرة هذا المجتمع.²

يؤمن حنا بقدره المرأة على صنع الحياة وبمشاركة الرجل... "المرأة أكثر من حبيبة رفيقة وزوجة وأخت.. إنها ملهمة، وشريكة كفاح، وهي أم، كتفها نضع كل متاعنا، وعلى صدرها نستريح..."³. كاترين الحلوة: المرأة الأسطورة، التي هي من البحر واليابسة في آن، والتي ترمز إلى عروس البحر، ذات الطاقة الجمالية والجنسية، وذات الرهبة، والسيطرة، التي نادرا ما تتوجد في المرأة العادية⁴. كما نرى عزيزة: في رواية " الدقل " فهي المرأة التي تمثل التحدي بين الذكورة والأنوثة في عالم "سعيد حزوم" الابن⁵.

يقول حنا منية اجابة على سؤال: "لست أهادن المرأة ... المرأة ليست بحاجة إلى هدنتي، فهي برئية في الأصل، والرجل هو المذنب، بحكم دوره الذكوري كسيد في مجتمعنا. إنني آخذ المرأة في صورتها الفنية، الموضوعية، ولا أمدحها أو أشتمها، أصورها بالبهاء الذي هو عليه، كام

¹ أنظر نفس المصدر: ص 145-146.

² نفس المصدر: ص 146.

³ نفس المصدر: ص 171.

⁴ نفس المصدر: ص 209-210.

⁵ نفس المصدر: ص 210.

وأخت وحببية.. ذلك أن المرأة هي الحياة، وأدبنا سيظل فقيرا في استلهامه هذه الحياة ما دامت المرأة لا تلعب دور الإغناء فيها¹.

الظلم والعطالة – والشجاعة والمقاومة:

نجد في روايات حنا مينة صور العطالة والفقر والظلم والقهر على الناس من قبل المختار والأغنياء ورجال الحكومة فالناس لا يملكون أجسادهم. يعاملون معهم معاملة أسوأ من البهائم، فهم خادمون وهم صادرو الأحكام. فطاعتهم واجبة عليهم والإضراب والتهديد والطرده من العمل. ولكن نجد أيضا في رواياته على الرغم من أنهم ضعفاء يقاومون الظلم ويطالبون حقوقهم ويشاركون في المعركة ويذهبون إلى السجن، فنراهم ضعفاء ولكن شجعان والمرأة لها أيضا دور مهم في المقاومة.

نجد في بقايا صور بأن الأب لا يجد عملا يكفي لدخله لدعم الأسرة كما تقول الأم: نعم يا أولاد رأها ... ورأى أماكن كثيرة. أبوكم لا يستقر. لا يفلح ولكن لا يستقر. يقول إنه يبحث عن الرغيف². كذلك الأم تضطر لبيع "نصف غذاء الولد"³ لأنها ليست صالحة للعمل كخادمة. أما المختار فهو ظالم لا يفهم مشكلة الأم وعندما تذهب الأم إليه لشرح وضع العائلة تضربها في

¹ نفس المصدر: ص 249.

² بقايا صور: ص 82.

³ أنظر بقايا صور: ص 89-89.

بطنها بالرّجل والعصى وهي تسقط في الوحل وستجبر... يا مختارنا! ارحمنا يا مختارنا!¹.
وكذلك يهددها المختار: كذّابة.. هرب زوجك ليأكل أموالي.. يا أولاد الكلب! .. يهرب زوجك،
يتركك أنت! ماذا أفعل بك أنت؟ .. أستطيع حبسك في هذا البيت. أستطيع شنقك على "التوتة" مثل
كلبة بلا أصحاب .. وعند الاقتضاء أبيع أولادك². وعندما لم تستطع الأم أداء الدين طلب
المختار الأخت خادما ورهينة في حين طفلتها الصغيرة تحلم بالذهاب إلى المدرسة، تضطر لأن
تذهب لتعيش بعيدة، غريبة، شقية، في خدمة رجل لا يرحم. وعندما رفضت الأم وصرخت على
وجهه:

- بنتي صغيرة لا تصلح لخدمة الناس.
- نحن غير الناس .. المختار غير الناس.
- المختار على رأسنا، ولكن بنتي صغيرة..
- يا بنت الكلب .. تنبحين في وجهي؟ قلت لك هاتي بنتك لتخدم عندنا فترفضين؟ هذا الأنف
العالي سأكسره³.

ولكن هي متطلعة تتأكد أنها لا تزال إنسانة، وأنها لا تزال قادرة على مواجهة الناس، وعلى
تقبل الأذى واحتماله... وحين يكبر الصغار، يحصلون على رزقهم بأنفسهم⁴.

¹ بقايا صور: ص 111.
² أنظر بقايا صور: ص 123-124.
³ بقايا صور: ص 136.
⁴ أنظر بقايا صور: ص 126.

الحرير الهندي خرّب البيوت. وهذه لعبة قذرة لتخفيض الأسعار. والتراب لا يؤكل والأطفال جياع فيضطرون لبيع الدخل بالسعر الذي يفرضه أولاد العاهرة، فقط لو يشترون¹. ولكن.. لم يأت التجار لشراء الموسم. والقلائل الذين جاؤا تريتوا ليفرضوا أدنى الأسعار. والملاكون طمعوا بشراء حصص المرابعين بأسعار بخسة².

وكذلك نجد بأن زنوبة تقع فريسة الاغتصاب³. وكل ما واجهت زنوبة من قبل سرجان ... بأنه حاول اغتصابها ولكن هي من جانب آخر قاومتها إنه مزق ثيابها في الحقل ولكن من حسن الحظ أصحاب القرية ساعدوها من الخلاص من هذا السرجان⁴. ولكن نجد زنوبة شجاعة على الرغم من أنها ضحية فهي تقاوم ظلم الدرك:

- أنت أيضا تسرقين حبوب السيد!؟

- قالت زنوبة:

- أنا لم أسرق.. وأنت ماذا تظن نفسك؟ إله؟ لماذا تحبس الناس تضربهم؟ وهذا المجرم

إلى جانبك .. أنا لي حساب معه .. حساب قديم يعرفه، ولا تظن أنني أنسى.. سأقتله

بيدي، ولتشهد عليّ الضعية كلها..

- يا عاهرة...

- عاهرة؟ وزوجتك..؟ وزوجته..؟ آه يا أزواج العائبات!

¹ بقايا صور: ص 170.

² بقايا صور: ص 174.

³ أنظر بقايا صور: ص 273-274-275.

⁴ أنظر بقايا صور: ص 335-336.

- نحن؟

- وحكومتك أيضا!

- تشتمين الحكومة؟

وأشتم السلطان نفسه... يدكم وما تطول...¹

كذلك جاوش قام بإيذاء الآخرين أيضا.. جاؤوا بفلاح آخر. كان مكبلا، حافيا، عجوزا، وقد

استجار طالبا الرحمة لشيخوخته، فقال الجاوش:

عندما سرقت المخزن لم تكن تحس بالشيخوخة أو تخجل منها.. أنت خبأت الحبوب في بيتك،

فقل لنا من الذي جاء بهذه الحبوب؟

(...)

- تأكل مال الحرام؟

- وماذا يفعل الجائع؟

- صاح الجاويش:

- يموت ولا يأكل المال الحرام..

- صاح أحد الفلاحين فجأة:

- لماذا لا تقولون هذا لأنفسكم؟ أنتم تأكلون الحرام والحلال.. لم تبقوا في الضيعة على

بيضة أو دجاجة!

¹ بقايا صور: ص 351.

- يا أبن العاهرة، صاح به الجاويش، أنت رأس البلية.. أنت رأس الأفعى..

قال الفلاح وكان موقوفا قد ضرب لتوّه:

- قل عني ما تشاء.. أنا سرقت المخزن. قلت لكم سرقت ولا أخاف.. أطعمت أولادي..

افعلوا ما تريدون..

- نفعل ما نريد... انتظر يا ابن الكلب .. أنت تعرف من أنا ..

نبر فلاح آخر:

- نعرف من أنت.. تترجل علينا لأنك ابن حكومة. لو كنت مكاننا¹.

وبعد ذلك حدثت معركة .. أطلقوا النار على الأجسام مباشرة. تحولت المعركة إلى مجزرة، فازداد الصراخ والعيويل، ولم يعد أحد يأبه للنار المندلعة لا فكر بإطفائها، وكان مشهدا مروّعا ذلك الذي تجلى وبعض الفلاحين يحملون دركيا ليلقوه في النار... كان يصرخ برعب قاتل، ويستغيث بخوار ثور يُذبح، ... وزنوبة التي ارتفعت السقف وأشعلت النار في المخزن بعد أن هربت من الدرك، تحرض الرجال على ان يفعلوا، وتطلب منهم أن يحرقوا السيد أيضا ولا يدعوه يهرب². بعد ذلك حدث شيء رهيب، كان ذروة تلك الفتنة العاصفة ونهايتها. أطلق

¹ أنظر بقايا صور: ص 354-355.

² أنظر بقايا صور: ص 357.

دركي من وراء إحدى الأشجار رصاصة باتجاه السلطح، ومع صرخة خرجت كالزئير دوّت فوق جميع الصرخات، تهاوي جسم زنوبة كخرقة أطارتها هبة ريح شديدة¹.

المستنقع:

وجد في هذه الرواية الحقد مع الدرك عندما ضرب أباه، يقول الفتى: لقد كرهت الدرك يومها بأشد مما كرهتهم يوم ضربوا وأطلقوا النار على الفلاحين وقتلوا زنوبة في قرية "الأكبر" . خيل إليّ أن الدرك يملأون الدنيا، أنهم هم أنفسهم في كل مكان، قساة غلاظ لا رحمة في قلوبهم، وأن ليس من عمل لهم إلا ضرب الفلاحين وسوقهم إلى السجن² وكما يصفهم الأب بأنهم مثل بني عثمان. خبزهم وملحهم على ركبته " أنهم لا يحفظون ودا ولا يرغبون حرمة. وكثيرا ما قال : أولاد الحكومة هؤلاء مثل الحيات، لا يوضعون في العبّ " لكنه كان يضيف: " وماذا في وسعهم ان يفعلوا؟ يدهم وما تطول... في المدينة مثل النعام، وفي القرى مثل الذئب، يتفوقون على الفلاحين فقط"³.

وكذلك نجد جراءة أهل الحيّ كما يقول الفتى: " أخذنا يوما بعد يوم، نتجرأ على الأسلاك فنقطعها أو نمرق من بينها"⁴. ولكن يرسل الخواجة اسكندر زلمه لطردهم بالقوة وطالما نشبت المعارك بين سكان المستنقع وزلم صاحب التل، وجفلت الخنازير وطفشت وهي تشخر تنخر وتدوس من تصادفه في طريقها، إلى أن قتلت يوما طفلا صغيرا، داست على رأسه أو امعائه،

(1) أنظر بقايا صور: ص 358.

(2) المستنقع: ص 18.

(3) أنظر المستنقع: ص 19.

(4) المستنقع: ص 62.

فنفّر الدم من فمه ومات¹. فنظم أهل المستنقع حملة انتقامية، بالعصى والفؤوس والرفوش والقضبان الحديدية على أملاك الخواجة اسكندر ودارت معركة على التل أولاً، ثم دخلوا المزرعة فأعملوا فيها القطع والتكسير، واقتلعت الخضار وقطعت الفواكه وكادوا أن يصلوا إلى قنّاق صاحب الخنازير لولا أن وصلت شردمة من الدرك، أطلقت الرصاص إرهاباً، ثم أطلقه على الناس، فقتل رجل وجرحت امرأة، وأصيب كثيرون برضوض خدوش في معركة بين سكان المستنقع ورجال الدرك².

وكذلك نرى.. الأزمة الاقتصادية تشتد، والبطالة تتكاثر.. لقد صدرت فرنسا.. "كريزتها" إلى سورية، وكانت وطأة هذه الكريزة هنا مضاعفة.. كان الفرنسيون وحدهم الذين لا يبألون بشيء، لأنهم يتنزعون اللقمة من الأفواه³. والأغنياء يأكلون الفقراء، والمرابين يأكلون الفلاحين، والدائنين المدينين، والأقوياء الضعفاء⁴. أما عبده حسني و فايز الشعلة يقومان إلى جانب العمال كما يقول البطل: "... وكثيراً ما رأيت عبده حسني ينضم إلى حلقتهم في فيء أشجار الكينا وكثيراً ما أبدى اعجابه به ونقل عن لسانه كلاماً يعلق بتأليف "سندیکا" لعمال الميناء⁵. و حديقة المنشية كانت جموع العمال العاطلين أفواجا، وكثرت الاجتماعات والمناقشات، وكثر أيضاً، توزيع النشرات ضد الحكومة والانتداب الفرنسي⁶. فالعمال يقاومون يقاومون الظلم: "... كل الحيّ في الظلمة .. في الوحل. يقول الفتى : هكذا عشنا، وهكذا

¹ أنظر المستنقع: ص 62.
² أنظر المستنقع: ص 62-63.
³ أنظر المستنقع: ص 211.
⁴ أنظر المستنقع: ص 239.
⁵ أنظر المستنقع: ص 247.
⁶ المستنقع: ص 279.

سنموت، لماذا لأننا فقراء؟ ولكن الفقراء يريدون أن يعلموا أيضا، يريدون أن يعملوا ويأكلوا، وعندما لا يجدون العمل ولا الأكل فعندئذ يثورون¹.

القطاف:

نرى في رواية "القطاف" يواجه العمال الظلم من قبل صاحب الأراضي وهم لا يجدون الأجرة على حساب العمل الشاق:

- نعطي التسعة لناخذ الواحد

- وماذا في ذلك يا حبيبي؟

- ظلم..²

كما نرى سوء المعاملة من قبل أبي نعمة مع الفلاحين:

- لا أريد القعود في البيت. لكن العمل من الصباح الباكر إلى مغيب الشمس يهدّنا، إننا

نعمل جائعين، وليس على ظهورنا ثياب.

- هذا من كسلكم وقلة تدبيركم ، أنتم، كما أعرف، كما هو الواقع، خنازير..

وتحتج امرأة أخرى قائلة:

¹ أنظر المستنقع: ص 328.

² القطاف: ص 78.

- ويلي كيف تقول هذا؟ كيف تشبهنا بالخنازير.. نحن بشر.. من بني آدم.
- أنتم من البهائم..
- حتى البهائم عندها ما تأكله.. أما نحن..
- ويقاطعها ساخرا:
- ماذا أنتم ؟ ألا تأكلون وتشربون؟ ومن فضل من هذا؟ أليس من فضل السيد .. هيا.
- غيبي عن وجهي..

وتعود المرأة الأولى إلى الكلام قائلة:

- ما نقوم به تعجز عنه البهيمة.. وبعد كل تعبنا تشتمنا.. ثم تعتدي علينا وقبانك هذا غير مضبوط..
- يا بنت الكلب.. هكذا يتكلمون مع الوكيل.. تتهميني في ذمّتي.. لولا انشغالي لأشبعتك ضربا..
- ولماذا تضربيني.. أنا أدافع عن حقي، أتظلم من الحالة التي نحن فيها، من كثرة الشغل المفروض علينا. من شقائنا وتعاستنا.
- لو كان زوجك هو الذي يقول هذا الكلام.. لكان حسابي عسيرا.
- زوجي يشقى كما أشقى، أولادنا في شقاء أكبر، لا مدرسة لا حذاء، لا كساء وهم يعملون في الأرض منذ ولادتهم.. فماذا نفعل؟¹

¹ أنظر القطاف: ص 120.

- أنت تعرفين ما يجب أن تفعليه.. هذا شغلك .. أنا أعرف مايجري فقط.. تظنني لا أعرف حياة الفلاحين؟ أنتم كالدجاج، تنامون من المغرب¹.

- وماذا لدينا في الضيعة حتى نسهر يا أبو نعمة؟ تاترو؟ سينما؟ نحن نتعب النهار كله، ونأكل كسرة خبز في المساء وننام كالقتلى².

كما نرى سوء المعاملة مع فلاح صخر من قبل الدرك. مضى الدركيان بالفلاح صخر مقيد اليدين، مربوطا بحبل ثخين إلى سرج الفرس، وسارت وراءهم امرأة الفلاح وأولاده، وظل طفله الصغير يصرخ ويتمرغ في التراب. وحين ابتعد الموكب قليلا، لكز الدركي فرسه فانطلقت خبيا، واضطر الفلاح المربوط إليها إلى الركض بدوره³.

ولكن نرى الشجاعة عند الكلام مع المطعون.. "وما ينفع الهرب... الأفضل أن تدافع عن نفسك، أن تقول الحقيقة، والفلاحون يشهدون⁴.

كذلك نجد بأن دركيان يتهمان بدور بالسرقة وعندما الأب يساعدها يلقيان القبض عليهما⁵. ولكن "ماذا فعل هذا الرجل وما فعلت هذه المرأة؟ ماذنب هذين المخلوقين اللذين يسعيان وراء اللقمة؟.. بأي حق يقاد والدي وبدور إلى السجن؟ لقد دافعا عن نفسيهما ضد تهمة كاذبة. بدور لم تسرق، لكن الوكيل افترض أنها سارقة. تحرش بها لأنه يريد... والوالد وقف إلى جانب المرأة. قل إنها غير سارقة، قال إنها فلاح، وليس من الحق أن يتهم الفلاح بالسرقة لمجرد

¹ القطاف: ص 121.

² القطاف: ص 121.

³ القطاف: ص 147.

⁴ القطاف: ص 206.

⁵ أنظر القطاف: ص 225.

أنه فلاح... فكل رجل وكل امرأة، في دنيا الإقطاع هذه، تحمل وتحملت العسف والجوار، حتى أصبحت ممزوجة بلقمة الخبز وشربة الماء"¹. كما نرى مقاومة العمال من يعمل في المذبح من الذبح يأكل.. إنه يعمل في الزيتون، وأخذ حفنة منه لأولاده، فماذا حدث؟ لقد تصرف بحقه.

- وما رأيك لو ادّعى الجميع مثل هذا الحق.. ماذا يحدث عندئذ؟

- لا شيء... نحن النواظير نأكل من الزيتون، هذا حقنا..

- ولكن الزيتون أمانة في عنقنا.. ألا تعرف ذلك؟ الا تحس به؟

- بين الحق والأمانة فارق واضح.

- صاح مهتاجا:

- وما هو؟

- فارق ما نستحق وما نأخذ².

وكذلك الأخت تواجه الوكيل حين يستعمل الكلام غير ملائم

...وما هي هذه اللغة؟

- العصا..

¹ أنظر القطاف: ص 331-332

² أنظر القطاف: ص 226.

- ألا تخشى أن ينتقموا منك؟ الظلم يولد الرغبة بالانتقام.. إذا جرت على الجبان صيرته شجاعا، وهؤلاء الفلاحون ليسوا جبنا¹.

كما يقول الأب عن تجربته وشجاعته: لا أخاف الحياة.. مرات عديدة رأيت الموت بعيني. في برّ الأناضول، رفضت خدمة العثمانيين. رفضت السخرة والقهر وسوء المعاملة. هربت من العسكرية. كنت أهرب كما سنحت لي الفرصة. ما أكاد أعود إلى الخدمة حتى أفر منها. الأتراك أعداء للعرب. لهذا رفضت خدمتهم².

المصاييح الزرق:

فارس بطل الرواية يواجه البطالة بسبب الحرب، لأن صاحب المتجر مطلوب إلى الحرب³. ووالد فارس معمار كرّس حياته في تشييد البيوت دون أن يتمكن من تشييد بيت لنفسه⁴. وكان جريس المختار ذنبا وحملا في وقت واحد. يستطيع، عند اللزوم، أن يعكر الماء ويتهم سواه بتعكيرها⁵. جوابه المفضل هو: "الظروف استثنائية" ورشيد أفندي: كان العمال يكرهونه ويتحاشونه في آن واحد وقد يسثتمونه، إلا أن ذلك لم يمنعه من إيذائهم بكل وسيلة لديه⁶. زنوبة تواجه الظلم من صاحب الأرض⁷. أما عبد القادر فيفضّل الموت على رؤية وجه

¹ أنظر القطاف: ص 284.

² أنظر القطاف: ص 325.

³ المصاييح الزرق: ص 19.

⁴ أنظر المصاييح الزرق: ص 68.

⁵ المصاييح الزرق: ص 69.

⁶ أنظر المصاييح الزرق: ص 118.

⁷ أنظر المصاييح الزرق: ص 119.

الفرنسي: الموت أشرف من رؤية وجهك يا نذل¹. وكذلك يقاوم الأب ظلم فرنسا: "تذكر أن موت والدي ليس بالمسألة التي تستحق الاهتمام، لكن إعدامه موضوع آخر، في حالة كهذه لا بد من الانتقام². يقومون بالإضراب بقيادة محمد حلبي: "اللحم لن يباع غدا أنا لن أفتح، ولن أفتح السوق كله. إضراب، كل الناس سيضربون وسنرتدي "البيجامات" تحت الثياب³. وهم يطالبون: "الموت ولا فرنسا"⁴.

الثلج يأتي من النافذة

نجد في هذه الرواية الوعي النقابي فإن المناضلين كانوا يقرأون الكراريس الممنوعة في مغادرة بعيدة في الجبل، فالتمس فياض بطل الرواية أيضا لفعل نفس الشيء في الخفاء. فعلم أشياء كثيرة عن النضال ونقش في ذهنه لوحة غريبة ومثيرة إلى درجة أنه كان يراها مرسومة على كتبه وجدران المدرسة والبيت⁵. أما خليل فهو يقاوم لحقوق العمال: أربع ليرات في اليوم، وعطلة يوم الأحد الأعياد محسومة، ولا مأذونية أو طبابة .. ومنذ عام و هم يماطلون .. يرفضون تثبيتنا .. يخدعوننا .. يقولون: غدا، وبعد غد، وبعد شهر، .. والنتيجة!؟⁶ فيقوم بالإضراب: " نأمل أن ينجح الإضراب، وحتى لو لم ينجح فلن نخسر شيئا.. أربع ليرات بدون اجازات أو ضمان، وبدون تثبيت، أجر لا يكفي لعام وحده، فكيف يصنع بعائلته؟⁷، في حين أم

(1) أنظر المصاييح الزرق: ص 130.

(2) أنظر المصاييح الزرق: ص 136.

(3) أنظر المصاييح الزرق: ص 141.

(4) أنظر المصاييح الزرق: ص 141.

(5) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 45-46.

(6) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 50.

(7) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 222.

بشير شجاعة في دورها "قبل عشرين سنة.. نعم قبل عشرين سنة.. مشيت على رأس النساء في مظاهرة عمال الريجي.. كنت أحمل العلم.. وهاجمنا الدرك.. فماذا فعلت؟ تراجعته؟ خفق؟ لا والله.. مشيت لقدام.. ولما بدأ الضرب ضربت.. وجرحته، فحملني العمال على الأكتاف.. ولاحتقني البوليس فاخترت مثل فياض الآن¹. نلت حقي وزيادة.. التعويض و 8 ساعات عمل في اليوم².

كما نرى فياض يعمل نهارا لكسب العيش ويكتب ليلا ضد الحكومة ويشارك في عملية نقابية لأجل ذلك أعتقل: "صحيفة ذات نفوذ" وعنها أخذت بقية الصحف، صورة الرجل الذي ضبط مع المطبعة والمنشورات ظن بشعره الطويل، ولحيته السوداء، ويديه المقيدتين بالحديد، وأعدت نشر صور القبو والمنشورات والمقبرة، وزادت عليها صورة المطبعة المنشورات، وبعضها نشر عناوين المنشورات بالزنكوغراف، مع تفاصيل جديدة، غاية في الإثارة، واكتفى، لسلامة التحقيق، بذكر اسم المعتقل (فياض..)³. إذا لم يخف الإنسان الموت أصبح كل كل شيء سهلا عليه⁴.

الباطر:

زكريا المرسنلى يواجه البطالة بعد الفرار من القرية على الرغم من أنه كان شجاعا الذي ربط الحوت ولكن مدينته نسته. فهو لا يحصل على شيء إلا السمك الذي يعطيه البحر السخي فلا

¹ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 102.

² أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 219.

³ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 248.

⁴ الثلج يأتي من النافذة: ص 358.

يستطيع إكمال ضروريات حبيبته شكيبية لأن ليس لديه أرض ولا مال ولا مهنة وهو يعيش في الغابة. والحوت هنا رمز للاحتلال الفرنسي الذي خرّب الميناء والمدينة فقاومه المرسلني وظهر شجاعته. وعندما كان في الغابة ظهر الحوت من جديد ولكن الصيادين ليسوا حقيقيين يفرون من الحوت خوفا منهم. فيتعجب المرسلني بفرارهم بدون مقابلة ويحث الآخرين على المقاومة التي يشير الي هذا الجانب ختام الرواية " سرت على طول الشاطئ. ببطء أولا، ثم بعجلة، ثم ركضت، وضاعفت ركضتي، وسمعت بعضهم ينادني.. ثم تبعني واحد منهم، وتبعني آخر، وآخر.. وركضنا جميعا باتجاه الميناء¹.

حكاية بحار: لا أحد يخاف.. الشجاع نفسه يخاف.. لكنه يقاوم.. هذا هو الفرق.. قاوموا أينما كنتم.. هذا ما علمتني إياه الحياة.. يقول صالح² كان شجاعا.. وكانت قوّته الجبارة في العمل، حين يستنفر أعصابه، ويمسك بكيس القمح زنة مئة كيلو، فيرفعه بين يديه ويضعه فوق صفوف الأكياس في عنبر المركب، أو على الرصيف المرفأ مضربا للمثل³. ويقولون " النساء لا تلد مثل صالح"⁴. وهو يقول: " الإنسان حين يصير في قلب الخطر، يسيطر الخوف⁵. عندما صادف أن أحد العمال أصيب بعطل في رجله، وأصبح بحاجة إلى إسعاف وراحة، إلا أن المتعهد (رأفت أفندي) رفض ذلك، وأرغمه على مواصلة الشغل، أو التسريح.

¹ أنظر ختام الرواية "الياطر" خاصة ص 296.

² أنظر حكاية بحار: ص 145.

³ أنظر حكاية بحار: ص 152.

⁴ أنظر حكاية بحار: ص 161.

⁵ أنظر حكاية بحار: ص 169.

ولما احتج العامل انتهره، وهدده بالضرب، فتدخل عامل آخر من زملائه، وعندئذ تجمع أزام المتعهد مع الأتراك، وراحوا يشتمون العمال العرب، وصاح المتعهد في وجه العامل الذي ناصر زميله: "بس"- قذر- هجم عليه بالعصا¹.

صالح قتل حارس في السكة الحديدية . وقتل خفيران في الميناء. وسمعت ذات صباح أن ضابطا فرنسيا لقي مصرعه. وهم المناضلون وأن الموت لن يوقفهم عن انتزاع لقمة أطفالهم من أشدائه². يقول صالح: "قوموا معي، وجدت حلا لمشكلتنا. لن نموت ونحن مكتفوا الأيدي.. الجائع يقتل أو يُقتل، وكله سواء.. الحياة تجعل الانسان ذئبا.. وهذا أفضل.. أن نكون ذئابا ونرمي بالرصاص خير من أن يبقى جياعا كالكلاب، يهرون علينا بالعصي"³. "ليس المهم ألا نخاف، المهم أن نقاوم الخوف. ليس المهم ألا نتعب. المهم أن نقاوم التعب"⁴. العناد في الصراع ضروري، الإنسان أقوى الكائنات " عليه أن يغوص. يقاوم حتى النفس الأخيرة"⁵.

¹ أنظر حكاية بحار: ص 203-205.

² أنظر حكاية بحار: ص 270-271.

³ أنظر حكاية بحار: ص 291.

⁴ أنظر حكاية بحار: ص 243.

⁵ أنظر حكاية بحار: ص 347.

الباب الثالث

القضايا السياسية في روايات حنا مينة

- الفصل الأول: القضايا السياسية في رواياته: دراسة عامة
- الفصل الثاني: تحليل القضايا السياسية في رواياته

الفصل الأول

القضايا السياسية في رواياته: دراسة عامة

توجد السياسة في كل الناس على الرغم من يدعى أنه لا علاقة له بالسياسية. فالإنسان يعيش في أي مجتمع كان وهو يرتبط بالسياسية مهما كان شكله بوعي وبدون وعي. فكل فكرة اجتماعية هي ذات علاقة برؤية سياسية للعالم. فقبل الدراسة للقضايا السياسية في روايات حنا مينة يجدر بنا أن نتعرف على أهم القضايا التي عالجتها روايات حنا مينة، ومن أهمها: الأستعمار، والحرب، والسلطة، والتنظيم السياسي، والثورة، والقومية والوحدة العربية. فنفسّل القول بكل منها بقدر يسير من التفصيل.

الحضور الأجنبي: الاستعمار:

عند دراسة روايات حنا مينة نجد بأنه يناقش مسألة الحضور الأجنبي بداية من روايته الأولى "المصاييح الزرق" حيث يحدث فيها من خلال حديثه عن الانتداب الفرنسي ويعتبره نوعاً من أنواع الاستعمار. فنرى بأن الانتداب الفرنسي أنشأ طبقة اجتماعية سمحت بفعل كل ما يريده من السيطرة ونهب خيرات الوطن. ولكنها لم تؤثر على المطالبة الشعبية في الاستقلال التي عادت إلى حدتها حالما انتهت الحرب كما تصف رواية المصاييح الزرق هذه الظاهرة "فقد شغل كل بأمرة وشغل الجميع بأمر واحد: إخراج الفرنسيين"⁽¹⁾. وفي رواية "الشراع

⁽¹⁾ حنا مينة المصاييح الزرق، ص: 302

والعاصفة" تمثل السياسة بين الحركة الوطنية والسلطة الاستعمارية الفرنسية. ففي بداية الحرب سعت السلطة الفرنسية إلى تعميم الخلاف بين السوريين وتوطيد الحكم المحلي فأصبحت اللاذقية "دولة مستقلة"⁽¹⁾.

ولكن نتائج الحرب أثّرت على علاقة فرنسا مع سورية. وقد وعد الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة بتجريد المرشد من وظائفه وبتطبيق المعاهدة وكذلك إعداد عودة السلطة الوطنية⁽²⁾، وبذلك سعت الكتلة الوطنية إلى تقليص تناقضاتها الأساسية مع الحضور الأجنبي ودعت إلى التعاون مع الحلفاء في حربهم مع المحور. ولكن المستعمر عمّق من جديد الخلافات بين الوطنيين حتى قاوموا اليسار استعداداً لمشروع الوحدة⁽³⁾، لكن هذه المحاولة لم تأت بثمرة وتيقن الوطنيون أن بلداً بدون جيش لا يمكن له أن يقاوم، ولا بد من التعاون من أجل مقاومة الحضور الاستعماري⁽⁴⁾.

الحرب:

ومن أهم القضايا التي تعالجها روايات حنا مينة هي الحرب، ولكن الحرب العالمية الثانية والحرب العربية الإسرائيلية سنة 1973 تحتلان مكانة متميزة فيها. فنجد في "المرصد" يقدم

⁽¹⁾ أنظر الشراع والعاصفة، ص: 129

⁽²⁾ أنظر الشراع والعاصفة، ص: 130

⁽³⁾ أنظر الشراع والعاصفة، ص: 138

⁽⁴⁾ أنظر الشراع والعاصفة، ص: 297

حنا مينة "مجتمعا منفعلا بالحرب لا فاعلا فيها موضوعا للتاريخ لا محركا له. شأنه في ذلك شأن جلّ الروائيين العرب"⁽¹⁾.

ففي مجتمع يعيش الخوف ويطلّى مصابحه باللون الأزرق تغرق المدينة في صمت عميق "وصفير الحرّاس قد اشتد، ومن على الأرصفة يسمع وقع الخطى خلال الظلام في سير خائف مسرع إلى البيوت"⁽²⁾.

وهكذا تضع الحرب حدا للحياة الشعبية السعيدة "و غابت البسمات مخلفة جهمة كئيبة ونامت البلدة على هم وظلام"⁽³⁾ ورغم اللامبالاة التي يمارسها بعض سكان المدينة و"حين يعود أبو فارس إلى مواويله يعودون هم إلى ميغاناهم وتثب دون مقدمات الحاجة إلى الرقص وعندئذ فحسب يتعالى الضحك ويشتد التصفيق"⁽⁴⁾.

هنا تظهر إيدولوجية حنا مينة يعبر عنها بطل الرواية فارس، فهو يميز بين الحرب العادلة والحرب الظالمة فالأولى هي حرب تحريرية مثل الحرب السورية التي تهدف إلى تحرير الوطن.

وفي "الشراع والعاصفة" تبدو الحرب سبب تردّي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أيضا. فقد استطاعت أن تقسم البوجوزية الصغرى إذ ساند فيصل منها ألمانيا أمثالاً للنظرية القائلة: "صديقك هو عدوّك"، وتحمّس فيصل آخر لمساندة الحلفاء، والاتحاد

⁽¹⁾ عالم حنا مينة الروائي، ص: 21

⁽²⁾ المصاييح الزرق، ص: 22

⁽³⁾ لمصدر نفسه، ص: 38

⁽⁴⁾ المصدر نفسه، ص: 36

السوفياتي بصفة أخصّ. ولكن هذا الاختلاف في تقويم الحرب ساهم في تجذير الحركة الوطنية التي هيأتها الظروف العالمية الجديدة للمطالبة بالاستقلال⁽¹⁾.

ولكن الحرب العربية الاسرائيلية هي التي أثارت اهتمام الكاتب بصفة أخصّ، فرواية "المرصد" هي سر للوقائع العسكرية المتعلقة بتحرير المرصد ولكنها أيضا تأملات عميقة في حرب أكتوبر 1973. فالمؤلف في هذه الرواية يدافع عن حرب جوان 1967 وينقد الأوضاع السياسية التي أدت إلى الهزيمة. فالجندي السوري لم يحارب في هذه المعركة ولكنه سيحارب فعلا لأن الخيبة لن تتكرّر⁽²⁾.

وفي هذه المعركة أيضا يؤرّخ الكاتب للأوضاع السياسية العامة في سورية فيشير إلى الحضور الفرنسي والدور الذي لعبته فرنسا في تاريخ سورية الحديث، كما يشير أيضا إشارة طفيفة إلى الأمبريالية العالمية وإسرائيل باعتبارهما قوتين تشكلان خطرا على سورية. فوجود إسرائيل مرتهن بالمساندة اللامشروطة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية التي تسرّع دائما لإنقاذها من الخندق⁽³⁾. ولكن العدو الحقيقي لسورية ذو وجوه ثلاثة هي إسرائيل والأمبريالية والرجعية العربية التي تحافظ على الانقسام وترفض الوحدة. ثم يستنتج في النهاية أن أزمة العرب هي أزمة نفسية سياسية لا أزمة اجتماعية⁽⁴⁾. وإذا كانت أسباب هزيمة العرب في جوان 1967 متنوعة (سوء تقويم لقوة العدو الحقيقية، الغرور، البطولة الكاذبة، سوء استعمال

⁽¹⁾ أنظر الشراع والعاصفة، ص: 127-128

⁽²⁾ أنظر المرصد، ص: 12

⁽³⁾ المرصد، ص: 219

⁽⁴⁾ المرصد، ص: 31

السلاح⁽¹⁾ فإن حرب أكتوبر تبدو حرباً تحريرية وثورة شعبية حققت المعجزة⁽²⁾. لقد أكد حنا مينة في تحليله للحرب على البعد السلمي للمقاتل العربي، فهو محرر وثورى ولكنه مسالم لا يحب القتل. كما ألح أيضاً على البعد الشعبي لهذه الحرب، فالجنود هم في الأصل عمال وفلاحون ومتقنون⁽³⁾. ثم أقيمت وراء خط القتال جبهة شعبية لمساعدة الجيش في معركته ساهمت فيها كل الشرائع الاجتماعية. فالفلاحون سلّموا محاصيلهم الزراعية للمستشفيات وتبرّع العمال بساعات إضافية، وهكذا ظل الجيش متواصلاً مع الحياة الاجتماعية في العاصمة، فرباب تراسل زوجها على الجبهة وتصف له الحياة في دمشق⁽⁴⁾. وعلى الجبهة خلقت حرب أكتوبر عقلية جديدة ولدت معاني الإخاء والديمقراطية والمصادقية في صياغة البلاغات العسكرية. وهكذا يمجّد حنا مينة في هذه الرواية المقاتل السوري حرب أكتوبر بصفة عامة لأنها حرب عادلة وحرب قضية. وفي نفس السياق ينقد النظام المصري الذي كان متفقاً مع الولايات المتحدة الأمريكية على أهداف الحرب. فقد كان السياسيون المصريون يريدون الإثارة لا التحرير⁽⁵⁾. على الرغم من ذلك يمجّد الكاتب من ناحية أخرى الجيش الثالث المصري ويصف بطولاته ويتحامل على النظام المصري الذي كبت المواطن وقيد حريته⁽⁶⁾.

⁽¹⁾ المرصد، ص: 107

⁽²⁾ المرصد، ص: 226

⁽³⁾ المرصد، ص: 68

⁽⁴⁾ المرصد، ص: 141

⁽⁵⁾ المرصد، ص: 330

⁽⁶⁾ المرصد، ص: 341

فإذا نناقش أيديولوجية الكاتب في هذا التحليل لحرب أكتوبر، نجد بأن الكاتب يستعمل في رواية "المرصد" مصطلح "إسرائيل" للحديث عن العدو إلى جانب استعماله لمصطلح "الصهيونية" فهل هذا يعني أنه يعترف بدولة إسرائيل باعتبارها كيانا سياسيا شرعيا في الشرق الأوسط؟

تصعب الإجابة عن هذا السؤال نظرا لتعدد المسألة: فباستثناء ملاحظة عابرة تؤكد على أهمية الحرب الطويلة الأمد باعتبار الوسيلة الوحيدة للقضاء على إسرائيل اقتصاديا وعسكريا⁽¹⁾ يقدم الكاتب حرب أكتوبر على أنها حرب تحريرية كما سبق ذكرها. فالوقائع العسكرية تجري على جزء من الأرض السورية المحتلة منذ سنة 1967 بالإضافة إلى أن القضية الفلسطينية لم يثرها الكاتب بصفة عامة إلا إثارة سطحية. ثم يلاحظ الناقد أيضا أن طبيعة تحليل الحرب تقترب كثيرا من الرؤية الرسمية لطبيعة العلاقة بين النظام الحاكم والدولة العبرية، كما يلاحظ أيضا أن الكاتب يستعمل في أغلب الأحيان مصطلح "عربي" عوضا عن مصطلح "سوري" وهي ملاحظة ذات أهمية قصوى، إذ حنا مينة في أعماله السابقة كان يستعمل دائما كلمة "وطن" بالمعنى الضيق للكلمة، ذلك أن مفهومه للوطنية لا يتعدى الانتماء إلى سورية باعتبارها دولة مستقلة وقائمة بذاتها. وهذا يعني أن كاتب الكفاح والفرح بدأ يتبنى بعض شعارات نظام حزب البعث الاشتراكي العربي ومن بينها شعار الوحدة العربية. ولكن هذه الملاحظة ذاتها تثير إشكالية تتعلق بتطور أيديولوجية الكاتب وهو الذي طاردته السلطات الوحديّة سنة 1958 لأفكاره الشيوعية.

⁽¹⁾ المرصد، ص: 258

السلطة:

تحمل السلطة وطبيعة السياسة دلالة خاصة في أعمال حنا مينة الروائية. إن "الرأس" هو المسؤول وهو سبب المصيبة⁽¹⁾، وإنه لموقف مبدئي يؤكد مكانة السلطة في تفكير حنا مينة. فلقد تابع تطور النظام السياسي في سورية منذ الانتداب الفرنسي إلى بداية السبعينات. ولقد قامت الحركة الوطنية في منظور حنا مينة على تحالف سياسي تمثل الإقطاعية فيه عنصرا لا يخلو من أهمية، وقد كانت العلاقة بين العائلات الإقطاعية والحكومة قائمة في أغلب الأحيان، ولكن حالما تدرك هذه العائلات أن مصلحتها أصبحت في الميزان تتحول إلى جبهة معارضة⁽²⁾. وهكذا تساند الحركة الوطنية لكنها تشترط توجيهها، وهو بذلك يشير إلى الكتلة الوطنية التي وصلت إلى الحكم على حساب "الكتلة الشعبية".

وبعد الحصول على الاستقلال ظل النظام موزعا بين السلطات الثلاث: فرنسا وبريطانيا والحكومة الوطنية التي لا تمثل إلا سلطة شكلية⁽³⁾، لكن الخلافات السيادية داخل الحكومة نشطت المعارضة البرلمانية والشعبية⁽⁴⁾، وأتاحت للكتلة الشعبية الوصول إلى الحكم. فتواصلت الاحتجاجات على فساد الإدارة وبذلك تأكد أن الكتلتين المتصارعتين على الحكم وجهان لعملة واحدة⁽⁵⁾. ففي "بطاقة توصية" ينقد فساد النظام البرلماني ويحمله مسؤولية تدهور الأوضاع الاجتماعية. وهو يتخذ نفس الموقف في رواية "الثلج يأتي من النافذة" حيث

⁽¹⁾ المرصد، ص: 9

⁽²⁾ الشراع والعاصفة، ص: 23

⁽³⁾ الشراع والعاصفة، ص: 58

⁽⁴⁾ الشراع والعاصفة، ص: 58

⁽⁵⁾ الشراع والعاصفة، ص: 237

يبدو النظام البرلماني معاديا للحركة التقدمية، ولكنه يشير أيضا إلى الاستبداد العسكري في عهد حسني الزعيم ويفسر الأسباب التي أدت إلى وصوله إلى الحكم فيلاحظ أن المسألة هي من باب ردّ الفعل على الخيبة السياسية التي لحقت بالأنظمة العربية في صراعها مع الصهيونية⁽¹⁾، ولكن هذا الموقف من الأنظمة السورية لم يتغير فالكاتب يعتبر النظام السياسي "لعبة العرش والحكام". وفي رواية المرصد يصف الحكام العرب بأنهم ديكة غير قادرة على القتال ويعتبرهم مسؤولين عن المصيبة الفلسطينية⁽²⁾. ولكنه في نفس الرواية يمدح نظام البعث ويصف إنجازاته كنضاله من أجل السلطة الوطنية ورفضه للانقسام وسعيه إلى الإصلاح الزراعي وغيرها من الإنجازات.

والنتيجة التي نستخلصها في النهاية هي أن أزمة المجتمع العربي ليست أزمة اجتماعية بل أزمة سلطة سياسية. إنها أزمة الأنظمة السياسية الحاكمة.

التنظيم السياسي:

لا تبدو صورة التنظيم السياسي واضحة في آثار حنا مينة، فإذا كان الكاتب يستعمل أسلوبا مباشرا في تحليله السياسي للانتداب الفرنسي فإنه يميل إلى الإيحاء كلما تحدّث عن الأوضاع السياسية بعد الاستقلال. وعلى هذا النحو فهو يذكر مرّات عديدة الكتلتين الوطنية الشعبية في روايته "الشراع والعاصفة" و"الثلاثية".

⁽¹⁾ الأبنوسة البيضاء، ص: 175

⁽²⁾ أنظر المرصد، ص: 9

لقد نشأت الكتلة الوطنية سنة 1927 في سورية، ولعبت دورا تاريخيا هاما بين سنتي 1928 و 1948 وهي تنظيم سياسي يقوم أساسا على كبار الملاكين والبرجوازية التجارية والصناعية وبعض المثقفين. ولكن الكاتب يقدم هذا الحزب السياسي في صورة تنظيم يميني، فأبو رشيد على سبيل المثال، وهو الرجل القوي في ميناء اللاذقية، يستمد نفوذه من الأسر الإقطاعية في المدينة لمجابهة كل حركة اجتماعية تسعى إلى تحسين أوضاع العمال وبالتالي تحديث علاقات الإنتاج. وأما الكتلة الشعبية فإنها في منظور حنا مينة تجمّع إقطاعي بورجوازي عارض الكتلة الوطنية ثم تحول إلى حزب سياسي فيما بعد⁽¹⁾. وعلى هذا النحو فإن مرتكزاته الشعبية لا تختلف كثيرا حسب الكاتب عن مرتكزات الكتلة الوطنية، (فنديم مظهر، أحد أعضاء هذا الحزب، هو تاجر كبير في المدينة) وقد حاول الاستفادة من الحركة العمالية للوصول إلى الحكم⁽²⁾. ولكن الكاتب من خلال موقف بطله الطروسي يعتبر الحزب أثناء الحرب وبعدها حزبا تقدميا⁽³⁾. ومع ذلك فإنه في الرواية ذاتها، ينقد النظام البرلماني ويعتبر الحزبين وجهين لعملة واحدة⁽⁴⁾. المؤلف لم يتحدث في رواياته كثيرا عن أحزاب المعارضة، على الرغم من أن الأستاذ كامل في "الشراع والعاصفة"، من أنصار الاتحاد السوفيياتي لا يبدو التزامه السياسي واضحا، وكذلك الحزب السياسي الذي ينتمي إليه. وفي "المستنقع" يبدو فايز الشعلة من أنصار الاتحاد للسوفيياتي، يروج أفكار لينين دون إشارة من السارد إلى انتمائه التنظيمي والحزبي. وكذلك الشأن بالنسبة إلى شخصية إبراهيم في "علبة التبغ" فهو مناضل يطارده

⁽¹⁾ الشراع والعاصفة، ص: 152

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص: 153

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص: 287

⁽⁴⁾ المرفأ البعيد، ص: 144

حسني الزعيم ولكن السارد لا يحدد إنتمائه السياسية تحديدا واضحا، شأنه في ذلك شأن شخصية فياض في "الثلج يأتي من النافذة". وما نلاحظ هو أن حنا منية لأول مرة في "المرفأ البعيد" يذكر حزب العمال والفلاحين⁽¹⁾ الذي يناضل من أجل "وطن وشعب سيعد"⁽²⁾. ومع ذلك فإن حنا مينة يمجّد هؤلاء الشخصوس الروائيين، ذلك أن المثقف اليساري، على الرغم من أنه شخصية ثانوية في كثير من الأحيان، مناضل كبير يفهم الواقع ويسعى إلى تغييره ويضحّي من أجل أفكاره واختياراته السياسية. فلا شك إذن أن الكاتب يستحضر المناضلين الشيوعيين ومن خلالهم يمجّد حزبهم الذي يبدو دائما في مقدمة النضال الاجتماعي والسياسي في أكثر المراحل التاريخية توترا.

الثورة:

إن ما نعنيه بالثورة هو كل رغبة في التغيير الاجتماعي مهما كانت طبيعته. ولذلك نطرح السؤال التالي: كيف ينظر حنا مينة إلى التغييرات الاجتماعية في سورية منذ الاستقلال؟ إن كل حركة شعبية ترمي إلى التغيير الاجتماعي هي حركة تقدمية بطبيعتها، فالناس يشتغلون هنا في هذه المملكة على الأرض ولا بد من وقف الظلم النازل بهم، في هذه المملكة بالذات⁽³⁾. ونتيجة لذلك فإن السكان وهم يقاومون الانتداب الفرنسي في ما بين الحربين

⁽¹⁾ المرفأ البعيد، ص: 144
⁽²⁾ المصدر نفسه، ص: 154
⁽³⁾ هواجس، ص: 62

يلورون الأفكار الوطنية والتقدمية⁽¹⁾. فقد عانقت الحركة الوطنية من جهة نظر حنا مينة كل الشرائح الاجتماعية من أجل غاية واحدة ومشاركة هي تحقيق الاستقلال السياسي. فالبرجوازية الوطنية أدت وظيفتها التاريخية وعلى هذا الأساس أدى نديم مظهر في رواية "الشراع والعاصفة" دوره البرجوازي. فنضاله كان من أجله قضية تقدمية. يقول الكاتب "إن نديم مظهر، على ما فيه من جبروت وعلى أنه ابن عائلة غنية مرهوبة الجانب، كان فيما يتعلق بالوطن قادرا ومستعدا في كل لحظة أن يقاتل ضد القروش والذئاب المعتدية. وقد قاتل ومات في الواقع لأجل قضية خاصة عامة، كانت في وقتها عام 1947 تعتبر قضية تقدمية⁽²⁾."

إن الشعور الوطني رغم الفساد، يغذي دائما الجماهير الشعبية (أبو الوفق يعيش مركبا لأنه لم يشارك في النضال الوطني). ذلك ما يميز إذن مرحلة الثورة الديمقراطية كما يراها حنا مينة، وهي ثورة تحرر وطني ومرحلة نضال من أجل الحرية الديمقراطية لا تنظر إلى الاشتراكية إلا باعتبارها حلما كبيرا⁽³⁾ (يساند قاسم العبد الكتلة ضد فرنسا لأنه واع بطبيعة المرحلة التاريخية) كما يرمي العمل السياسي في هذه المرحلة إلى هدفين أساسيين: مقاومة النازية والنضال من أجل الاستقلال⁽⁴⁾. ومع ذلك فالإصلاحات ضرورية، إذ لا بد من إصلاح المجتمع ومراعاة دور الرأسمالية الوطنية وحرية الصحافة والتنظيم السياسي والنقابي⁽⁵⁾.

⁽¹⁾ أنظر أبو خضّور، ص: 226

⁽²⁾ هواجس، ص: 86

⁽³⁾ الطريق الجديد، 1984/11/30

⁽⁴⁾ الشراع والعاصفة، ص: 131

⁽⁵⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 200

وهكذا يلحّ حنا مينة على دور البورجوازية الصغرى في الحركة الوطنية. إن كل المثقفين في روايات حنا مينة يجسمون بعملهم الثوري هذه الرغبة الحادة في التغيير (الفتى الراقص في رواية الشمس في يوم غائم، رغم كونه ابن الإقطاعية، يعتبره النقاد ممثلاً للبورجوازية الصغرى الصاعدة في ما بين الحربين⁽¹⁾). فهذه الحركة الاجتماعية التي تعيش تناقضاً حاداً تعمل من أجل الوصول إلى السلطة، وهي تمثل جيلاً جديداً مثقفاً وواعياً بالتحوّلات التي يمر بها المجتمع (قلق الأخت- رغبة ابنة العم في مصاحبة الفتى إلى الخياط لكي ترقص ومحاولة التصالح في رواية الشمس في يوم غائم). وفي "الثلاثية" يواصل حنا تحليله السياسي، وذلك بمحاكمة الإنجازات الإقطاعية والسياسية في القطر. فلئن آمن بمنطق التاريخ وفلسفته ووثق بالشعوب ونضالهم فهو يعتقد أن هناك خطأ ما، في مكان ما، ولا بد من إصلاحه⁽²⁾. وفي "رسالة من أمي" يتساءل حنا مينة عن نتيجة صراع طويل أرهق البلد (العثمانيون، الفرنسيون، اليهود) ويصوغ نفس التساؤل في المرفأ البعيد: "هل تحقق ذلك النضال الطويل الذي ذهب قاسم ضحيته وكيف تحقق أو من حققه؟"⁽³⁾ وهو بذلك يشير إلى صعود طبقة من الأثرياء على حساب الطبقة العاملة⁽⁴⁾ عرّضت البلد إلى مجموعة من الأخطار (الرجعية الأمبريالية- الصهيونية) تهدد المجتمع الحديث⁽⁵⁾ وشككت في إنجازاته الوطنية كالإصلاح الفلاحي، تأميم الشركات "والأشياء الأخرى". وهكذا دعمت البيروقراطية ويستعد كبار

⁽¹⁾ أنظر عبد الرزاق عيد والخطيب، ص: 77

⁽²⁾ المرفأ البعيد، ص: 362

⁽³⁾ المرفأ البعيد، ص: 348

⁽⁴⁾ أنظر حكاية بحار، ص: 65

⁽⁵⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 391

الفلاحين إلى العودة من النافذة ويطلبون الاستعانة بالأمبرالية الأمريكية⁽¹⁾ وهكذا يتضح لنا أن حنا مينة يرى أن ما حدث في المجتمع من تغيير لم يوجد حلاً لمعضلات المجتمع السوري. لقد انتهت المغامرة الاجتماعية الكبرى التي قام بها سعيد حزّوم في الثلاثية بفشل ذريع وبغزلة قاسية إذ يعرض حنا مينة في هذه الرواية مجتمعا خائبا يمر بثورة أجهضت. لقد قطعت أغصان الشجرة ولكن جذعها مازال قائما في الأرض. وهكذا يتبلور مفهوم الثورة الاجتماعية لدى حنا مينة إذ تحدد مصطلحات كالأرض، الشعب، المستقبل، الإنسانية، التقدم والوجود، معنى الوطن⁽²⁾. فهو انطلاقاً من المادية الجدلية التي يؤمن بها ينظر إلى تاريخ الثورة الاجتماعية وتطورها عبر موازين القوى التي تتحكم في المجتمع، فتاريخه هو في نهاية الأمر تاريخ صراع طبقي قي سيرورته نحو الاشتراكية؟

لقد أعلن حنا مينة عن عقيدته الاشتراكية منذ روايته الثانية "الشراع والعاصفة". فقد اعتقد الأستاذ كامل أن الاستقلال يفتك وأن الريح تهب من الشرق وتحمل خلاص الإنسانية⁽³⁾ وعلى النّضال بعد الاستقلال أن يتخذ توجهها آخر واختباراً آخر⁽⁴⁾. وإن إيمان الكاتب بالاشتراكية لا حدّ له فهي ليست مجرد اجتماعي وسياسي (كان) قائماً في نصف الكرة الأرضية بل هي إنجاز إيديولوجي بين أيدي كل شعوب العالم، ولكن أي اشتراكية هي؟

⁽¹⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 368/367

⁽²⁾ أنظر المرصد، ص: 44

⁽³⁾ أنظر فاروق عبد القادر، ص: 62

⁽⁴⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 364

لقد لاحظنا أن حنا مينة يدافع عن الاتحاد السوفياتي ويمجد ثورة أكتوبر ويدافع أيضا عن التجربة السوفياتية⁽¹⁾. ومن هذه المنطلقات يساند أيضا الإنجازات التي قام بها نظام البعث في سورية إذ يعتبرها مرحلة نحو تحقيق الاشتراكية الذي سيتم عبر تحالف البورجوازية الصغرى مع طبقة العمال في مواجهة الإقطاع والبورجوازية الكبرى⁽²⁾.

ولكن القضية الكبرى بالنسبة إلى حنا مينة تتمثل في مواجهة أخطار الامبرالية والصهيونية والبورجوازية الكبرى التي تستعيد قوّتها⁽³⁾. ولذلك لا بد من عرض كل شيء للشمس⁽⁴⁾. إنه الحل الممكن أي حل النظرية العلمية، و"لا بد من إتمام الخطوة"⁽⁵⁾، أي إسراع الخطو نحو الاشتراكية، وهذا لن يكون من وجهة نظر الكاتب إلا بتطور حركة التحرر العربي في علاقتها بصعود الأمبرالية العربية. ولتحقيق هذه الغاية يرفض حنا مينة حلّ العنف الثوري باعتباره أداة تغيير. لقد قدم فعلا في رواية "الشمس في يوم غائم" نمط الثوري الذي يؤمن بالعنف كوسيلة وحيدة لتجاوز التناقضات الاجتماعية وقدم تقريبا نفس الصورة في رواية الدقل (شخصية الأب، صالح حزّوم)، ولكن كل المثقفين في رواياته يحملون عقيدته، وهم لا ينفكون يدعون الأبطال إلى التعقل. فمعضلة بطل حنا مينة تكمن في قلة صبره فحتى فياض المثقف الكبير لم يدرك أنه لا بد من اعتبار عامل الزمن في الحركة الثورية. يقول الكاتب "مجتمعنا

⁽¹⁾ أنظر ، ناظم حكمت، السجن والمرأة، والحياة، ص: 25/24

⁽²⁾ أنظر المرفأ البعيد: ص: 394

⁽³⁾ المرفأ البعيد، ص: 391

⁽⁴⁾ أنظر المرصد، ص: 9

⁽⁵⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 372

العربي في حالة صراع، في حالة انتقال ولا بد من المواجهة والكفاح، وهذا الكفاح يحتاج إلى نفس طويل، إلى صبر"⁽¹⁾.

وهذا يعني أن التغيير الاجتماعي يجب أن يكون ديمقراطياً، ولذلك فهو ينقد الانقلابات العسكرية التي عرفتها سورية. ولاشك أن مشروع حنا مينة الاجتماعي هو إقامة مجتمع اشتراكي عادل يوفّر السعادة للعمال والفلاحين ولكن المجتمع الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي والمجر هو مثال المجتمع الاشتراكي العادل.

القومية والوحدة العربية:

إن قضايا القومية والوحدة العربية لم تثر اهتمام حنا مينة كثيراً. ففي "حكاية بدار" يتحدث الكاتب عن انفصال لواء اسكندرون ويصف مشاعر السوريين مستعملاً هذه العبارة "صارت العروبة في وقت مبكر يقظة قومية وفي سبيلها سقط ذلك اليوم قتلى وجرحى من الطرفين"⁽²⁾. وهو يصف المعارك بين سكان اللواء والأتراك بأنها معارك قومية وتحررية⁽³⁾ ويعتبر العروبة "الانعتاق من السيطرة التركية"⁽⁴⁾.

تطرح رواية "المرصد" مسألة القومية طرحاً أوضح. فالكاتب يربط بين الوحدة العربية والاستقلال السياسي والاقتصادي. وهو هذه المرة يستعمل مصطلح "الوطن العربي"⁽⁵⁾ ويرى

⁽¹⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 398

⁽²⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 204

⁽³⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 204

⁽⁴⁾ أنظر المرفأ البعيد، ص: 226

⁽⁵⁾ أنظر المرصد، ص: 150

ويرى أن دولة "الوحدة" هي السبيل إلى الاستقلال وأن التحرر هو السبيل إلى الوحدة⁽¹⁾. إذ إن هذه الدولة الموحدة ستضعف الإمكانيات العسكرية والاجتماعية والاقتصادية عند العرب وستضعف دولة إسرائيل التي لن تكون إلا قطرة في بحر⁽²⁾. وعندما يحلق الطيار السوري فوق مدينة بيروت يمتلكه إحساس عميق بالعروبة ويحس أنه يدافع عن هذه العاصمة وكل المدن السورية والعربية معا⁽³⁾. كذلك لم تلق القضية الفلسطينية اهتماما واسعا، ففي رواية المرصد يؤكد حنا مينة أن فلسطين هي أرض محتلة يجب تحريرها⁽⁴⁾. وما نستنتجه في النهاية هو أن القضايا الاجتماعية والسياسية طرحت في روايات حنا مينة في إطار وطني ضيق، ولا سيما في الأعمال الأولى. ولكن منذ رواية المرصد (1980) لاحظنا تغيرا في اتجاهات حنا مينة السياسية، وقد تأكدت وتبلورت في "الثلاثية" حيث يدعو حنا مينة إلى الوحدة العربية غاية ووسيلة في نفس الوقت. مع ذلك فإن فكرة أساسية يؤكد لها حنا مينة، وهي أن الشعب العربي عامة والسوري خاصة لا يمر بأزمة قيم بقدر ما يسعى إلى تحديد هويته. فالمجتمع السوري وهو يواجه الاستعمار التركي أو الفرنسي أو الصهيوني أو يواجه الرجعية والأمبرالية، وهو مجموعة بشرية تدافع عن ذاتها دائما، وتظل القضية في النهاية رهينة التخلف التاريخي الذي يعيش فيه العرب. كما نرى الخياط يقول هذه العبارة البليغة في "الشمس في يوم غائم": "نحن من صلصال مثل سائر الناس في سائر البلدان، من صلصال

⁽¹⁾ المرصد، ص: 241

⁽²⁾ المرصد، ص: 264

⁽³⁾ المرصد، ص: 235

⁽⁴⁾ المرصد، ص: 207

ولكن صلصالنا المفخور لم تنضحه النار جيدا، الفاخورة لا تنضج كل الخزف في كل فخرة تبقى، في جوانب الأتوان، فخارات غير ناضجات.."⁽¹⁾

وبهذا المعنى يتخذ البطل الإشكالي في روايات حنا مينة دلالة خاصة. إن التحليل الماركسي الذي يهيمن على فكر المؤلف يبدو أنضج في النصوص النظرية (بحوث، تصريحات)، فإن نكتب قصة سياسية لا يعني أننا رجال سياسة.

⁽¹⁾ الشمس في يوم غائم، ص: 65

الفصل الثاني

تحليل القضايا السياسية في رواياته

إن القضايا السياسية تتجلى في أكثر روايات حنا مينة، فالكاتب عاش حياة شاهد فيها كل الظروف الاجتماعية والسياسية القاسية من الأمية والظلم والفقر والبطالة والعطالة ومن نهب وسلب خيرات البلاد، وسوء الإدارة، فكما يرى حنا مينة بأن السياسة توجد في كل إنسان حتى من لا يعرفه. فنرى بأن حياة حنا مينة هي شاهدة على هذه الأحداث السياسية في سورية، وفي أية ظروف مرت سورية من الاحتلال الأجنبي باسم الانتداب وماذا حلّ بعد، من قتل ونهب والقبض على حرية الشعب والظلم على الفلاحين والفقراء والقضاء على الحرير السوري بواسطة الحرير الصادر من خارج البلاد. والحروب المتعددة، خاصة الحرب العالمية الثانية وحرب أكتوبر بين سورية و إسرائيل، ودور المناضلين لتحرير الوطن من الثورة والإضراب. ففي هذ الفصل نقوم بتحليل القضايا السياسية في رواياته.

الحضور الأجنبي: الاستعمار:

نجد الحضور الأجنبي منذ روايته الأولى "المصاييح الزرق" حيث يحدث فيها من خلال حديثه عن الانتداب الفرنسي ويعتبره نوعا من أنواع الاستعمار. فنرى بأن الانتداب الفرنسي أنشأ طبقة اجتماعية سمحت بفعل كل ما يريده من السيطرة ونهب خيرات الوطن. ولكنها لم تؤثر على المطالبة الشعبية في الاستقلال التي عادت إلى حذتها حالما انتهت الحرب كما تصف

رواية المصاييح الزرق هذه الظاهرة "فقد شغل كل بأمره وشغل الجميع بأمر واحد: إخراج الفرنسيين"⁽¹⁾.

وفي رواية "الشراع والعاصفة" تمثل السياسة بين الحركة الوطنية والسلطة الاستعمارية الفرنسية. ففي بداية الحرب سعت السلطة الفرنسية إلى تعميم الخلاف بين السوريين وتوطيد الحكم المحلي فأصبحت اللادقية "دولة مستقلة"⁽²⁾. فنري تعصب ابي حميد لهتلر اناسه مصلحته البلاد، أنظروا (واشار إلى الشارع حيث كان أربعة من حراس المرشد يسيرون بينادقهم وكوفياتهم التي عليها شعار الشمس، وأضاف): هؤلاء هم أعداؤنا، هل نسيتم ما فعلوا، هل نسيتم كما قتلوا وسلبوا وقطعوا الطرقات؟ لقد شجعت فرنسا المرشد على الانفصال، وجعلت من محافظة اللادقية دولة، ورتبت للمرشد الحرس والقضاء، وعينت محافظا يأتمر بأمره، فهل تريدون أن يستمر كل هذا؟⁽³⁾

- وكيف نتخلص من المرشد؟

- بعودة الحكم الوطن ورجوع الدستور مجلس النواب وتوحيد البلاد. لقد تعقد بهذا كله

الجنرال كاترو باسم فرنسا الحرة.

- ومن سمعت هذه الأخبار؟

- من الكبار

- علت أصوات الحاضرين.

⁽¹⁾ حنا مينة المصاييح الزرق، ص: 302

⁽²⁾ أنظر الشراع والعاصفة، ص: 129

⁽³⁾ أنظر الشراع والعاصفة: ص 129

وقالوا

- لا تصدقوا فرنسا، ياما وعدت ياما اخلفت، هذه وعود حرب لا أكثر، وقت الغصة يفكرون فينا ويتملقوننا لنمشي معهم، حتى إذا انتصروا لحسوا عودهم ونكلوا.
- فرنسا غدارة.
- والانجليز أغدر(1).

وبذلك سعت الكتلة الوطنية إلى تقليص تناقضاتها الأساسية مع الحضور الأجنبي ودعت إلى التعاون مع الحلفاء في حربهم مع المحور. ولكن المستعمر عمق من جديد الخلافات بين الوطنيين حتى قاوموا اليسار استعدادا لمشروع الوحدة(2)، وكانت فرنسا تعمل لحساب الاستقلال، وبريطانيا تنشط لطرد فرنسا والحلول محلها، ودعاة الملكية يسعون لنسف الجمهورية، والجماهير تطالب بالجيش والجلاء، وكان الكفاح يتسع، والمناقشات تحتدم في كل مكان(3). لكن هذه المحاولة لم تأت بثمره وتيقن الوطنيون أن بلدا بدون جيش لا يمكن له أن يقاوم، ولا بد من التعاون من أجل مقاومة الحضور الاستعماري(4).

قال الاساذ كامل: الاستقلال الذي أخذناه لا يصبح استقلالا كاملا حتى يخرج الفرنسيون والإنكليز، ونحن نعرف أنهم لا يريدون الخروج، وهم يماطلون، ويتآمرون، لكنهم لا

(1) أنظر الشراع والعاصفة: ص 130.

(2) أنظر الشراع والعاصفة، ص: 138.

(3) أنظر الشراع والعاصفة: ص 139.

(4) أنظر الشراع والعاصفة، ص: 297.

يستطيعون البقاء إذا وددنا صفوفنا، أما بالنسبة إلى اللاذقية فإن خطر المرشد خطر حقيقي يجب أن نقضى عليه⁽¹⁾.

كما نرى حضور الأجنبي الذي يأتي بزوارق الصيد التي تجعل حياة الصيادين أسوأ، إن الصفثلي عندما لا تتجح بصيد الأسماك يلعن زوارق الصيد والساعة التي جاءت فيها إلى البلدة والقرد الذي اخترعها.

- هذا الإيطالي اللعين..

كان العداء مستحكماً بين الصيادين والزوارق التي قضت على رزقهم، وجعلت الصنارة والشبكة، هاتين الوسيلتين البدائيتين للصيد، تصبحان من العاديات لا خير فيهما ولا نفع، ذلك أن الزوارق تكنس البحر من الصباح إلى المساء، وإذا بقي للصنارة والشبكة شيء، فإن ما يدفع فيه من سعر لا يطعم خبزاً ولا يسد حاجة، والناس، ولهم كل الحق، يفضلون السمك الرخيص، ذلك الذي تصطاده الزوارق بالجملة، وتبيعه بسعر الجملة⁽²⁾.

وقدموا عريضة الاحتجاج.. وعندما وصلت إلى رئيس البلدية استدعاهم ووبّخهم:

- إلى أي عهد تريدون ارجاعنا؟

كان كلام رئيس البلدية منطقياً ومعقولاً، فهذه سنة التطور، إلا أن الصيادين كانوا منطقيين حين عرضوا عليه في المقابل أن يشغلهم الإيطالي، صاحب زوارق الصيد. ووافق الإيطالي

⁽¹⁾ أنظر الشراع والعاصفة: ص 297.

⁽²⁾ أنظر الشراع والعاصفة: ص 96.

على تشغيل اثنين أو ثلاثة.. أما الباقيون؟ كان بين أمرين: إما أن يتخلى عن الاستثمار فيشغلهم، ويقاسمهم الأرباح، أو أن يستمر في استثماره، ويتخلى عنهم، وهذا ما كان، وتركهم دون عمل ولا رزق⁽¹⁾.

بقايا صور:

في هذه الرواية أيضا نجد التدخل الأجنبي في سورية كما تصف بقايا صور " اتفقنا دائما على أن الحرير الهندي خرب بيوت الناس، بيوت المرابحين أولاً، ثم بيوت الملاكين، ثم بيوت البلدة كلها. وقال الوالد يوماً للأم: "ماتت هذه الصنعة. ماتت الدودة المباركة. مرتنا نحن أيضاً، رحمن الله!"². "إذهبوا إذا شئتم قال لهم أصحاب الحقول... الدودة ماتت. تربية القز انتهت. الحرير الهندي قضى علينا وعليكم"³. البلدة المنكوبة بحريرها نكبت بوباء أيضاً. قيل أنه الهواء الأصفر، وقيل أنه طاعون، وأكد آخرون فيما بعد إنه الجوع. انتشرت المجاعة في كل مكان، وانتشر الجرب فأصابتنا العدوى، ظهرت البثور على أجسامنا، والتهبت بالحكة وتبقعت، وجعلت الأم تذيب الملح وتدهننا⁴.

المستقع:

كما نرى الحضور الأجنبي في "المستقع"... كانت الأزمة الاقتصادية تشد، والبطالة تتكاثر.. لقد صدرت فرنسا، كما قال بعض العمال، "كريزتها" إلى سورية، وكانت وطأة هذه الكريزة

⁽¹⁾ أنظر الشراع والعاصفة: ص 95-96.

⁽²⁾ بقايا صور: ص 177.

⁽³⁾ بقايا صور: ص 179.

⁽⁴⁾ أنظر بقايا صور: ص 195-196.

هنا مضاعفة. لأن المدينة التي تعيش على العمل في المرفأ قد وجدت نفسها في عطالة مثله، كان الفرنسيون وحدهم الذين لا يباليون بشيء، لأنهم ينتزعون اللقمة من الأفواه، في ذلك النهب الرهيب الذي قضى على كل شيء¹. فبسبب الاحتلال الفرنسي على البلاد وهذه الأزمة الاقتصادية نرى ب... أن الأغنياء يأكلون الفقراء، والمرابين يأكلون الفلاحين، والدائنين المدينين، والأقوياء الضعفاء²، ولا يجد العمال العمل في المرفأ.

وكان الانتداب الفرنسي قد قرر، وبالطواطؤ مع دول أخرى، أن يقتطع اللواء من جسم سورية ويعطيه لتركيا. وكانت سورية وهي محكومة بهذا الانتداب، تناضل بغير جدوى لإحباط المؤامرة، وهكذا غدا اللواء مسرحاً لصراع سياسي، وكتب على الناس، سكان الحي، أن يشهدوا تلك الأيام العاصفة التي كانوا يخرجون فيها، من الصباح إلى المساء، بمظاهرات تنادي بعروبة اللواء، وتندد بالمؤامرة الجارية عليه³.

القطاف:

أما الحضور الأجنبي في "القطاف" كما يقول الأب: " لا أخاف الحياة.. مرات عديدة رأيت الموت بعيني. في برّ الأناضول، رفضتُ خدمة العثمانيين. رفضت السخرة والقهر وسوء المعاملة. هربت من العسكرية. كنت أهرب كما سحنت لي الفرصة. ما أكاد أعود إلى الخدمة

¹ المستنقع: ص 211.

² المستنقع: ص 239.

³ المستنقع: ص 342-343.

حتى أفرّ منها. الأتراك أعداء للعرب. لهذا رفضت خدمتهم¹. وفرنسا تحتل سورية، إذن هي عدوة، والأقطاع حليف فرنسا، إذن هو عدو، وهؤلاء الملاكون الكبار ضد الفقراء، فإذن هم أعداء أيضا².

- لعن الله فرنسا.. هي التي كانت السبب.. تأمرت مع تركيا.
- يعني فرنسا دولة مستعمرة.. ولأنها كذلك فهي تبحث عن مصلحتها، ومصلحتها كانت مع تركيا³.

الياطر:

وجد في رواية "الياطر" الحضور الأجنبي كما يقول بطل الرواية: " أنا زكريا المرسلني، رابط الحوت، رابط الحوت في الماء، الراقص على ظهره في الماء، الذي تحدثت اسكندرونة كلها عن فعلته، ونشرت جريدة "اللواء" صورته مع الحوت⁴. فالحوت هنا رمز للاحتلال الفرنسي⁵. كما نرى في نهاية الرواية نفس الشيء بأن الصيادين يهربون خوفا من الحوت وهم لا يستطيعون المقاومة.

- ماذا حدث؟ ممّ تخافون؟

¹ القطاف: ص 325.

² القطاف: ص 72.

³ القطاف: ص 164.

⁴ الياطر: ص 9.

⁵ الرواية والروائي، حنا مينة، ص: 46

- من الحوت، صاح بعضهم، ظهر حوت جديد في البحر..¹

نهاية رجل شجاع:

نرى في رواية "نهاية رجل شجاع" حضور الفرنسيين، الذين يتدخلون في شؤون الشعب السوري. فنرى الفرنسيين -كما يصفهم مفيد- من فئة الشرطة العسكرية، "البريفوتة"، وقد شربوا من النبيذ كميات تكفي لتجعلهم سكارى تماما، ولهذا راحوا يتصرفون بعنجهية، ويتحرشون بالنساء، فانسحب روّاد المقهى، خوفا من الشر، ولم يبق سوانا: عبدوش وأنا على طاولة، وهم على طاولة مقابلة². طلب الفرنسيون مزيدا من النبيذ، وطلبوا "فطمة" وهو الاسم الذي يطلقونه على المرأة العربية³. لكن "البريفوته" كانوا فرنسيين، وأن يقاوم واحد من أبناء البلد فرنسيا، فهذا معناه الموت، إذا عمد الفرنسي إلى إطلاق الرصاص عليه. نعم! هذا ما صار أطلق أحدهم عليّ من مسدسه، فلامست الرصاص زندي الأيسر، وبعدها ترتج تحت ضربة محكمة من خيزرانتتي التي تجعل الجمل يتلوى من الألم⁴.

حكاية بحار:

¹ الياطر: ص 290.

² نهاية رجل شجاع: ص 68.

³ نهاية رجل شجاع: ص 68.

⁴ نهاية رجل شجاع: ص 69.

نرى في حكاية بدّار بأن أثر الاستعمار يظهر بشكل المشروب من خارج البلاد الذي يأخذ
مقام المشروب المحلى:

-أليس عندكم عرق؟

- هنا لا يبيعون العرق يا سيد!

- لماذا؟

-لأننا في زمن الويسكي..

- مهما يكن- قال سعيد- العرق مشروب آبائنا وأجدادنا.

فقال الرجل:

- الرحمة عليهم أجمعين.. كانوا يعتبرون العرق مشروبا وطنيا.. أما الآن .. انظر .. كل

هؤلاء يشربون الويسكي..¹

كانت أوروبا المستعمرة تصدر أزمتهما إلى مستعمراتها، وكان على الناس أن يجوعوا بينما
المستعمرون في شبع. وأن يشتهوا الرغيف بينما أكوام الحبوب متروكة للمطر والريح
والعفن². كانت هي المسؤولة عن هذه الكارثة. وكان الوعي قليلا آنذاك. كانت المطالب المهنية
والحياتية معزولة عن المطالب السياسية. الحقد على فرنسا كبير، الحقد على الأغنياء يتزايد،

¹ أنظر الياطر: ص 67.

² أنظر الياطر: ص 261.

النقمة تتدى في العيون. لكن العدو المباشر كان صبابيا، فلا أحد يستطيع أن يقول إن فلانا مسؤول عن نكبة الناس¹.

والسلطة لا تقدم أي مساعدة. ماذا يعنيها من بدار غريق؟ ليغرق جميع البحارة. تتخلص منهم عندئذ. إنهم "مشاغبون" في نظرها. لا تهمها حقوق المواطنة. المواطن لا حق له في بلد محتل. ويباح دمه إذا هو تمرد². السلطة لا تفعل شيئا سوى اعتقال الناس، واستجوابهم حول الحادث³. يقول سعيد: "نحن بلد محتل. المواطن فيه لا قيمة له. لو كان الغريق ضابطا فرنسيا لاستدعوا غواصا من فرنسا.. الحكومة لا تعرف بحق صالح حزوم حيا أو ميتا"⁴. فالمواطنون بحاجة إلى حقد العدو، والحقد على العدو وقود داخلي، لأن صالح حزوم مات شهيدا في سبيل الحيّ. والحي لا ينسى معروف صالح لكنه الآن عاجز. والحيّ جائع وعاجز. والبحارة تشرّدوا. إنهم يدفعون ثمن تلك المظاهرة التي طالبت بالخبز. فرنسا لا تعترف بحق الجياع في الصراخ بأنهم جياع. تريدهم أن يموتوا صامتين!⁵

الدقل:

نرى الاستعمار واضحا في رواية "دقل" يقول البطل: ...لقد نهبونا. الفرنسيون نهبوا سورية. مثلهم مثل الأتراك. والذي قاومهم كما قاوم الأتراك. كلاهما عدوّ الرحمة مع العدوّ لاتصحّ.

¹ أنظر الياطر: ص 262.
² أنظر الياطر: ص 311.
³ أنظر الياطر: ص 323.
⁴ أنظر الياطر: ص 236-237.
⁵ أنظر الياطر: ص 327.

إذا ضُبطنا فلن يرحمنا أحد. الفرنسيون أجاجوا الناس، لم يرحمهم، لم يرحموا والذي أيضا. لو أمسكوه لأعدموه¹.

كما نرى ظلم فرنسا على سعيد، طالب النائب العالم الفرنسي بسجنه قائلا: " هذه جريمة بحق الإنسانية الدافع إليها الكره والوحشية ومقاومة السلطة الفرنسية.. إن دم الفرنسي لا يسقط بالتقادم، وإن المتهم وجد الجثة ولم يحافظ عليها، ولم يخبر عنها، لي مثل فيها ودفعها ثانية إلى البحر.. هذا جرم إنساني، والقانون لا يتسامح مع الجرائم الانسانية"².

والفرنسا أعطت اللواء إلى تركيا.. الأتراك على وشك دخول الاسكندرونة، يقول البطل: لقد باعنا فرنسا. نحن ضحية لعبة دولية قذرة. التسويات اقتضت إعطاء اللواء إلى تركيا.. لم تنتفع مظاهرات العرب ولا احتجاجاتهم.

- والحكومة-صحت- ماذا تفعل الحكومة؟

- أية حكومة؟ هل نسيت أننا بلد محتل؟

- وفرنسا؟

- هي التي تعمل لتسليم اللواء

- يا ابنة الكلب!³

اللواء تحت تركيا ولا بد من الهجرة:

¹ أنظر الدقل: ص 8.

² أنظر الدقل: ص 42.

³ أنظر الدقل: ص 133.

كان لا بد من من الهجرة..

- وللواء؟...

-أصبح تحت حكم تركيا.. القصة طويلة يا سعيد.. المؤامرة كانت مبيته منذ العشرينات، ففي عام 1923، عندما عقدت فرنسا اتفاقها مع تركيا، ألحق بها ذيل سرّي يتضمن وعدا بتسليم اللواء إلى تركيا في ظروف دولية مؤاتية.. ولما أشتدّ خطر ألمانيا النازية، وشرعت فرنسا في توثيق عرى التحالف مع تركيا، كان اللواء عربون الاتفاق، بموافقة بريطانيا، وكان نقل القضية إلى عصبة الأمم في جنيف، وإرسال هيئة دولية من قبل عصبة الأمم للإشراف على الاستفتاء، لعبة لا أكثر، وقد ناضل العرب اللوائيون ما سعهم، لكن الاستفتاء كان مزوّرًا لصالح الأتراك، ورغم ذلك أحرز العرب الأكثرية، وعندئذ أوقفت فرنسا أعمال اللجنة، وأمرتها بالمغادرة، وقامت بحملة إرهاب. وكان كل شيء جاهزًا لدخول تركيا وانسحاب فرنسا، وهكذا بدأت الهجرة وتمّت المهزلة¹.

المرفأ البعيد:

نرى في هذه الرواية بأن فرنسا بحجة الحرب، باقية في سورية²، غير أن استعادة اللواء أصبحت بعيدة جدا.. أعطوه لتركيا كي تقف على الحياد.. لكن تركيا تلعب على الحبال.. إنها تميل إلى ألمانيا..

¹ أنظر الدقل: ص 205.
² أنظر المرفأ البعيد: ص 54-54.

- وماذا يفعل زعمائنا..؟

- بعضهم يصلي كي تنتصر ألمانيا.. وبعضهم يصلي كي تنتصر بريطانيا..

- ومن يصلى لأجل سورية؟

- نحن¹.

الجنرال كاترو، منذ دخول قوات ديغول إلى سورية، أعلن أن فرنسا التي يمثلها تمنح الاستقلال لسورية في نهاية الحرب. كانت فرنسا ديغول تريد استرضاء الشعب السوري، وبريطانيا تعمل لزعزعة فرنسا والحلول محلها في سورية ولبنان². كما نرى الاستعمار من الناحية الاقتصادية: " لا حاجة للاحتلال.. هذه موضعة قديمة.. الاستعمار، بشكله القديم، إلى زوال .. هناك الاستعمار الجديد.. الاقتصادي والمصرفي³.

الرجل الذي يكره نفسه:

الاستعمار الفرنسي واضح في رواية "الرجل الذي يكره نفسه" وهي في الحقيقة جزء من ثلاثية البحر، نتعرف على الاحتلال الفرنسي بواسطة المحادثة التي تحل بين صالح وجلاد تراك:

من كان المعتدي، ومن كان المعتدى عليه؟

صاح تراك:

¹ أنظر المرفأ البعيد: ص 55.

² أنظر المرفأ البعيد: ص 143.

³ أنظر المرفأ البعيد: ص 368.

- أحرص! نحن جننا منتدبين عليكم، لناخذ بيدكم ونمدّكم!

- بقوة السلاح!؟

- وماذا تريد إذن!؟ بقوة اللطف!؟

- بقوة العدل، والعدل كان معنا، لأننا كنا ندافع عن بلدنا، بينما أنتم تغزونهم!

صفعني تراك بقوة هو يصرخ:

.¹Merde!

كما نرى صالح يريد أن يقول الحقيقة أمام تراك عندما يذكر الحرية الفرنسية وعدالتها: "أردت مناقشة حول هذه "الحرية" المزعومة، وأن أبين له أن فرنسا جاءتنا محتلة، تحت تسمية واهية، خادعة، هي الانتداب، وأن لنا الحق في حمل السلاح، ضد الذين احتلوا بلدنا بالسلاح، متناسين شعارات الثورة الفرنسية، وخائنين لها².

شرف قاطع طريق:

نرى في رواية "شرف قاطع الطريق" حضور فرنسا في سورية باسم الانتداب ولكن الظاهر يختلف من الباطن. فيقول حنا مينة بأنه لم يعرف بداية ماذا يعني وجود فرنسا في سورية. ولم يسمع بمعركة ميسلون و مقتل يوسف العظمة، أو الجنرال غورو الذي دخل دمشق عنوة، وذهب فوضع قدمه الدنسة على قبر صلاح الدين الأيوبي قائلا بشماتة: "ها قد عدنا يا صلاح

¹ الرجل يكره نفسه: ص 231.

² الرجل يكره نفسه: ص 236.

الدين!" ولم يسمع.. بالثورة السورية الكبرى، وما تقدم الشعب السوري من شهداء، وما ضحّى به من أجل إجلاء الاحتلال الفرنسي عن سورية¹. ولكن بعد أن عاش طفولته في الشقاوة وشبابه في السياسة يتعرف على الحقيقة بأن "فرنسا لم تأت لتمدينهم، أو تعليمهم، أو إعدادهم ليكونوا أهلاً للاستقلال كما تزعم هي، وعصبة الأمم المتحدة من قبلها، بل جاءت فرنسا لتحتلهم، لتجعل من سورية أرضاً فرنسية، ولتتهب خيراتهم، وتهدم صناعاتهم وزراعتهم، وأن نكبة الاصطناعي، الفرنسي، المستورد من الصينية، على بلادهم، وفرض السلع الفرنسية، من الأقمشة إلى الأحذية، ومن الزبدة إلى علبه الكبريت، وأنها تريد لهم إجراء في خدمة مصالحها، وليس مواطنين لهم حقوق وعليهم واجبات².

هكذا عالجت روايات حنا مينة الحضور الأجنبي بداية من مصابيح الزرق. كما نرى الحوت هو رمز الاحتلال في ثلاثية البحر وكذلك جثة البحار الفرنسي، أنها جثة غريبة لاحتلال إمبريالي، هو الاحتلال الفرنسي لسوريا، ثم هو امبريالية أمريكية فرضت اتفاقات كامب ديفيد وتمتدت في زيارة السادات للقدس المحتلة، وعقده الصلح مع العدو اسرائيل³.

الحرب: من القضايا المهمة التي عالجت روايات حنا مينة هي الحرب، فنرى صورة الحروب المتعددة جلية في رواياته، وأثرها على حياة الناس في البلدان العربية وخاصة في سورية،

¹ أنظر شرف قاطع الطريق: ص 34-35.

² أنظر شرف قاطع الطريق: ص 35.

³ أنظر حوارات في الكتابة الروائية، حنا مينة، ص: 208-209.

ولكن الحرب العالمية الثانية والحرب العربية الإسرائيلية سنة 1973 تحتلان مكانة الصدارة فيها.

فتقدم رواية المرصد "مجتمعا منفعلا بالحرب لا فاعلا فيها موضوعا للتاريخ لا محركا له. شأنه في ذلك شأن جلّ الروائيين العرب"⁽¹⁾. ونرى في "مصاييح الزرق" مجتمعا يعيش في حلة الخوف وبنوّر مصاييحه باللون الأزرق وتغرق المدينة في صمت عميق "وصفير الحرّاس قد اشتد، ومن على الأرصفة يسمع وقع الخطى خلال الظلام في سير خائف مسرع إلى البيوت"⁽²⁾. وتؤثر الحرب على حياة الناس، فارس بطل الرواية يفقد العمل لأن صاحب المتجر مطلوب إلى الحرب، وهو يدعو فارس و يلقي في يده عشر ليرات، قائلا: "هي بقية حسابه، وابتسم له ابتسامة مغتصبة، وقال له: مع السلامة!³. فترتفع الأسعار والمواد الغذائية تختفى من السوق كما "فرض نظام التعميم وجميع المتقاعدين استدعوا إلى الخدمة" هذا "سفر برلك" من جديد...⁴ وهكذا تضع الحرب حدا للحياة الشعبية السعيدة "و غابت البسمات مخلفة جهمة كئيبة ونامت البلدة على هم وظلام"⁽⁵⁾ ورغم اللامبالاة التي يمارسها بعض سكان المدينة و"حين يعود أبو فارس إلى مواويله يعودون هم إلى ميغاناهم وتثب دون مقدمات الحاجة إلى الرقص وعندئذ فحسب يتعالى الضحك ويشد التصفيق"⁽⁶⁾.

1. عالم حنا مينة الروائي، ص: 21

2. المصاييح الزرق، ص: 22

3. المصاييح الزرق: ص 19.

4. المصاييح الزرق: ص 21.

5. المصدر نفسه، ص: 38

6. المصدر نفسه، ص: 36

وفي "الشراع والعاصفة" تبدو الحرب سبب تردّي الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أيضا. فقد استطاعت أن تقسم البوجوازية الصغرى إذ ساند فيصل منها ألمانيا امتثالا للنظرية القائلة: "صديقك هو عدوّك"، وتحمّس فيصل آخر لمساندة الحلفاء، والاتحاد السوفياتي بصفة أخصّ. ولكن هذا الاختلاف في تقويم الحرب ساهم في تجذير الحركة الوطنية التي هيأتها الظروف العالمية الجديدة للمطالبة بالاستقلال⁽¹⁾.

ولكن نرى بأن الحرب العربية الاسرائيلية هي التي أثارت اهتمام الكاتب بصفة أخصّ، فرواية "المرصد" التي في الحقيقة هي سر للوقائع العسكرية المتعلقة بتحرير المرصد ولكن نجد فيها تأملات عميقة في حرب أكتوبر 1973. يدافع الكاتب في هذه الرواية عن حرب جوان 1967 وينقد الأوضاع السياسية التي أدّت إلى الهزيمة. فالجندي السوري لم يحارب في هذه المعركة ولكنه سيحارب فعلا لأن الخيبة لن تتكرّر⁽²⁾.

وفي هذه المعركة أيضا يؤرّخ الكاتب للأوضاع السياسية العامة في سورية فيشير إلى الحضور الفرنسي والدور الذي لعبته فرنسا في تاريخ سورية الحديث، كما يشير أيضا إشارة طفيفة إلى الأمبريالية العالمية وإسرائيل باعتبارهما قوّتين تشكلان خطرا على سورية. فوجود إسرائيل مرتهن بالمساندة اللامشروطة من قبل الولايات المتحدة الأمريكية التي تسرّع دائما لإنقاذها من الخندق⁽³⁾. ولكن العدوّ الحقيقي لسورية ذو وجوه ثلاثة هي إسرائيل والأمبريالية والرجعية العربية التي تحافظ على الانقسام وترفض الوجود. ثم يستنتج في النهاية أن أزمة

1. أنظر الشراع والعاصفة، ص: 127-128

2. أنظر المرصد، ص: 12

3. المرصد، ص: 219

العرب هي أزمة نفسية سياسية لا أزمة اجتماعية⁽¹⁾. وإذا كانت أسباب هزيمة العرب في جوان 1967 متنوعة (سوء تقويم لقوة العدو الحقيقية، الغرور، البطولة الكاذبة، سوء استعمال السلاح⁽²⁾) فإن حرب أكتوبر تبدو حربا تحريرية وثورة شعبية حققت المعجزة⁽³⁾. لقد أكد حنا مينة في تحليله للحرب على البعد السلمي للمقاتل العربي، فهو محرر وثورى ولكنه مسالم لا يحب القتل. كما ألحّ أيضا على البعد الشعبي لهذه الحرب، فالجنود هم في الأصل عمّال وفلاحون ومثقفون⁽⁴⁾. ثم أقيمت وراء خط القتال جبهة شعبية لمساعدة الجيش في معركته ساهمت فيها كل الشرائع الاجتماعية. فالفلاحون سلّموا محاصيلهم الزراعية للمستشفيات وتبرّع العمّال بساعات إضافية، وهكذا ظل الجيش متواصلا مع الحياة الاجتماعية في العاصمة، فرباب بطة "المرصد" تراسل زوجها على الجبهة وتصف له الحياة في دمشق⁽⁵⁾. وعلى الجبهة خلقت حرب أكتوبر عقلية جديدة ولّدت معاني الإخاء والديمقراطية والمصادقية في صياغة البلاغات العسكرية. وهكذا يمجدّ حنا مينة في هذه الرواية المقاتل السوري في حرب أكتوبر بصفة عامة لأنها حرب عادلة وحرب قضية. وفي نفس السياق ينقد النظام المصري الذي كان متفقا مع الولايات المتحدة الأمريكية على أهداف الحرب. فقد كان السياسيون المصريون يريدون الإثارة لا التحرير⁽⁶⁾. على الرغم من ذلك يمجدّ الكاتب من

1. المرصد، ص: 31

2. المرصد، ص: 107

3. المرصد، ص: 226

4. المرصد، ص: 68

5. المرصد، ص: 141

6. المرصد، ص: 330

ناحية أخرى الجيش الثالث المصري ويصف بطولاته ويتحامل على النظام المصري الذي كبت المواطن وقيد حريته⁽¹⁾.

فإذا نناقش أيولوجية الكاتب في هذا التحليل لحرب أكتوبر، نجد بأن الكاتب يستعمل في رواية "المرصد" مصطلح "إسرائيل" للحديث عن العدو إلى جانب استعماله لمصطلح "الصهيونية" فهل هذا يدل على أن يعترف بدولة إسرائيل باعتبارها كيانا سياسيا شرعيا في الشرق الأوسط؟

تصعب الإجابة عن هذا السؤال نظرا لتعدد المسألة: فباستثناء ملاحظة عابرة تؤكد على أهمية الحرب الطويلة الأمد باعتبار الوسيلة الوحيدة للقضاء على إسرائيل اقتصاديا وعسكريا⁽²⁾ يقدم الكاتب حرب أكتوبر على أنها حرب تحريرية كما سبق ذكرها. فالوقائع العسكرية تجري على جزء من الأرض السورية المحتلة منذ سنة 1967 بالإضافة إلى أن القضية الفلسطينية لم يثرها الكاتب بصفة عامة إلا إثارة سطحية. ثم يلاحظ الناقد أيضا أن طبيعة تحليل الحرب تقترب كثيرا من الرؤية الرسمية لطبيعة العلاقة بين النظام الحاكم والدولة العبرية، كما يلاحظ أيضا أن الكاتب يستعمل في أغلب الأحيان مصطلح "عربي" عوضا عن مصطلح "سوري" وهي ملاحظة ذات أهمية قصوى، إذ حنا مينة في أعماله السابقة كان يستعمل دائما كلمة "وطن" بالمعنى الضيق للكلمة، ذلك أن مفهومه للوطنية لا يتعدى الانتماء إلى سورية باعتبارها دولة مستقلة وقائمة بذاتها. وهذا يعني أن كاتب الكفاح والفرح بدأ يتبنى بعض

¹. المرصد، ص: 341

². المرصد، ص: 258

شعارات نظام حزب البعث الاشتراكي العربي ومن بينها شعار الوحدة العربية. ولكن هذه الملاحظة ذاتها تثير إشكالية تتعلق بتطور إيدولوجية الكاتب وهو الذي طاردته السلطات الوحديّة سنة 1958 لأفكاره الشيوعية.

الربيع والخريف كما نرى صورة الحرب بين العرب وإسرائيل في رواية " الربيع والخريف" الحرب متوقعة بين العرب وإسرائيل¹. أما الأخبار الصحيحة لا توجد مصادرها " سوى الاعتماد على الاذاعات الأجنبية وأكثرها غير موثوق، وهم الآن ينتظرون ما تقوله القاهرو ومشق². فحسب الأخبار "إن العرب يعدّون 150 مليوناً، وأن القضاء على إسرائيل موكّد هذه المرة..³ " ولكن العرب الموجودين في بودابست وهم ... يكذبون أبناء الإذاعات الأجنبية، وخاصة إذاعتي لندن وصوت أميركا، ويعتبرونها حرباً نفسة لصالح إسرائيل، ولكسر المعنويات العربية⁴. يقول كرم – ماذا حدث لأمة العرب بالرغم أن عددها ألف مليون ونصف لماذا حدث كله هذا لم تنجح في المعركة... كما نرى الحزن في نفوس العرب عن استقالة عبد الناصر، ولكن يظهر الفرح إلا حين أعلنت القاهرة أن عبد الناصر رجع عن استقالته، وأن الشعب المصري، الذي بهظته الكتلة الرصاصية، الشعب الطيب، الرائع بعمّاله،

¹ الربيع والخريف: ص 306.

² الربيع والخريف: ص 307.

³ الربيع والخريف: ص 308.

⁴ الربيع والخريف: ص 309.

فلاحيه، ومتقفيه، وكشبته، ونسائه ورجاله وشيوخه، قد خرج يطوف الشوراع صارخا في وجه الهزيمة: لا!¹

أما في رواية "حكاية بدار" فنجد ذكر الحرب العالمية الثانية، والد سعيد حزوم يعود بعد معركة الحي التي سجن فيها لمدة عامين.. عاد إلى البيت متهللا. كانت الحرب العالمية الثانية قد انتهت، وظل الأتراك قد انقشعوا عن البلاد العربية، والشام، وكما قال الوالد، قالت حكومة عربية، و "يوم الخلاص الذي انتظرناه طويلا قد جاء أخيرا... لقد انتهت غربتنا..سنعود إلى الوطن².

المرفأ البعيد: نجد في المرفأ البعيد أن فرنسا بحجة الحرب، باقية في سورية. بعضهم يعلق أملا على انتصار ألمانيا.. لأن هتلر لا يفعل سوى تبديل نير بنير.. "سنواجه أياما صعبة.. الحرب بعيدة، ولكننا جزء من العالم إذا دخلتها فرنسا امتدت النار إلينا.. في كل الأحوال سيتوقف العمل في البحر.. وسنواجه البطالة والجوع³.. والناس ذعروا لإقفال البحر، وتوقفت الحركة في الميناء توقفا كاملا. لا سفن تأتي، ولا سفن تروح، لا صادرات ولا واردات، والبطالة تتسع والتذمر يعلو ويزداد...⁴ قامت قيامة العالم. ألمانيا تزحف على فرنسا. سقطت

¹ الربيع والخريف: ص 313.

² حكاية بحار: ص 240.

³ المرفأ البعيد: ص 54-55.

⁴ المرفأ البعيد: ص 133.

باريس. شماتة! "وما من ظالم إلا سيلى بأظلم" ... وفرنسا عدوة ولكن "ألمانياعدو" أفضع..
النازية"¹.

وبسب هذا نرى ..الميناء تقفر أكثر فأكثر.. السلطة تطارد اليساريين وتقمع النشاط بين
العمال. ظلام. المدينة غرفت في ظلام.كل النوافذ والمصاييح طُليت بالأزرق. لم تسلم حتى
مصاييح السيارات.. اختفت المواد الغذائية. خاف الناس المجاعة². أما قضية فلسطين هي
تخلق المشاكل:

- .. لدينا الآن اسرائيل..
- وماذا يهم؟ دولة صغيرة في قلب عالم عربي كبير..
- ابتسم سيّد:
- المشكلة ليست فيها ذاتها بل في أميركا التي تحميها وفي بريطانيا التي سلّمتها فلسطين..
- والعرب.. ماذا يفعلون؟
- بعضهم الحكام خاصة، يهادنون اسرائيل.. لهم مصلحة في ذلك..
- لا أصدّق..
- صدّق.
- هل هناك عربي يريد أن يبقى صهيوني في أرضه المغتصبة؟
- لنتفق على هذا العربي أولاً.. من هو؟ إلى أية طبقة ينتمي..؟ ما موقفه من الاستعمار؟

¹ المرفأ البعيد: ص 134.

² المرفأ البعيد: ص 134.

- العربي هو العربي..

- لا ضع الجميع في سلة واحدة.. بين العرب العامل والفلاح من جهة.. وبينهم الإقطاعي

والرجعي من جهة ثانية..¹

بريطانيا حاولت، بعد الحرب العالمية الثانية، أن تحل محل فرنسا، فشلت الدولتان معا، فحلت

مكانهما، في المنطقة، أميركا، ليس بوجودها العسكري المباشر حتى الآن، بل عن طريق

إسرائيل. إسرائيل ... استعمار استيطاني توسعي عدواني، أما العرب يقاوم أميركا.. العدو

الكبرى والأساسية..²

حمامة زرقاء في السحب: كما نرى قضية فلسطين في رواية "حمامة زرقاء في السحب" بأن

فلسطيني حتى لا يملك أرضا لدفن أخيه في وطنه الذي مات في مستشفى لندن تقول الممرضة:

- ألا تستطيعون العودة بالمتوفى إلى فلسطين؟

- لا يمكن ذلك.. سلطات الاحتلال الإسرائيلي ترفض.

- ولكن أليس فلسطين وطنه؟

- كانت وطنه .. اغتصبته إسرائيل الآن .. وطرده منه..

- بأي حق؟

- بحق السلاح..

- والمجتمع الدولي؟

¹ أنظر المرفأ البعيد: ص 270-271.

² المرفأ البعيد: ص 297-298.

- يتفرح ويساند إسرائيل، أميركا مثلا .. و ..¹

كما نرى الإشارة إلى هذا الجانب في "رسالة من أمي" بأن أهل الكاتب يضطرون للهجرة من اللواء عن يد الأتراك ومن فلسطين على يد اليهود².

هكذا نجد بأن روايات حنا مينة عالجت الحرب من النواحي المتعددة وأثرها على سورية و على حياة الناس كما قال حنا منية في حوارات "رَجَّتْ حرب حزيران الأعصاب العربية رجّة قوية، حتى دار بعضهم دورة كاملة عن منطلقاته الأولى في النظر إلى الأشياء³.. أما حرب تشرين التي بدأت بانتصارين كبيرين في السويس والجولان، سرعان ما انتهت بعد ثغرة الدفرسوار ووقف القتال، نهاية كئيبة... فوجد الكاتب ضرورة لكتابة رواية كاملة عن حرب تشرين، بعنوان "المرصد"⁴.

التنظيم السياسي :

نرى في المستنقع النقابة بمساعدة الجريدة.

- جريدتنا تختلف، ولهذا نطبعها في السر

(...)

- تطبعونها في السر؟ وماذا فيها ماشاءالله؟

¹ أنظر حمامة زرقاء في السحب: ص 50.

² رسالة من أمي: ص 4.

³ حوارات: ص 120.

⁴ حوارات: 122.

- فيها توعية للعمال، ودعوة لهم لإنشاء النقابات وتحقيق مطالب الشعب وطردهم الفرنسيين.

- أنت إذن من الجماعة الذين نسمع عنهم؟

- نعم...

- وهل تظنون أن ما تعملونه سيتحقق يوماً؟

- ولماذا نناضل إذن؟¹

كما نرى نقابة وإضراب العمال. وقد شهدت حديقة المنشية جموع العمال العاطلين أفواجا، وكثرت الاجتماعات والمناقشات، وكثر أيضا، توزيع النشرات ضد الحكومة والانتداب الفرنسي، وطارد رجال البوليس المحرضين وموزعي النشرات، واختفى فايز الشعلة نهائيا، ولم تفلح كل مdahمات رجال الأمن الفرنسي العام لبيوت الحيّ في القبض عليه².

فايز الشعلة بعد عودته من السجن يحث الناس على مقاومة الأتراك وهو يقدم المظاهرات، كما يعقد الاجتماعات في الحيّ، وكان يؤكد في كل مكان، أن اللواء عربي بأكثريته، وعلى الناس أن يناضل بكل ما يستطيع للحفاظ عليه. وكانت القوى العربية، من كل الفئات، قد اتحدت، وتشكلت في المدينة قيادة موحدة، وجرى تنظيم حراسة في الأحياء، لأن الشائعات كانت تتكاثر عن نية الأتراك بالهجوم على الأحياء العربية³.

¹ المستنقع: ص 264.

² أنظر المستنقع: ص 279-280.

³ أنظر المستنقع: ص 433.

الثلج يأتي من النافذة:

هذه الرواية تلقي الضوء على الحياة والسياسة والتنظيم السياسي بجوانب متعددة فنرى فيّاض يتشرد من هنا إلى هناك ولا يستقر في مكان. وهو يريد أن يفعل شيئاً لأجل الوطن وشعبه. كما هو يضطر للعمل في مجالات مختلفة لضيق العيش وقلة المال، فهو يشعر دائماً بالغربة. وعندما يحصل على الكراريس الممنوعة ويقراها فيفهم الحقيقة وماذا تعني السياسية، وما هي التضحيات التي لا بد منها للحصول على الحقوق "عمل النهار لأجل اللقمة، وعمل الليل لأجل الفكر، وإنه سعيد جداً بالعمل الثاني"¹.

والرجعية الحاكمة في سورية قد فتحت المعركة ضد الشعب تمهيداً " للدفاع المشترك" وهي تطارد التقدميين لتميرير هذا الحلف ولكنها لن تنجح.. وقد لوحق هو لأنه يساري وكاتب معارض. فاضطر إلى انقطاع عن التدريس واختبأ فترة، فلما اشتدت الملاحقة نصح بمغادرة البلاد لمواصلة المعركة وقد التجأ إلى لبنان و في وطنه أنه يستمتع بالحرية². يقول البطل على الناس أن يعمل للحصول على الحرية. الرجعيون يحكمون الآن، ولسوف ينتهي حكمهم يوماً.. سينتهي حكمهم يوماً، ولأجل ذلك يجب أن يكون هناك جهد مشترك وعلى فارس أن يكتب لكي ينتشر الوعي السياسي في الناس³.

¹ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 146.

² الثلج يأتي من النافذة: ص 23.

³ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 121.

ولأجل المنشورات الممنوعة، السلطة تلقي عليه القبض وينتشر الخبر في "صحيفة ذات نفوذ" وعنها أخذت بقية الصحف، صورة الرجل الذي ضبط مع المطبعة والمنشورات بشعره الطويل، ولحيته السواء، ويديه المقيدتين بالحديد، وأعدت نشر صور القبو والمنشورات والمقبرة، وزادت عليها صورة المطبعة المنشورات، وبعضها نشر عناوين المنشورات بالزنكوغراف، مع تفاصيل جديدة¹.

يا ضياع شبابك يا فياض! تقوله أم خليل. البارود في الصخر. اشعل الفتيل فقط ويحدث الانفجار². فنرى جهود فياض جليا في هذه الرواية لنشر المنشورات³ لأن المناضلين هم الـ combatants⁴. كما يقول جوزيف: الأحياء لا يخيفون الأموات.. وصاحب المبدأ لا يخاف الأموات ولا الأحياء.. غوركوي نام في المقبرة⁵. إذا لم يخف الإنسان الموت أصبح كل شيء سهلا عليه⁶. فالمناضلون يعملون دائما إذا لايسمحون علنا يعلمون سرا⁷. هكذا بقي فياض في السجن ستة أشهر⁸، لأجل القيام بالتنظيم السياسي. لكن نرى فيه التفاؤل، "لا أعرف!" اليوم تموت، وغدا تموت، وبعد ألف تموت، والخوف يموت، ثم لا شيء⁹. كما يكرس خليل حياته لأجل حقوق العمال على الرغم من حياته التعيسة، وأن أهله لا يمتلك ما يأكل. فهو اعتقل

¹ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 348.

² أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 355.

³ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 356.

⁴ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 375.

⁵ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 358.

⁶ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 358.

⁷ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 359.

⁸ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 360.

⁹ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 360.

وأرسل مع بعض العمال إلى حلب، لأنه حسب تعبير أمه "وضع يده في النار" ولما سأل فياض والده عن سبب اعتقال خليل أجاب:

- لأنه سنديكاتو!¹

أصبح يدخل السجن في كل وقت، وصار الاشتراك في المظاهرات والإضرابات جزءاً من حياته، وقد خرج في مظاهرة ضد تنريك اللواء، وفي النهاية دخلت تركيا اسكندرونة فهاجر مع عائلته إلى بيروت، وهناك تزوج، وصار له أولاد، وصارت أمه عجوزاً، أبوه شيخاً، وصار هو كهلاً، وظلت صورته منطبعة في ذهن فياض على نحو ما كانت عليه في لوحة "المغارة والشمعة والعمال الذين يقرؤون الكراريس الممنوعة في الجبل" وقد هتف، وهو يتذكر كل ذلك : " ايه خليل، يا معلمي، ألم تتعب بعد؟.."². نرى خليل يجاهد لأن أربع ليرات في اليوم لا تكفي، وعطلة يوم الأحد الأعياد محسومة، ولا مأذونية أو طبابة .. ومنذ عام و هم يماطلون .. يرفضون تثبيتهم ويخدعوهم.. يقولون: غداً، وبعد غد، وبعد شهر، .. والنتيجة؟!³. لأن أربع ليرات بدون اجازات أو ضمان، وبدون تثبيت، أجر لا يكفي لعام وحده، فكيف يصنع بعائلته؟⁴.

(1) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 43-44.

(2) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 49.

(3) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 50.

(4) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 222.

كما نرى الوعي السياسي في رواية " المرفأ البعيد " بأن حزب العمال والفلاحين يناضلون للحصول على "وطن حر وشعب سعيد"¹. ويقوم قاسم بعملية التنظيم السياسي ويحث سعيد على ذلك لأن الانتقام الفردي لا معنى له. أفضل من ذلك أن تنتشر الوعي بين البحارة². ولأجل هذا العمل أعتقل قاسم وأطلق سراحه بعد سنتين قضاها في معتقل "المية ومية" في السجن³. قاسم هو يساري⁴، يحمل قلبا في صدره و عقلا في رأسه⁵، ونرى جرأته خلال هذه المكالمة بينه وبين سعيد:

(سعيد) الحركة مية هذه الأيام.. اللعنة على هذه الحرب.. ماذا تعمل أنت؟

- لا أعمل شيئا.. أسعى لتأليف نقابة في الميناء، وكذلك في الريجي.. لا أسرة لي ولا مسؤولية.. رغيف في اليوم يكفيني...
- (سعيد) أنت تأكل سياسة وهذه لا تشبع خبزا..
- تأليف نقابة يساوي أكل الخبز.. لا بد من التضحية يا سعيد.. أشتغل أحيانا.. أتعتل أحيانا.. كل شيء على ما يرام.. ليس لديّ قلق من ناحية اللقمة⁶.

ولأجل المشاركة في التنظيم السياسي اختفى قاسم¹، وربما مات². ولكن من هو القاتل؟ أكدوا أن الذي قتل قاسم اثنان: فرنسا والحكومة. ليست فرنسا بالذات، بل عملاءها. ليست حكومة

¹ أنظر المرفأ البعيد: ص 154.

² أنظر المرفأ البعيد: ص 86.

³ أنظر المرفأ البعيد: ص 143.

⁴ أنظر المرفأ البعيد: ص 144-145.

⁵ أنظر المرفأ البعيد: ص 159.

⁶ أنظر المرفأ البعيد: ص 157.

باليد، بل بأيدي زلمها.. هذا واضح³. كما نرى وليد الذي يؤكد بأن الحرية لا يمكن الحصول عليها إلا بالعلم، بالكفاح، بالتصنيع والمقاومة. القتال أيضا حضارة. حين يكون ضد الذين يريدون هدم الحضارة⁴.

نرى في رواية "نهاية رجل شجاع" الوعي أيضا حول التنظيم الساسي ونقابة العمال. بعد أن فهموا الحقيقة بأن الناس يتعبون دون يتغذون، بينما ملتزمو العمل، والمعلمون، والعجوز وزلمه، يأكلون الأطايب. هذه ليست عيشة. وهم يهرمون قبل الوقت ونصف العمال مصابون بفقر الدم⁵. وعندما أصيب راتب بالجروح، وقطع رجله، ولم يهتم بشأنه المسؤول بل أعلن باستئناف العمل "لا فائدة من الكلام، الرجل انقطعت ولا فائدة منها، ارموها في البحر"⁶.

(مفيد)

- وماذا سيحل براتب الآن؟
- سيرسلونه إلى المستشفى الوطني.
- ومن يتحمل النفقات.
- العجوز.
- ومن يدفع تعويض الإصابة؟

¹ أنظر المرفأ البعيد: ص 186-187.

² أنظر المرفأ البعيد: ص 197-200.

³ أنظر المرفأ البعيد: ص 204-205.

⁴ أنظر المرفأ البعيد: ص 398-399.

⁵ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 283.

⁶ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 287-288.

- لا أحد.

- (سعيد) قلت:

- كيف لا أحد؟ هذه إصابة عمل.

قال:

- حين لا تكون هناك حقوق، وقوانين تضمن هذه الحقوق، تبقى المسألة مزاجية. قد يدفع العجز تعويضا وقد لا يدفع، المسألة على مزاجه¹.

تقدم رواية " الرجل الذي يكره نفسه" صورة المناضلين ووعيم أيضا. لأن الكلمة في .. الوطن العربي لا تطعم خبزا، ولا بد لصاحبها أن تكون له مهنة أو وظيفة.. لأن الإدارة لا تؤدي مسؤولياتها². والصحافة سلطة أيضا فمن يملك صحيفة يملك سلطتها، وهذا ينطبق على الإذاعة والتلفزة أيضا³

كذلك في "علبة التبغ" ابراهيم بعد أن أعتقل حسني الزعيم يضطر أن يغادر البيت لأن رجال الشرطة يبحثون عنه، فيذهب إلى الخارج ويلتمس إلى السيدة زكية غرفة يسكن في الطابق الثالث في غرفة الغسيل لضيق الدخل.. لا يظهر هويته على الآخرين بأنه مناضل ويفضل أن يبقى وحيدا، لأن الخطر يلاحقه.

الثورة والمقاومة في روايات حنا مينة

¹ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 290.

² أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 69.

³ أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 70.

بقايا صور: نجد في هذه الرواية بأن الناس يواجهون الظلم ويقاومونه بنواحي شتى. كما نعرف بأن الأبطال الثانوية لروايات حنا مينة يلعبون دورا مشكورا في أداء مهمتهم. فنرى زنوبة تظهر جرأتها أما الدروك.

- أنت أيضا تسرقين حبوب السيد!؟

- قالت زنوبة:

- أنا لم أسرق.. وأنت ماذا تظن نفسك؟ إله؟ لماذا تحبس الناس تضربهم؟ وهذا المجرم

إلى جانبك .. أنا لي حساب معه .. حساب قديم يعرفه، ولا تظن أنني أنسى.. سأقتله

بيدي، ولتشهد عليّ الضعية كلها..

- يا عاهرة...

- عاهرة؟ وزوجتك..؟ وزوجته..؟ آه يا أزواج العائبات!

- نحن؟

- وحكومتك أيضا!

- تشتمين الحكومة؟

- وأشتم السلطان نفسه... يدكم وما تطول¹.

كذلك نجد شجاعة الفلاح أمام جاوش عندما قام بإيذاء الفلاحين، وعندما يأتي بفلاح وهو " كان مكبلا، حافيا، عجوزا، وقد استجار طالبا الرحمة لشيخوخته" فجزه الجاوش:

¹ بقايا صور: ص 351.

عندما سرقت المخزن لم تكن تحس بالشيخوخة أو تخجل منها.. أنت خبأت الحبوب في بيتك،
فقل لنا من الذي جاء بهذه الحبوب؟

اعترف باسم أحد الفلاحين، فقال الجاوش:

- والآخرين؟ شركاؤه؟
- لا أعرفهم .. والله لا أعرفهم .. كنت جائعا.. قالوا لي خذ هذا الكيس وضعه في بيتك..
أعطوني قليلا منه... كنا جياعا فأكلنا، نعم يا سيدي كنا جياعا، ثلاثة أيام لم نذق
الطعام..

- تأكل مال الحرام؟
- وماذا يفعل الجائع؟
- صاح الجاويش:
- يموت ولا يأكل المال الحرام..
- صاح أحد الفلاحين فجأة:
- لماذا لا تقولون هذا لأنفسكم؟ أنتم تأكلون الحرام والحلال.. لم تبقوا في الضيعة على
بيضة أو دجاجة!

- يا ابن العاهرة، صاح به الجاويش، أنت رأس البلية.. أنت رأس الأفعى..

قال الفلاح وكان موقوفا قد ضرب لتوه:

- قل عني ما تشاء.. أنا سرقت المخزن. قلت لكم سرقت ولا أخاف.. أطعمت أولادي..
افعلوا ما تريدون..

- نعمل ما نريد... انتظر يا ابن الكلب .. أنت تعرف من أنا ..

نبر فلاح آخر:

- نعرف من أنت.. تتمرر علينا لأنك ابن حكومة. لو كنت مكاننا..¹

وفي نهاية هذه الرواية نرى جراً زنوبة على الرغم من أنها امرأة، ترتفع السقف و تشعل النار في المخزن بعد أن تهرب من قبضة الدرك، وتحرض الرجال على أن يفعلوا مثلها، وتطلب منهم أن يحرقوا السيد أيضا ولا يدعوهم يهرب². وهي تظهر شجاعتها وتعانق الموت على سبيل هذا، فبعد هذه الحادثة يطلق دركي من وراء إحدى الأشجار رصاصة باتجاه السلطح، ومع "صرخة خرجت كالزئير دوّت فوق جميع الصرخات، تهاوي جسم زنوبة كخرقة أطارتها هبة ريح شديدة³.

المستنقع: نجد في هذه الرواية بأن أهل القرية يقاومون الظلم ويخرجون معا لمواجهة. وينظمون حملة انتقامية ردا على ظلم زلم خواجه اسكندر عندما طرودا أهل القرية من أخذ

¹ بقايا صور: ص: 354-355.

² بقايا صور: ص 357.

³ أنظر بقايا صور: ص 358.

الأشياء من القمامة، ويوما داست الخنازير على رأس طفل صغير فنفر الدم من فمه ومات¹،
فخرج الناس بالعصى والفؤوس والرفوش والقضبان الحديدية على أملاك الخواجة اسكندر².

كما نرى فائز الشعلة يشارك في الثورة ومقاومة فرنسا، والناس...زعموا أنه هو الذي يوزّع
النشرات ضد الفرنسيين الذين جن جنونهم فعمدوا إلى ملاحقته، وزعموا أيضا أنه يعقد
اجتماعات مع بعض الرجال في المغائر على ضوء الشموع. وقالوا إنه هو من يبث الدعاية في
الحي، ويعمل لطرد الفرنسيين، ويريد توزيع أملاك الأغنياء على الفقراء³.

فواجه المشاكل الشتى في هذا السبيل وفي السجن، كبلوه بالحديد واستجوبوه بعد تعذيب شديد
لكنه لم يعترف بشيء، فساقوه إلى حلب وهناك كانوا يحمون "الصاج" الحديدي ويجلسون
عليه، كما أنهم قلعوا أظافره، ومع ذلك رفض أن يبوح بأسماء رفاقه، وقال انه هو المسؤول
عن توزيع المنشورات وتعليق الرايات في أول أيار، فحكموه بالسجن سنتين، ثم أطلق سراحه
فعاد إلى اسكندرونة، ورجع يعمل في البحر ويحرض العمال على تشكيل "السندیکا"⁴.

فنرى في هذه الرواية بأن العمال على الرغم من أنهم أصحاب عيال ناضلوا .. اعتقلوا وعذبوا
وبعضهم ماتوا تحت التعذيب أو في السجن، و بعضهم حُكم عليه بالإعدام، لكن الحركة لم
تتوقف، صارت لهم "سندیکا"⁵. كانوا يتعلمون من الأيام، وكانت الحروف، على ظهورهم،

¹ أنظر المستنقع: ص 62.
² أنظر المستنقع: ص 62-63.
³ أنظر المستنقع: ص 247.
⁴ أنظر المستنقع: ص 249-250.
⁵ أنظر المستنقع: ص 254-255.

مكتوبة بالسياط لا بالأقلام، وكل همهم، في الكفاح الطويل الذي خاضوه، أن يوقظوا الوعي في العمال، وأن ينظموهم في نقابات¹.

كما نري الوعي الساسي في عامة الناس عندما قررت الحكومة قطع جميع الأشجار! " بعد أن كتب حنا مينة اسم لينين على الأشجار، فلا مفر منه فقرروا لمقاومة الحكومة ولو أطلقت عليهم النار².

فأدركت الحكومة بأن هذا الاسم قد أصبح منقوشا لا على الأشجار والجدران فحسب، بل على قلوب الذين يريدون لأوطانهم الحرية، ولشعوبهم السعادة، ومن المستحيل إطفاء الشمعة التي أنارت جانبا من ظلام الحياة، كما من المستحيل محو الاسم أو الفكر أو الايمان الذي تغلغل في الصدور بأية طريقة وأية أداة³.

وقام الناس بالإضراب للحصول على حقوقهم والحرية في المدينة، ... وأقبرت الأسواق لم يبق في الشارع إلا جموع الرجال والأولاد الذين يتقدمون تحت الرايات واللافتات باتجاه السراي⁴.

وكان فائز الشعلة من طليعتهم لقيادة الإضراب والمظاهرة... وفي باحة السراي ... صعد فايز الشعلة على كتف أحد الرجال وراح يلقي خطابا والمتظاهرون يصفقون... وكان هناك ترجمان ينقل كلام الخطيب من العربية إلى الفرنسية⁵. وأهل الفتى يرددون لازمة "بدنا شغل وبدنا

(1) أنظر المستنقع: ص 258.

(2) أنظر المستنقع: ص 288.

(3) أنظر المستنقع: ص 290.

(4) أنظر المستنقع: ص 300.

(5) أنظر المستنقع: ص 300.

خبز" مع الرجال وكان الخطيب يذكر الاستعمار، وعندئذ تتعالى هتافات "يسقط" فإذا ذكر سورية أو الاستقلال تتعالى هتافات "يعيش"¹. نتيجة هذه المظاهرة في نفس المساء اعتقل فايز الشعلة وآخرون. فقام الناس بالاحتجاج².

ولكن في هذه المظاهرة نجد فقط الفقراء يطالبون حقوقهم³. الفقراء لا يتمتعون بخيرات البلاد... ولكن الفقراء يريدون أن يعملوا أيضا، يريدون أن يعملوا ويأكلوا، وعندما لا يجدون العمل ولا الأكل فعندئذ يثورون⁴. كما نرى المقاومة بشكل المنشورات في السر و... فيها توعية للعمال، ودعوة لهم لإنشاء النقابات وتحقيق مطالب الشعب وطرد الفرنسيين⁵.

أما فائز الشعلة فيظهر شجاعته وجراته حتى النهاية وعندما يأتي من السجن بعد أطلق سراحه يقدم المظاهرات ويعقد الجماعات في الحيّ و يحث الناس من جديد للنضال والمقاومة مؤكدا بأن اللواء عربي بأكثريته ويجب المواجهة للحفاظ عليه⁶.

القطاف: نجد في رواية "القطاف" الجزء الثالث من ثلاثيات حنا مينة بأن الناس يقاومون الظلم ويظهرون شجاعتهم أمام الجبر. "وما ينفع الهرب... الأفضل أن تدافع عن نفسك، أن تقول الحقيقة، والفلاحون شاهدون⁷.

¹ أنظر المستنقع: ص 301.

² أنظر المستنقع: ص 302.

³ أنظر المستنقع: ص 304.

⁴ المستنقع: ص 328.

⁵ المستنقع: ص 264.

⁶ أنظر المستنقع: ص 433.

⁷ أنظر القطاف: ص 206.

ونرى بأن الفلاحين يدافعون عن حقهم ويقاومون جبر أصحاب الحقول والمسؤولين، عندما يتهمون بدور بالسرقة "... من يعمل في المذبح من الذبح يأكل..¹ " بأن هناك فرق بين ما يستحقون وبين ما يأخذون². كما تقول أخت الفتى "...الظلم يولد الرغبة بالانتقام.. إذا جرت على الجبان صيرته شجاعا، وهؤلاء الفلاحون ليسوا جبنا³، وأنهم... سيعرفون أن الإنسان لا يموت لمجرد أن السادة يريدون له الموت، وأنه قادر على المقاومة، وعلى الصبر بحقد يتغذى من ذاته، وقادر أن يفهم ويتفاهم ويعيش ليوم يخرج فيه وهو يطلب ثأرا لا يدري متى يدركه⁴.

ولكن نرى في هذه الرواية بأن الوعي السياسي الكامل مفقود في أكثرية السكان إما لا يفهمها أو يفهما ولكن لا يقترب منها ويؤمنونها أن لها أرباباً هم الأغنياء.

"... إذن كانت ثمة ضرورة أن يعرف الناس، الشعب، الفقراء خاصة، أن السياسة داخلية في كل شيء، من الرغبة إلى أيما سلعة يبتاعونها، وأن هذه الخشية من السياسة لا موجب لها، وهذا الجهل السياسي عيب إساءة إلى أنفسهم، وإلى فهمهم وموقفهم من الحياة كله"⁵.

المصاييح الزرق: هذه الرواية تصف جريس المختار بأنه ذئب وحمل في آن واحد " يستطيع، عند اللزوم، أن يعكر الماء ويتهم سواءه بتعكيرها⁶. أما جوابه المفضل "الظروف استثنائية"

¹ القطاف: ص 266.

² القطاف: ص 266.

³ القطاف: ص 284.

⁴ القطاف: ص 150.

⁵ أنظر القطاف: ص 202-203.

⁶ المصاييح الزرق: ص 69.

وكانت هذه الظروف الاستثنائية تعنى السكوت عن كل شيء: الغلاء والبطالة وفقدان الخبز والكايز وتعسف الحاكم وظلم المستشار¹. وكانت هناك فئات بسيطة ساذجة من السكان، تجهل حقوقها وتتخدد بسرعة عن هذه الحقوق، وكان المختار يستغل بساطة هؤلاء فيخدعهم وهو يبتسم شيطان من بين أسنانه الصفراء²، ووضع مختار أمام مكتبه لوحة بخط فارسي جميل "القناعة كنز لا يفنى"³.

نرى الأب في هذه الرواية بأنه يفهم حقيقة سوء إدارة الأعمال بأنهم يخدعون عامة الناس ولا يؤدون واجباتهم بطريق سليم. أما فارس بطل الرواية، فيقاوم الظلم للأخذ على الحقوق وبسبب الشجار بينه وبين حسن حلاوة الفران يدخل في السجن⁴، حيث قضى سنة ونصف وعاش حياة حياة صعبة⁵. كما أؤذي السجناء الآخرون من نواحي شتى من قلع الأظافر وغيرها ومن بينهم بينهم عبد القادر"سألت دماءه بسبب تهمة سياسية وجهت إليه في الماضي"⁶. ولكن على الرغم من كل هذه الايذاءات لا يستطيعون تخميد النار التي نقشت في أذهانهم من أخذ الثأر والمقاومة فنرى المعركة في السجن- نتيجة الجرد- فعبد القادر يقوم بمعركة- بأن في السجن يؤتى الجرد بدل اللحم⁷.

¹ المصاييح الزرق: ص 70.
² المصاييح الزرق: ص 71.
³ المصاييح الزرق: ص 75.
⁴ المصاييح الزرق: ص 156.
⁵ المصاييح الزرق: ص 156.
⁶ المصاييح الزرق: ص 156.
⁷ المصاييح الزرق: ص 160.

فتشكل وفد للاحتجاج، وكتب عبد القادر عريضة، لكن مدير السجن مزقها والقها في وجوه مقدميها، وإزاء ذلك بدأ يهيء للإضراب.. صار يتغيب عن القاوش .. ينسل إلى القواويش الأخرى، ويتحدث مع السجناء، ويشرح لهم ضرورة المطالبة بحقوقهم ..ولما رفضت الإدارة هذه المطالب، نفذ الإضراب عن الطعام، وتسرب الخبر إلى الصحافة، فاضطرت الإدارة إلى التراجع وتحسين الطعام¹.

نرى خلال هذه المحادثة شجاعة عبد القادر لمقاومة الظلم:

مدير: انتبه! أنا أعرف من أين جئت وماذا تفعل!

- معرفتك متأخرة .. في اضبارتي أكثر مما لديك، فأذهب واطلع عليها.

- مجرم.. لم يبق سجن إلا عرفك.

فقال عبد القادر:

أن يسجن الإنسان خير من أن يسرق طعام السجناء².

فنرى بأن السجناء على الرغم من أنهم مقيدون بين الجدران لا يقعدون واضعين أيديهم على خواصرهم بل يصقلون أذهانهم ويغتنمون بهذه الفرصة السانحة لتنمية أفكارهم للمقاومة

¹ المصاييح الزرق: ص 160

² المصاييح الزرق: ص 161.

ويتعلمون من الآخرين طرق المواجهة كما تشجعهم العبارات المنقوشة بالدم " الحرية"¹، و
"المشقة أرجوحة الأبطال"²

و " وللحرية الحمراء باب بكل يد مزرجة يدق"³

على جدران السجن وتنتفخ في أرواحهم رغبة الثأر في الحصول على الشيء المحبوب هو
"الحرية".

فأبطال حنا مينة هم شجعان يعلون، يفضلون الموت على الذلة كما يقول عبد القادر على رؤية
وجه الفرنسي " الموت أشرف من رؤية وجهك يا نذل"⁴. وهو كان عاملا في الدباغة ثم سجن
لأنهم ضبطوا عنده كتباً ممنوعة... التي كانت ضد الفرنسيين.. بل ضد المتفضين⁵. يقول عبد
القادر " كن أقوى من الموت تكن أقوى من الخوف"⁶، الشيء المهم هو الإيمان " لا تصدق أن
الإنسان يولد شجاعاً أو جباناً. الإيمان .. هذا كل شيء! أنا مثلاً كنت أخاف، أما الآن .."⁷.

أما الأب يقول "تذكر أن موت والدي ليس بالمسألة التي تستحق الاهتمام، لكن إعدامه
موضوع آخر، في حالة كهذه لا بد من الانتقام"⁸، ويجاهد للكرامة " اللقمة ليست هدفاً،

¹ المصاييح الزرق: ص 152.

² المصاييح الزرق: ص 153.

³ المصاييح الزرق: ص 154.

⁴ المصاييح الزرق: ص 130.

⁵ أنظر المصاييح الزرق: ص 161-162.

⁶ المصاييح الزرق: ص 154.

⁷ المصاييح الزرق: ص 155.

⁸ المصاييح الزرق: ص 136.

والأنجيل يقول "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". ثم ، الكلب يجد لقمته أيضا، لكنه يجدها في الفضلات. أما الإنسان الشريف فيسعى إلى اللقمة والكرامة معا¹.

ولم يقصر محمد حلبي في المشاركة في هذا المجال " اللحم لن يُباع غدا أنا لن أفتح، ولن أفتح السوق كله. إضراب، كل الناس سيضربون وسنرتدي "البيجامات" تحت الثياب². فأنهم يفضلون الموت على العبودية ""الموت ولا فرنسا"³.

الثلج يأتي من النافذة : نرى في هذه الرواية دور المناضلين السياسي واضحا من نواحي شتى من نقابة العمال والعمل التافه لأجل العيش وكتابة المنشورات في الخفاء وتوزيعها بين الناس لأجل الحصول على الحقوق والحرية. فنجد بأن المناضلين يقرأون الكراريس الممنوعة في مغادرة بعيدة في الجبل وفي الخفاء يُعذبون من قبل الفرنسيين باقتلاع أظافرهم واجلاسهم على "السياج" الحمى⁴، ولكن نقشت هذه الأشياء في أذهانهم يصعب أزالتها.

إن الساسية في كل إنسان، خليل (بطل الرواية) من أحد المناضلين، أعتقل وأرسل مع بعض العمال إلى حلب، لأنه حسب تعبير أمه " وضع يده في النار" ولما سأل فياض والده عن سبب اعتقال خليل قال:

- لأنه سنديكاتوا!⁵

¹ المصاييح الزرق: ص 215.

² المصاييح الزرق: ص 141.

³ المصاييح الزرق: ص 141.

⁴ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 45-56.

⁵ الثلج يأتي من النافذة: ص 43-44.

وما هي النار التي تلعب بها؟

- لا تعيش في البيت؟ ألا ترى الاجتماعات؟¹

و بعد سنتين ونصف عندما عاد خليل من السجن كان في لسانه كلمة جديدة "الاشتراكية" لا يفهمها أحد حتى فياض². خليل كرس حياته لأجل الوطن، أصبح يدخل السجن في كل وقت، وصار الاشتراك في المظاهرات والإضرابات جزءا من حياته³، لأن الحكومة تخدعهم بالعود⁴، وأربع ليرات بدون اجازات أو ضمان، وبدون تثبيت، أجر لا يكفي العامل وحده، فكيف يصنع بعائلته؟⁵

فهو يعقد المجمع، ويكتب العرائض، ويدور مع أصحابه على الصحف، ويقابلون الوزير، ويطالبون بحقوقهم. فهو يناضل من ثلاثين سنة كما تقوله الأم لنشر الوعي في الناس وإزالة الظلم⁶. وهو يؤمن بإزالة الظلم إذا حارب الناس⁷.

كما نرى في روايات حنا مينة بأن الأشخاص الثانوية لها أهمية قصوى في سرد الرواية يءدون دورا ممتازا في حياتهم الخاصة والعامة. على سبيل المثال أم بشير على الرغم من أنها مرأة تلعب دورا مهما في المظاهرة وهي تقول: " قبل عشرين سنة.. نعم قبل عشرين سنة.. مشيت على رأس النساء في مظاهرة عمال الريجي.. كنت أحمل العلم.. وهاجمنا

(1) الثلج يأتي من النافذة: ص 113.

(2) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 46-48.

(3) الثلج يأتي من النافذة: ص 49.

(4) الثلج يأتي من النافذة: ص 50.

(5) الثلج يأتي من النافذة: ص 222.

(6) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 306-307.

(7) الثلج يأتي من النافذة: ص 83.

الدرك.. فماذا فعلت؟ تراجع؟ خفق؟ لا والله.. مشيت لقدام .. ولما بدأ الضرب ضربت..
وجرحت، فحملني العمال على الأكتاف .. ولاحقتني البوليس فاخترت مثل فياض الآن.."¹.

أما فياض بطل الرواية فهو يتشرد من بلده ويعيش في الغربة لأجل الوطن والحرية. ويشغل في الساسية نتيجة الكتب " .. صدق منامي، ابنك جن بالسياسة، كنت أعرف أنه سيجن"².
يعيش في كرم الزيتون وهو في كل مكان مطارد³. يتعلم أشياء كثيرة عن النضال بمساعدة خليل و كذلك بعد قراءة الكراريس الممنوعة، فتتقش في ذهنه لوحة غريبة ومثيرة إلى درجة أنه كان يراها مرسومة على كتبه جدران المدرسة والبيت⁴.

فياض لا يستقر في الغربة أيضا ولا يجد مأوى يسكن فيه بأمان فيضطر لتغيير اسمه بـ ميشيل⁵، ويعمل في المطعم الجبل ميتر⁶، وليلا يعمل بكتابة المقال في الصحف والجرائد⁷، والجرائد⁷، عمل النهار لأجل اللقمة، وعمل الليل لأجل الفكر، وأني سعيد جدا بعلمي الثاني⁸.
الثاني⁸. فهو يكتب لأجل القضاء على حكومة الرجعيين⁹.

ولم يكتف على هذا بل غير اسمه بـ نادر من جديد وذهب إلى بيت جوزف وزوجته هناك حيث يعمل ككاتب كما يصفه هو نفسه هذه المهنة: " الكاتب إنسان غير عادي.. شاذ. أبرز شيء في

¹ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 102.

² أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 122.

³ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 132-133.

⁴ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 45-46.

⁵ الثلج يأتي من النافذة: ص 51.

⁶ الثلج يأتي من النافذة: ص 90.

⁷ الثلج يأتي من النافذة: ص 93.

⁸ الثلج يأتي من النافذة: ص 146.

⁹ الثلج يأتي من النافذة: ص 221.

الكاتب انه شاذ!¹ كما يشتغل كعامل بناء في ورشة "كرم الزيتون" حاملا اسما آخر سليمان .. انتهى عهد "المدارس والمكاتب" .. قطع المعبر البارد بين ما كان وما سيكون، ووضع حدا للخور المعذب². يقول فياض في نفسه: " كل هذه الدنيا وليس لي مكان أسند رأسي إليه، ماذا جنيت إذن؟ ولماذا أنا معاقب؟"، قضى ليلة الأولى وهو يرتجف من البرد³. كما هو يضطر لبيع ساعته الثمينة ويعرضها على زملائه: " أرجوكم ساعدوني في بيعها لأنني بحاجة إلى بعض المال"⁴. "يا فياض! يا فياض! يا حديدة ألقيت في نار، أصمد، ولسوف ينصهر المعدن"⁵.

وعندما يفتش رجال الشرطة عن فياض وأصله يأتي التشرذم من جديد ويزعم بالترحال من بيت أبي زوكز: " انتهت إقامتك يا فياض .. اسرع في مغادرة المكان بقدر ما تستطيع...فأنت في سباق مع الزمن .. كل دقيقة لها قيمتها، وكل كلمة لها معناها، فتجنب الابطاء وكثرة الكلام.. ترشف الشاي .. تظاهر بأنك تنهيا للعمل، وانك نسيت الموضوع الذي جاء لأجله⁶. فهو ينسى ينسى

¹ الثلج يأتي من النافذة: ص 139.
² الثلج يأتي من النافذة: ص 202.
³ الثلج يأتي من النافذة: ص 210.
⁴ الثلج يأتي من النافذة: ص 226.
⁵ الثلج يأتي من النافذة: ص 203.
⁶ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 327.

حب دينيز لأنه يفضل القضية عليها التي يعمل لأجلها¹، ويرحل من هنا ولكن بعد ذلك يأتي خبر مدهش بأنه أعتقل، جاء الخبر في الصحيفة مع صورته والمنشورات والمطبعة ألتى كان يعمل بها في الخفاء²، مع المناضلين الآخرين³.

ولكن الجهد استمر حين لا يسمحون له بالنشر في صحفهم ومطابعهم علنا، يضطرون إلى النشر في الصحف والمطابع السرية .. مئة مرة كمشوا هذه المطابع، وأحدثوا هذا الضجيج، ومع ذلك بقيت المطابع، وبقي الناس يطبعون⁴. جوزف صديق فياض يعبر عن جهد المناضلين: " الأحياء لا يخيفون الأموات يا أم خليل .. وصاحب المبدأ لا يخاف الأموات ولا الأحياء .. غوركي نام في المقبرة⁵. إذا لم يخف الإنسان الموت أصبح كل شيء سهلا عليه⁶.

الياطر: يعالج حنا مينة في هذه الرواية الوعي السياسي خلال أبطاله وخاصة زكريا المرسنلىرابط الحوت، رابط الحوت في الماء، الراقص على ظهره في الماء، الذي تحدثت اسكندرونة كلها عن فعلته، ونشرت جريدة "اللواء" صورته مع الحوت⁷.

ولكن نجد الناس في هذه الرواية بأنهم لا يقاومون الظلم والاستبداد بل يفرون بدون مواجهة الاحتلال عندما يقبض الأجانب على خيرات البلاد "... كان الصيادون يركضون بقواربهم

(1) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 344-345.

(2) أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 348.

(3) الثلج يأتي من النافذة: ص 375.

(4) الثلج يأتي من النافذة: ص 359.

(5) الثلج يأتي من النافذة: ص 358.

(6) الثلج يأتي من النافذة: ص 358.

(7) أنظر الياطر: ص 9.

كصيادين الجهلة في الغابة من جهة لأخرى دون أن يعرفوا مواطن الصيد وطرائقه"¹.
فمرسلي في البداية بعد الشجار مع زخريادس يفرّ من المدينة ويقضى حياته في الغابة مع
الوحوش ولكن عندما علم بأن المدينة جاء فيها حوت جديد لم يستطع الانتظار، كما يتضح من
هذا الحوار:

- ماذا حدث؟ ممّ تخافون؟
- من الحوت، صاح بعضهم، ظهر حوت جديد في البحر..
- ولماذا هربتم إلي هنا؟ كان الأفضل أن تدخلوا الميناء.
- لا نستطيع دخول الميناء..
- تصطادون بدون رخصة إذن؟
- سكتوا..
- وأين الحوت..؟
- هناك.. رأيناه بعيوننا..
- كبير؟
- أجاب صياد يافع:
- بحجم المركب..
- ولم يقتلوه؟

¹ (الباطر: ص 290).

- من يقتله؟ هربت المراكب والقوارب من وجهه.. وفي "القشلة" ضربوا "البرزان"..
سمعناه بأذننا.. الناس يتراكون على الشاطئ والميناء تعج بالخلق..

(المرسلي) قلت في نفسي "ليهرب أولاد الإبرة.. ليموتوا جميعا..

هؤلاء حثالة، ليسوا بحارة ولا صيادين".

قال صياد كهل:

- إذا دخل الميناء، خرب بيوت الناس..

فقال آخر:

- دخل وانتهى الأمر.. سيضرب بالصخور كما فعل الحوت في المرة الماضية.

- وعندئذ يدوخ.. يشحط على الرمل فيربطونه..

- من يربطه؟ صاح الفتى. من يجرؤ على الإقتراب منه؟

- الرجال؟

- واين الرجال؟

ظل السؤال بغير جواب. قلت في نفسي: "آه يا مدينتي التي لم يعد فيك رجال!" فكرت:

"حقا خلت مدينتنا من الرجال؟"¹.

(...)

¹ أنظر الياطر: ص 290-291.

- الحوت مخيف يا أخواني ولكن الخوف منه مخيف أكبر.. عودوا إلى المدينة، إلى الميناء واشتركوا في حصاره، وفي قتله¹.

قال للصادين:

- لنذهب إلى الميناء يا أخواني!
- وماذا نفعل بحق الله؟ أجاؤني.
- نقتل الحوت..
- نظر بعضهم إلى بعض..
- كيف؟
- كما يقتلون الحيتان.. كما قتلنا الحوت في الماضي.
- لا نستطيع .. لن نغامر..
- ونترك الحوت يخرّب الميناء..
- لتدير جماعة الميناء أمرهم..
- وإذا لم يفعلوا؟
- ماشأنا نحن؟
- أستم صادين؟
- بلى، ولكننا لن نغامر..

¹ (الياطر: ص 293).

- والقوارب التي في الميناء؟

هزوا بأكتافهم. كانوا أنذالا فهزوا بأكتافهم.. لقد نجوا بأنفسهم وقاربهم وهذا هو المهم.. ما كانوا رجالا ولا بحارة.. كانوا نساء.. وقد استثاروني، فصحت بهم:

- احلقوا شواربكم إذن.. احلقوها يا نساء بشوارب! ¹

فنرى الصيادين في أول الأمر لا يستعدون لمقاومة الحوت ولكن عندما سار زكريا المرسلي إلى المدينة لمواجهة الحوت سار الآخرون نفس الطريق: " وسمعت بعضهم ينادني.. ثم تبعني واحد منهم، وتبعني آخر، وآخر.. وركضنا جميعا باتجاه الميناء" ².

حكاية بحار: تقدم هذه الرواية المقاومة والنضال من قبل أبطال الرواية. وهي الجزء الأول من ثلاثيات البحر. يغامر سعيد حزوم ابن صالح حزوم لأن يعثر على جثة ابيه الذي اختفى من المدينة وزعم الناس بأنه ميت. ولكن نرى في هذه الرواية بأن الوعي كان ليس ناضجا... وحركة الحيّ العفوية كان دافعها التمرد على الظلم دون معرفة بأسبابه ودوافعه ³.

ويقول صالح: "من الضروري أن تكون في الحيّ مدرسة.. أنا سأعلم أولادي.. أولادنا سيتعلمون، وأولادهم سيتعلمون أكثر.. كل يوم أفضل من الذي قبله.. الحرب لن تدوم إلى الأبد" ⁴. نراه يكره الأغواث ويستشعر ضرورة كبيرة في التضامن مع زملائه، أينما عمل،

¹ أنظر الياطر: ص 294-295.

² أنظر الياطر: ص 296.

³ أنظر حكاية بحار: ص 226.

⁴ حكاية بحار: ص 180.

ويعتبر الحيّ بيته. إن الحيّ كله أسرته. وهو مستعد للموت دفاعاً عنه ضد غارات الأحياء الأخرى¹. فهو كل ما يفعله لأجل الحي، في سبيل حمايته، سلامته، دفع أذى الأتراك عنه. هو ليس متعصب. يحب العمال، كل العمال، يحب كل الناس، ويريد العيش مع الجميع².

يقول صالح حزوم: "لا أحد يخاف.. الشجاع نفسه يخاف.. لكنه يقاوم.. هذا هو الفرق.. قاوموا أينما كنتم.. هذا ما علمتني إياه الحياة"³. "ليس المهم ألا نخاف، المهم أن نقاوم الخوف. ليس المهم ألا نتعب. المهم أن نقاوم التعب"⁴. يقولون "النساء لا تلد مثل صالح"⁵.

البحر هو الجبار الأعظم ولكن الانسان هو الجانب الآخر. الإنسان أقوى الكائنات ... على الانسان أن يغوص حتى النفس الأخيرة⁶. والإنسان حين يصير في قلب الخطر، يسيطر الخوف⁷.

صالح حزوم يأتي في نصيبه سنة كاملة من السجن بدون سبب لأنه دافع عن نفسه ومدينته⁸، فزعموه الأتراك قائد الثورة⁹. ولكن إذا ازداد ظلم الأتراك والفرنسيين بدأ محرضوا الثورة يحثون الناس على المقاومة، الذل واحد والعبودية واحدة، وجاء الجوع فطرح الكيل، ودفع

¹ أنظر حكاية بدّار: ص 160-161.

² أنظر حكاية بدّار: ص 208-209.

³ حكاية بدّار: ص 145.

⁴ حكاية بدّار: ص 343.

⁵ حكاية بدّار: ص 161.

⁶ حكاية بدّار: ص 347.

⁷ حكاية بدّار: ص 169.

⁸ حكاية بدّار: ص 205.

⁹ حكاية بدّار: ص 206.

الجميع إلى التمرد، إلى الاستهانة بالموت، إلى الاستجابة لكل نداء يدعو إلى الثورة، إلى الخروج على القانون، وتحطيم حق الملكية المقدس.

وإنضم في هذه المظاهرة الفقراء في الأحياء الأخرى، وجاء العمال والبحارة من كل أنحاء المدينة. وراح قادة المظاهرة يطلقون الهتافات، ورفعوا يافطة كتبوا عليها "العمل والخبز" ومضوا عبر الشوارع إلى مثر المستشار¹.

يبدو لنا صالح حزوم بأنه لا يخاف لا من الفرنسيين ولا من الأتراك. يحمل السلاح مع الجماعة ليلا ضدها. فقتل حارس في السكة الحديدية . وقتل خفيران في الميناء. وانتشر الخبر ذات صباح أن ضابطا فرنسيا لقي مصرعه، وقيل إن جثمانه أرسل إلى فرنسا. وعندما يقتضى الحاجة يهاجم على أكواب الحبوب مع عصابته لأن الناس يموتون جوعا، ... "وأن الموت لن يوقفهم عن انتزاع لقمة أطفالهم من أشدائه"².

ومرة عندما ازداد الجوع في الحي قال صالح حزوم لعصابته: "قوموا معي، وجدت حلا لمشكلتنا. لن نموت ونحن مكتوفو الأيدي.. الجائع يقتل أو يقتل، وكله سواء.. الحياة تجعل الإنسان ذنباً.. وهذا أفضل.. أن نكون ذئابا ونرمى بالرصاص خير من أن نبقى جياعا كالكلاب، يهرون علينا بالعصي"³. المواطن في بلد محتل لا قيمة له⁴.

¹حكاية بدار: ص 264-265.

²حكاية بدار: ص 270-271.

³حكاية بدار: ص 291.

⁴حكاية بدار: ص 311.

كما نرى سعيد حزوم يريد أن يتزين نفسه بصفات الأب كما هو المعروف في الحارة "أنت تعرفه، إن تكن من صلي فانتقم لي.. انتزع جثتي من أشداق الماء ووراها الثرى كما يليق بالابن أن يفعل بجثمان أبيه.. لا تقل البحر مخيف، الإنسان مخيف أكبر، لا تقل البحر جبار، الإنسان جبار أكثر، ولا تنتقص من احترامك للبحر، لكن لا تنتقص لنفسك.. صارع.. هذا هو قانون الحياة، الصراع قانون الحياة، وهو يبدأ بالصغيرة وينتهي بالكبيرة¹. وفي نهاية المطاف نرى الشجاعة في سعيد حزوم بأنه مستعد للدخول في نضاله ضد الفرنسيين كما فعل أبوه من قبل².

الدقل: أما في رواية "الدقل" فنرى هذه الظاهرة ماثلة أيضا. البحر لا يقتل الشمس، لا أحد يستطيع قتل الشمس، وغاية جهد الماء أن يحجبها ثم لا تلبث أن تظهر من الشرق³. سعيد يسجن في سجن حلب لأنه عندما عثر على جثة فرنسية ودعها تذهب في الماء لأنها ليست جثة أبيه. وهذه جريمة بحق الإنسانية الدافع إليها الكره والوحشية ومقاومة السلطة الفرنسية، وإن المتهم وجد الجثة ولم يحافظ عليها، ولم يخبر عنها، بل مَلَّ فيها ودفعها ثانية إلى البحر.. هذا جرم إنساني، والقانون لا يتسامح مع الجرائم الإنسانية⁴. فهذا هو جرم سياسي بأنه قاوم فرنسا⁵.

¹ حكاية بدار: ص 313-314.

² أنظر حكاية بدار: ص 282.

³ الدقل: ص 14.

⁴ الدقل: ص 42.

⁵ أنظر الدقل: ص 65-66.

سعيد يتعلم الأشياء الكثيرة في السجن وهو جزء من المدرسة له. الكلمات هنا مخفورة على الظهر، منقوشة على الوجوه، مرسومة على الجدران¹. فيتعرف سعيد على الحقيقة بأن الذين في داخل السجن هم لأسباب مختلفة مصدرها واحد هو اليأس الذي يوحد²هم. يريد سعيد المقاومة والعيش بالحياة الكريمة بأن يكون بحارا لا صيادا.. فالموت في اللجة، خليق بالرجال، أما على الشاطئ فخليق بالكلب"³.

كما نرى الشجاعة في السجناء الآخرين عندما أجاب على وجه الجاويش

سعيد أخونا إذن مرحبا

انتهره الجاويش:

- أغلق فمك أنت.. لا تحشر نفسك فيما لا يعينك.
- دولتك لم تستطع إغلاق فمي.. أنا لست رحمو يا جاويش..
- تهددني يا ديبو؟
- أنا لا أهددك.. عيب.. أنت لست فرنسيا.. كل منا من هذا الوطن..⁴

¹ أنظر الدقل: ص 43.

² أنظر الدقل: ص 88-89

³ أنظر الدقل: ص 134.

⁴ أنظر الدقل: ص 66.

كما يقول برهان ... سنقتله ولو حمته بكل جيوشها.. سنلاحقها حتى إلى باريس". .. ؟ قانوننا ذراعنا.. فرنسا لا تفهم إلا بهذه اللغة. فنرى حب الوطن في دم المناضلين وهم مستعدون لفعل أي شيء لحريته. كما يقول:

خسئوا يا أمي.. في السجن عشرات مثلي.. في الجبال عشرات مثل أبي.. والذين ماتوا أكثر.. فمن أجل أي شيء كل هذا؟ من أجل الوطن.. إذن من يستطيع أن يشمت؟ إرفعي رأسك بنا¹.
ويهم صالح حزوم شيئا فقط في حياته الرجولة والوطن ومن أجلهما يقاتل ولا يطيق الأتراك والأندال². فأنهم لا يريدون فرنسا ومن العبث تحاول هي البقاء وهم يكرهون هذه الكلمة "الاحتلال"³.

أما قاسم وهو سياسي ومناضل ضبط حيث يؤزّع النشرات في أول أيار لأن السلطة لا تريد هذا المظهر من التضامن العالمي بين العمال، هذا خطر عليها⁴. فأظهر قاسم الشجاعة في هذا المجال في هذه المناسبة بدأ يشرح فيها وضع العمال البائس والتحديد بمطالبهم وفي رأسها استقلال سورية وخروج فرنسا المحتلة. فبدأ يزداد عددهم يوما بعد يوم وعاما بعد عام بدأ العمال يفهمون الأشياء بصورة أوضح.. يلتفون أكثر، يتضامنون، يؤلفون حلقات سرية...

¹ أنظر الدقل: ص 94.

² الدقل: ص 96.

³ أنظر الدقل: ص 160.

⁴ أنظر الدقل: ص 203.

يناضلون في سبيل تحرير الوطن وتحقيق العدالة، وفي مقدمة مطالبهم، الآن، أنتزاع حق تأليف النقابات¹.

قاسم يدقّ على حديد بارد ولا يؤمن سوى بالعمال²، فهو ... يضرب حديدا باردا ولا ييأس. يبني حجرا حجرا. ينقل مؤونته حبة حبة. إنه نملة مجتهدة. يعرف ما يريد... على الإنسان أن يريد شيئا. أن تكون له قضية³.

و يتكلم عن حقوق العمال: عندما سعيد يقول عن عمله ..

- وكم ساعة تعمل في النهار؟

- من الصباح إلى المساء..

- هل لك تعويض..؟

- تعويض ممن؟ هنا لا يعترفون بتعويض لأحد، ولم أهتم بهذه المسألة.

نقر قاسم على الطاولة الخشبية وابتسم:

- يجب أن تهتم .من الضروري أن تُحدّد ساعات العمل ويُقرّ مبدأ التعويض.. هذه

حقوق أولية للعمال.

- العمّال لا يطالبون بهذه الحقوق..

- لأنه ليست لهم نقابة.. ولا وعي عمّالي..

¹ أنظر الدقل: ص 204.

² أنظر الدقل: ص 211.

³ أنظر الدقل : ص 213.

- ماذا تعني بالنقابة؟

- السندیکا..¹

ولكن نرى فقدان هذا الوعي... وما نفع العامل والفلاح والبحار والثائر بغير وعي؟ فرنسا عدوّتنا لا لأنها من الفرنج، بل لأنها مستعمرة، وبعض الزعماء معها لا لأنهم يحبون الشقرة والعيون الزرق، بل لأن مصالحهم مرتبطة معها...²

المرفأ البعيد: الموت يأتي مرة واحدة، والإنسان يموت ميتة واحدة³، فالثقة بالنفس ضرورية ضدا في النضال⁴. وأن فرنسا بحجة الحرب، باقية في سورية وهذا يؤدي الي توقيف العمل والبطالة والجوع⁵. أما الزعماء وهم لا يفعلون شيئا لسورية⁶.

نري المناضل **قاسم** إنه بوعي تام بهذه الأحوال السياسية التي تشمل البلاد وقتئذ. ويقوم بالتضحيات في سبيل الناس، لأجل الوطن، ضد فرنسا، ضد الظلم، ولكن المنطق البارد، يدق

¹ أنظر الدقل: ص 207-208.

² الدقل: ص 284.

³ المرفأ البعيد: ص 45.

⁴ المرفأ البعيد: ص 46.

⁵ أنظر المرفأ البعيد: ص 54-55.

⁶ المرفأ البعيد: ص 55.

الحديد، يقول الكلمة وكأنها قدر¹. والانتقام الفردي لا معنى له عنده فيفضل من ذلك أن تنتشر الوعي بين البحارة². لأن القوة هي الملكية³، وبدونها لا يمكن إنجاز أي شيء.

قاسم يؤمن بالنضال للحصول على الحرية ويعمل لأجلها كما يقول لسعيد: "السجين القوي يظل قويا. لا يتغير ولا يشوه. وماذا إذا شوّه؟ كل تشويه، في سبيل الوطن شرف. الأشياء الصغيرة تصنع الأشياء الكبيرة. ما فعلته أنت، ما فعله والدك قبلك، ما فعله الآخرون، كل هذا جيد. مبيت ليلة واحدة في مخفر، الخروج في مظاهرة واحدة، توزيع منشور واحد، كله مفيد. كل صوت احتجاج، كل كلمة مقاومة، كل فعل ضد المحتل، يؤدي، مستقبلا، إلى نتيجة⁴.

هو يساري⁵، وضد ألمانيا النازية⁶. يكرس حياته لتأليف نقابة في الميناء وكذلك في الريجي.. الريجي.. لا أسرة له ولا مسؤولية.. رغيف في اليوم يكفيه... بل تأليف نقابة يساوي أكل الخبز.. لا بد من التضحية... وليس لديه قلق من ناحية اللقمة⁷. والوطنية لا تحتاج إلى علم.. هذا يأتي بالنضال⁸.

يتأثر سعيد بقاسم ويريد الانتقام من القوانين والناس جميعا⁹، ولكنه لا يفهم القضية جيدا بخلاف بخلاف قاسم، يريد النتيجة بالسرعة كما هو ضد فرنسا ولا يحب ألمانيا¹. فهو اشتراكي وقليل

(1) المرفأ البعيد: ص 59.
(2) أنظر المرفأ البعيد: ص 88.
(3) أنظر المرفأ البعيد: ص 93.
(4) أنظر المرفأ البعيد: ص 143.
(5) أنظر المرفأ البعيد: ص 144-145.
(6) المرفأ البعيد: ص 135.
(7) أنظر المرفأ البعيد: ص 157.
(8) المرفأ البعيد: ص 185.
(9) أنظر المرفأ البعيد: ص 68.

الصبر². ولكن النجاح الكامل يتوقف على تطور حركة التحرر الوطني العربية، وتطور هذه الحركة مرتبط بتطور البرولتاريا العربية، التي هي، مثل حركة التحرر، في طور التكون.. وعلى المناضلين أن يتحدوا .. على القوى الوطنية أن تصبح كتلة واحدة³.

ولكن كيف يحدث كله هذا؟ هذا يحدث فقط بالعلم، بالكفاح، بالتصنيع والمقاومة.. والتقدم المستمر نحو المستقبل مع القتال .. القتال أيضا حضارة. حين يكون ضد الذين يريدون هدم الحضارة⁴. فنجد في هذه الرواية بأن الناس يعملون لهدفين أساسيين: مقاومة الاحتلال الأجنبي ووطن حر وشعب سعيد⁵.

نهاية رجل شجاع: مفيد بطل الرواية إنه شجاع لا يخاف من أحد ويعمل بمفرده ولا يبالي

بأحد. هو خُلق للقتال⁶ ولقّب بمفيد الوحش بعد قطع ذنب الحمار⁷.

يتعرف على المنشورات بمساعدة ابراهيم شنكل قريب أمه⁸. فهو يوقظ الناس ويفهمهم حقوقهم وتحركهم للمطالبة بخروج فرنسا و يدافعهم للأعمال النافعة⁹. ولكن هذه الأشياء لا تدخل في مخه، جسمه العملاق خُلق للعراك لم يخلق لنشر الأفكار¹⁰.

¹ المرفأ البعيد: ص 140.

² المرفأ البعيد: ص 390.

³ أنظر المرفأ البعيد: ص 392-395.

⁴ أنظر المرفأ البعيد: ص 398-399.

⁵ أنظر المرفأ البعيد: ص 154.

⁶ المرفأ البعيد: ص 43.

⁷ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 36-37.

⁸ نهاية رجل شجاع: ص 44.

⁹ نهاية رجل شجاع: ص 45.

¹⁰ نهاية رجل شجاع: ص 45.

فبعد التشرّد من البيت يعمل في الفرن مع عبدوش حيث يتعرف على الحقيقة بأن هنا في المدينة "يجب أن تأخذ حقك بالقوة، لا تكن خروفا بل كن ذئبا"¹.

قاتل هو وعبدوش الريفوتة من فئة الشرطة العسكرية في المقهى عندما طلبوا مزيد من النبيذ و"فطمة" وهو الاسم الذي يطلقونه على المرأة العربية². فصار وطنيا، دون أن يفهم معني الوطنية³.

لكن بعد ذلك... رجال الشرطة تمكنوا من إمساكه ومن تقييده، وسوقه إلى السجن،. باللاذقية. وفي السجن، رأى عبدوش وتعانقا، تذكرنا معركتهما، دون أن يعرف الندم طريقه إلى قلبيهما كما يقول "وكنا هو وأنا مزهوي، لأن ما فعلناه كان ضروريا، كان مشرقا، ضد أعداء الوطن، وفي سبيل ردّ الظلم عن مواطن اعتدوا عليه"⁴.

كما يتعرف مفيد في السجن على مناضل وسياسي آخر **عبد الجليل** من جماعة **خليل** الذي يفسر له الأمور إذا يحتاج إلى ذلك، فارتبطت معه صداقة متينة⁵. ورفع شأنه في السجن بكونه سياسيا، فالسجناء هم محكومون لأسباب سياسية تتعلق مقاومة الفرنسي فيشهد مفيد "شجاعة السجناء في السجن، والإضراب والتحريض عليه، وتحقيق هدفهم ما أرادوا من مطالب⁶.

¹ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 59.

² نهاية رجل شجاع: ص 69.

³ نهاية رجل شجاع: ص 70.

⁴ نهاية رجل شجاع: ص 73.

⁵ نهاية رجل شجاع: ص 77.

⁶ نهاية رجل شجاع: ص 79.

وخاصة عبد الجليل يشارك مع السجناء الآخرين لأخذ الحقوق وفي أحد الأيام عندما وجدوا فأرة في الفاصوليا المقدمة طعاما للسجناء أوصى عبد الجليل السجناء بمواصلة الإضراب عن طعام السجن، لأن مسألة وجود الفأرة في الفاصوليا كان معناه سوء الإدارة، وغشها، وسرقتها اللحم، ووضع الجرذان بدله. وبعد الشجار بين الدرك والسجناء وعلى الرغم من مداخلة فرنسا في هذه المسألة بأنها لا أصل لها، نشرت الصحف قصة الفاصوليا والفأرة... فبعد الاحتجاج فازوا بتبديل مدير السجن الذي وعدهم بتحسين الطعام وعدم تكرار ما جرى¹. كما نرى درو الأستاذ ماهر من جماعة عبد الجليل بأنه يجد الوقت الملائم لعقد الاجتماع في السجن².

أما الميناء فهي تحت رحمة ذئب عجوز وهذا العجوز يطّاش إلى درجة يخافه معها حتى الجسور³، حيث أسماك كبيرة تأكل الأسماك الصغيرة⁴. ولكن مفيد بدوره شجاع لا يخاف من أحد حتى ولا عجوز الميناء وهو "حوت، وعظّم الحوت لا يؤكل"⁵. فهو يردّ على مطالبة حليش عندما يدعوه " قلت لك لن أذهب، لست خادم أبيك"⁶.

فهو يريد أن يفعل شيئا مشكورا ويتذكر قول الأستاذ ماهر: " على الإنسان أن يعيش حياتين، في أولهما يجمع التجارب ، وفي ثانيهما ينتفع بما جمع من تجارب"⁷، فعليه أن يكون نسورا

¹ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 79-80.

² نهاية رجل شجاع: ص 83.

³ نهاية رجل شجاع: ص 114.

⁴ نهاية رجل شجاع: ص 126.

⁵ نهاية رجل شجاع: ص 137.

⁶ نهاية رجل شجاع: ص 148.

⁷ نهاية رجل شجاع: ص 160.

إذ أراد أن يحصل على العمل في الميناء¹. لأن أسماك القرش في الميناء، هذه أخطر من أسماك القرش في البحر².

فالحرية هي الحياة أنت حر معناه أنك حي³. ولكن ينهي حياته بنفسه بعد أن فقد رجله لأنه عمل بمفرده. وهذا العمل الفردي أتاح الفرصة للعجوز وجعله مسكور الجناحين.

كما نرى معلم رضا يؤدي دورا مهما في نقابة العمال في الميناء وتنظيم أمورهم وتوحيد موقفهم.. ضد الفوضى في المرفأ... فوضى الذين يستغلون العمال، فإذا فتحوا أفواههم ضربوهم⁴. والعجوز يحتل مكانة عالية في الميناء ولا يسقط ورقة بدون إذنه وإذا تحل معركة معركة في الميناء "لا دخل للشرطة بدون إشارة العجوز"⁵. فالمناضلون يعملون لنقابة العمال لأن هذه هي الطريقة الوحيدة لجمع القوة ومقابلة العجوز "ولن تتحق مطالب العمال إلا بوجود نقابة لهم"⁶، لأن كل من يتمتع به العجوز في الميناء من أين؟ " من عرق العمال ودمعهم ودمهم"⁷.

¹ نهاية رجل شجاع: ص 164.
² أنظر نهاية رجل شجاع: ص 166-167.
³ نهاية رجل شجاع: ص 180.
⁴ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 188-189.
⁵ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 198-199.
⁶ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 223-224.
⁷ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 228.

حين لا تكون هناك حقوق، وقوانين تضمن هذه الحقوق، تبقى المسألة مزاجية. قد يدفع العجوز تعويضا وقد لا يدفع، المسألة على مزاجه¹، و النقابة خطر عليه في المستقبل². ويأتي يوم سيذهب العجوز كما ذهب الملوك "مملكته لن تدوم وظلمه لن يدوم"³.

كما نرى أهمية العمل الجماعي عند المناضلين في هذه الرواية لأن طريق المغامرة بالوحدة لا تقضي إلا إلى الهلاك بصورة مجانية، لأن في الميناء حيتان كثيرة⁴. الأسماك، القروش، الحيتان، جميعها بشر، لكنها بشر من نوع خاص. هنا بشر لهم أنياب، وأظافر، وفي خصورهم مسدسات، وتحت ثيابهم بونيات، ومطاوي سكاكين من نوع الكباسات.. لا يقدر أحد التغلب عليهم بمفرده وعلى مواجعتهم⁵ لأن مرّ على الميناء أناس كثيرون، لكنهم ماتوا ميتة الكلاب، لأنهم عملوا وحدهم⁶. فالعمل الفردي لا يؤدي الي نتيجة"⁷.

ولكن إذا عمل العمال في الجماعة فلا يستطيع العجوز أمام تضامنهم شيئا. الريح ليست في صالحه، فالأحوال تغيرت بعد جلاء فرنسا. العمال، في دمشق، يُضربون، يتظاهرون، ينتزعون حقوقهم. وهم مع العمال في دمشق كذلك في حلب وكل سورية⁸، لأن يد الله مع

¹ نهاية رجل شجاع: ص 290.

² نهاية رجل شجاع: ص 330.

³ أنظر نهاية رجل شجاع: ص 331-332.

⁴ نهاية رجل شجاع: ص 224.

⁵ نهاية رجل شجاع: ص 224.

⁶ نهاية رجل شجاع: ص 234.

⁷ نهاية رجل شجاع: ص 338.

⁸ نهاية رجل شجاع: ص 235.

الجماعة¹. فنرى جهود المناضلين في سبيل الحرية ومتطلعاتهم بهذه العبارة المهمة التي قالها إبراهيم شنكل لمفيد:

لا شيء يضيع، غيرنا كان قبلنا، وغيرنا سيكون بعدنا، وبعد هذا الغير سيأتي آخرون، وآخرون. درب طويل، السائرون عليه كثر.. لن تنقطع السلسلة، هم الذين، في النهاية سيقطعون السلسلة².

الرجل الذي يكره نفسه هذه الرواية "الرجل الذي يكره نفسه" مهم جدا، فهي تقدم جهود المناضلين السياسيين من نواحي شتى الذين يواجهون الظلم والاستبداد من قبل الاحتلال الأجنبي، وخاصة بطل الرواية صالح حزوم الذي أصبح الآن دعبس الفتوت بعد الخروج من السجن بعشرين عاما³، ويحمل الجنسية الفرنسية⁴. حنا مينة يقدم الأشياء المختلفة بكل براعة في لسان الطيور والبهائم في هذه الرواية بحيث يمتص الناس دماء الآخرين ويسلبونهم حقهم ولقمتهم، بألف وسيلة ووسيلة، فإنهم ينجون من العقاب، لأن ما يفعلونه، في نظر القانون ليس ركنا في الجريمة لأن "من يصنع القانون يصنعه لمصلحته"⁵. وللحصول على الحرية يجب المقاومة كما قال: هيمنغواي: "تستطيع الحياة أن تقهر الإنسان، ولكنها عاجزة عن تدميره!"⁶.

¹ نهاية رجل شجاع: ص 349.

² نهاية رجل شجاع: ص 384.

³ الرجل الذي يكره نفسه: ص 245.

⁴ الرجل الذي يكره نفسه: ص 245.

⁵ الرجل الذي يكره نفسه: ص 65.

⁶ الرجل الذي يكره نفسه: ص 77.

الحياة مباركة وجديرة بالعيش إذا اقترن بالكفاح¹. فنرى صالح يلجأ إلى الجبل مع المناضلين الآخرين إذا أصبح الفساد طاعونا²، ويرى بأن الكف عن الكفاح في سبيل الحرية، وفي سبيل العدالة الاجتماعية خطأ أيضا³، وفي الجبل حمل السلاح ضد الفرنسيين⁴.

كما نتعرف على جهد صالح خلال مكالمته مع الجلاد تراك الذي كان مسلطا على رأسه دائما لتعذيبه. ولكن صالح لم يفه باسم المناضلين الآخرين على الرغم من كل التعذيب والظلم، بل أظهر شجاعته أمام الفرنسيين والجلاد تراك.

من كان المعتدي، ومن كان المعتدى عليه؟

صاح تراك:

- أحرص! نحن جننا منتدبين عليكم، لنأخذ بيدكم ونمدّكم!

- بقوة السلاح!؟

- وماذا تريد إذن!؟ بقوة اللطف!؟

- بقوة العدل، والعدل كان معنا، لأننا كنا ندافع عن بلدنا، بينما أنتم تغزوننه!⁵

كما واجه الظلم الكثير من خلع الثياب¹، والضرب وغير ذلك ولكن هو دائما مستعد لدفع

الثمن². فهو ثوري جريء، يحمل السلاح ضد الفرنسيين كما يجب على الثوار الوطنيين " أنا

¹ الرجل الذي يكره نفسه: ص 78.

² الرجل الذي يكره نفسه: ص 226.

³ الرجل الذي يكره نفسه: ص 227.

⁴ الرجل الذي يكره نفسه: ص 228.

⁵ الرجل الذي يكره نفسه: ص 231.

مناضل وطني، يحمل السلاح ضد الذين يحتلون وطنه، ضد المعتدين..³ فيقدم نفسه دائما

للحق حتى لو قطع رأسه، فإن قطعه، في سبيل قضية وطنية، أمر يستحق!⁴.

كما نرى جراً صالح عندما قضى عليه بدون محاكمة وقال تراك بأن القضاء الفرنسي مشهور

بنزاهته: "أنني أحترم القضاء الفرنسي، أحترم القضاء العادل، لكنني لا أحترم الحكم بغير

محكمة كما جرى معي، بل أنني أبصق على نزاهة كهذه.. هيا نقذ في الحكم الغيابي الذي

تحسبه سرا، والذي لن يبقى سرا في المستقبل.. إنه فضيحة مجلجلة، وهو جزء من فضيحة

أكبر..⁵، لأنه لجأ إلى التعذيب قبل التحقيق⁶. كما حُكم عليه رميا بالرصاص ولكن لم يفد في

شيء لإنتزاع كلمة واحدة من فمه⁷. كما نرى شجاعة صالح مع كلود المحقق:

هل تسمح لي بسؤال؟

ابتسم كلود وقال:

- في العادة أنا من يسأل لا أنت! مع ذلك لا بأس، ما هو سؤالك؟

- هل تحب فرنسا؟

- ضحك وقال:

- طبعاً!

¹ الرجل الذي يكره نفسه: ص 238.

² الرجل الذي يكره نفسه: ص 239.

³ الرجل الذي يكره نفسه: ص 241.

⁴ الرجل الذي يكره نفسه: ص 252.

⁵ أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 263-264.

⁶ الرجل الذي يكره نفسه: ص 316-317.

⁷ أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 272.

- قلت:
- وأنا أحب سورية!
- ماذا يعني هذا؟
- التماثل!
- لم افهم!
- بلى! فهمت! أنت تحب بلدك وأنا أحب بلدي، ولو كنتَ مكاني ل فعلت نفس ما فعلته أنا،
و كنت، في هذه الحال، تسمي ما نفعله نضالا في سبيل التحرير، وأنا مثلك تماما¹.
- وعندما سأله كلود ... فما هي شروطهم لإلقاء السلاح؟
- أجاب بحزم:
- لهم شرط واحد: أن ترحلوا عن سورية!
- (و) ما رأيك بتراك؟
- جلاذ قذر، كيس من النفايات!
- والمحقق كلود؟
- ثعلب حقير، يلف ديدور دون فائدة.
- وأنا؟
- جبان!

¹ أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 284-285.

.... -

- أنا جبان؟ لماذا؟

لأنك ضربتني والقيد في يدي، كنتَ خائفاً مني!¹.

فلا هو ولا تراك ولا كل قوة الاحتلال الفرنسي بقادر على إخافته². كما نرى جرأة بو غدير يقوم بعملية الترجمة في المحكمة العرفية لفرنسا والذي يحمل الجنسية الفرنسية، وهو يقول: "...المحكوم بالإعدام إنسان وليس كلباً! إنتبه سيّدي المساعد، أنت تتصرف وكأنك الجنرال غورو نفسه..."³.

المغامرة الأخيرة: نري في "المغامرة الأخيرة" بأن مفيد بطل الرواية "يعيش حياة الغربة، قطرة قطرة من عمره"⁴

وهو في الصين حيث يقوم بعمل ماه هو نافع للمبدأ الذي يعتنقه، سواء في بناء الصين، أو في تنوير الأذهان في البلاد العربية، من خلال الترجمات، أو إصلاح الترجمات الموجهة إلى الإنسان العربي⁵. وهو يؤمن بالاشتراكية ويعتبر الأتحاد السوفياتي قفز عن المرحلة الرأسمالية إلى الاشتراكية رأساً⁶.

¹ أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 321.

² الرجل الذي يكره نفسه: ص 344.

³ أنظر الرجل الذي يكره نفسه: ص 267-268.

⁴ المغامرة الأخيرة: ص 247.

⁵ المغامرة الأخيرة: ص 227.

⁶ المغامرة الأخيرة: ص 234.

يقول مفيد المناضل الحقيقي لا ينظر في ساعته ولا يعدّ الدقائق، ولا يظل مسمرًا في مكانه وأمامه الروزنامة، إنه يرى إلى البعيد، إلى بعيد جدا، إلى زمن يستغرق عقودًا، أو قرنًا، وربما أكثر، مَنْ سيتعجل الصبر يفقده، على الصعيد الشخصي، والصعيد التاريخي أيضًا!¹

فأنا لست بوزيا ولن أكون، وأكره النرفانا لأنها طريق الخلاص من الألم، وأنا أحب ألمي وأداريه وأحنو عليه، لأن يشعرني بأني حيّ، ثم إنني لا أخاف الحياة وعندما لا أخاف منها، فإنها هي التي تخاف مني، وهذا جيد، يجعل الحياة جميلة ومباركة، وأخيرا فإنني أكرّس حياتي للعدالة الاجتماعية، وهكذا التكريس هو الكفاح، وما في الكفاح من مسرّة تجعل الإنسان يأخذ قيمته من ذاته، غير الصراع الذي يعلو على البلادة والكسل!²

القومية والوحدة العربية في روايات حنا مينة

حكاية بحار: بطل الرواية المغامر سعيد يقول: متى تتحرر فلسطين؟ ومتى يستعيد العرب أراضيهم وحقوقهم؟ ومتى يتوقف نهب الأغنياء للفقراء، وتقف الأسعار من الأرتفاع؟ فهو مستعد أن يموت في كل وقت لتصبح الأشياء جيدة دفعة واحدة "أموت غدا إذا شاءوا، على أن تتحرر فلسطين بعد غد، ويصير لكل عائلة بيت ولكل رجل شغل، ولا يعود هناك فقراء ومرضى وضياع..³

¹ المغامرة الأخيرة: ص 227.

² المغامرة الأخيرة: ص 337.

³ أنظر حكاية بحار: ص 74-75.

نرى في هذه الرواية بأن العرب ينقصهم الوعي بأن الأتراك ضد العرب، ولم يكن العمال العرب، من جهتهم، يفهمون الموقف إلا أنه عدوان عليهم لأنهم عرب، فصار العروبة، في وقت مبكر، قضية قومية، وفي سبيلها سقط، ذلك اليوم، قتلى وجرحى من الطرفين¹.

فينتصر العمال العرب والقوا المتعهد في البحر². كما نرى صالح حزوم يطرد كاترين الحلوة من القرية لأنهلخانت الحيّ مع أعدائه الأتراك في الحيّ العربي³.

كما نرى سعيد حزوم يقاتل للعروبة بأن قام باستخراج جثة (صالح حزوم) مناضل كما يفعل الآن، فهو نضال أيضاً، هو تضامن مع الشيء الذي غرق لأجله. فهو يضحي للحي، ويضحي لأجل الوطن ضد فرنسا⁴.

نرى في رواية "المرفأ البعيد" إن الناس يعملون للحصول على "وطن حر وشعب سعيد"⁵.

فتأليف نقابة يساوي. أكل الخبز.. لا بد من التضحية⁶.

ولكن هناك الآخرون يعملون فقط لمصلحتهم:

- العربي هو العربي..

¹ أنظر حكاية بدّار: ص 203-205.

² حكاية بدّار: ص 205.

³ أنظر حكاية بدّار: ص 216-217.

⁴ حكاية بدّار: ص 345.

⁵ أنظر المرفأ البعيد: ص 154.

⁶ المرفأ البعيد: ص 157.

- لا تضع الجميع في سلّة واحدة.. بين العرب العامل والفلاح من جهة.. وبينهم الإقطاعي والرجعي من جهة ثانية.."¹.

ولكن المناضلون الحقيقيون يعملون لمصلحة البلاد" نحن هنا أسرة واحدة. أسرة عربية على أرض أجنبية"². والنجاح الكامل يتوقف على تطور حركة التحرر الوطني العربية، وتطور هذه الحركة مرتبط بتطور البروليتاريا العربية، التي هي، مثل حركة التحرر، في طور التكون³، وعلى القوى الوطنية أن تصبح كتلة واحدة⁴.

حنا مينة يصف إسرائيل عدو العرب "إسرائيل التي تحتل فلسطين، وترغب في احتلال البلاد العربية فهي عدونا المباشر، وقضية فلسطين قضية العرب المباشر.. وما لم ننتصر هنا فلن ننتصر أبدا.. مجتمعنا العربي في حالة الصراع، في حالة الانتقال، ولا بد من المواجهة والكفاح، وهذا الكفاح يحتاج إلى نَفَس طويل، إلى صبر"⁵.

كما نرى المناضلين في رواية "الثلج يأتي من النافذة" يعملون مع الجماعة للحصول على الحرية والكرامة وخاصة خليل يكرس حياته كله في هذا السبيل أما فارس يعيش الغربية قطرة قطرة فهو يعمل في النهار لأجل اللقمة وليلا لأجل الفكر ويفضل العمل الثاني⁶. كما ينشر

¹ أنظر المرفأ البعيد: ص 20-271.

² المرفأ البعيد: ص 316.

³ المرفأ البعيد: ص 392.

⁴ أنظر المرفأ البعيد: ص 395.

⁵ المرفأ البعيد: ص 398.

⁶ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 146.

المنشورات في الخفاء وأخيرا تأتي صورته في الصحيفة ملقيا القبض عليه فيرى أن البرد من الغربية.

وهذه الظاهرة نرى أيضا في صالح حزوم في "ثلاثية البحر" بأنه يكرس حياته لأجل الوطن والشعب فهو يعمل في الخفاء في الجبل مع عصابته ويقاوم فرنسا. يقوم بتنظيم العمال ونشر الوعي فيهم وتعزيز الوحدة العربية التي هي القوة وبدونها لا يمكن طرد الاحتلال الأجنبي.

الباب الرابع

روايات حنا مينة: تقييم نقدي

- الفصل الأول: أفكار ونظريات حنا مينة
- الفصل الثاني: القيمة الفنية لرواياته

تمهيد

حنا مينة كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين. عاش الحياة المريرة مملوءة من كل أنواع المصائب والمشاكل. قام بالنضال بواسطة القلم ضد الظلم والاستبداد في زمانه. يُعتبر النضال شرطاً للإنسان حي، وعنده يجب على المرء أن يكون واعياً بالزمان والمكان حيث يعيش. يقدم قضية الغد من خلال اليوم، ويعتبر البعد الثالث هو الأهم وهو- بعد المستقبل- مع الماضي والحاضر في الأدب. والوصول إلى المستقبل المشرق يمكن بالجهد والعمل المستمر. وهو كاتب اشتراكي، ويعتبره الحل الوحيد للخلاص من الأزمة. كما هو واقعي اشتراكي، ورومنتيكي ثوري. يأتي مكانه في المرتبة الثانية بعد نجيب محفوظ في خدمة الأدب العربي في مجال الرواية. فهو أديب البحر ورائد في هذا المجال في العالم العربي بأسره. كما هو ماركسي ويعتبر الفقراء هم الذين قادرون على تغيير الكون ماداموا يحملون الوعي. تأثر بالكتاب العرب والأجانب فيحمل آفاق واسع والروح النضالي. يعتبر الدور السياسي والاجتماعي مهم في عملية الإبداع كما يعتبر هذا الدور بأنه دور التجريب وعلى الوطن العربي أن يواصل الجهد وأن يكون ثورياً إذ اقتضت الحاجة. فنقوم في هذا الباب بتحليل رواياته وآرائه.

الفصل الأول

أفكار ونظريات حنا مينة

كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين

حنا مينة كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين، كما يقره بنفسه: ".. ولدت في قلب الخطر وترعرت في جوف حوته أيضا وناضلت ضد الخطر بلا هوادة، فكان المبدأ الذي شببت عليه، عاملا أساسيا في شفائي الجسدي والنفسي، لذلك قلت يوما بعد أن صرت كاتبا: "أنا كاتب الكفاح والفرح الإنسانيين" فالكفاح له فرحه، له سعادته، له لذته القصوى، عندما تعرف أنك تمنح حياتك فداء لحيوات الآخرين، هؤلاء الذين قد لا تعرف لبعضهم وجهها، لكنك تؤمن، في أعماقك، أن إنقاذهم من براثن الخوف والمرض والجوع الذل، جدير بأن يُضحى في سبيله، ليس بالهناءة، بل بالمفاداة حتى الموت معها أيضا"¹.

كما أتى بخير مثال لتوضيح هذه النظرية في رواية " الشراع و العاصفة" الطروسية هي فرح الحياة وكفاحها وشجاعته، وقد قال الطروسي محددًا مفهومه للعيش بأن الحياة كفاح في البر والبحر، وكل كفاح يقوم على الفرحة والشجاعة، يقوم على الشاعرية بالضرورة².

فهو يؤمن بالتغيير ويستشرف بالغد الأفضل ويسير إلى المعرفة ويعتبرها "..الخطوة الأولى في "المسيرة الكبرى"¹ نحو الغد الأفضل.

¹ الرواية والروائي: ص: 11-12.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية، لحنا مينة: ص 74.

عاش حنا منية الحياة الاجتماعية والسياسية بكل معناها فهو يقول: " إن السياسة نقشت صورتها على أظفري مناقش الألم، فتعلمت مبكرا كيف أصعد الألم الخاص إلى الألم العام، وكيف أنكر ذاتي، وأنتصر على رذيلة الأنانية، وكل إغراءات الراحة البليدة، التي توسوس بها النفس، فكان الإنسان في داخلي، إنسانا تواقا إلى ما يريد أن يكون لا إلى ما يُراد له أن يكون².

أعطاه هذا المجتمع، الطفولة واليفاعة والشباب، تجارب لا تنسى، فأفاد منها في كفاحه بالقلم على امتداد حياته الأدبية. أما بالمحيط السياسي يقول:عرفته، رافقته، كنت قرينا من أبرز رجاله، منذ عائلتي من اللواء العربي (الاسكندرونة) إلى اللاذقية، وقبل ذلك بلقيل.. " فكفاحه على الجبهة الثقافية، وما فيها من كرم اللفاح، قد جعله يكتشف حقائق كثيرة ومنذ وقت مبكر. فناضل بالقلم و في البداية كانت متواضعة جدا، فقد أخذ منذ ودع المدرسة الابتدائية... بكتابة الرسائل للجيران، وكتابة العرائض للحكومة.فهو كان لسان الحيّ إلى ذويه، وسفيره المعتمد لدى الدوائر، يقدم لها، بدلا من أوراق الاعتماد، عرائض تتضمن شكاوى المدينة ومطالبها.. كما هو كان صداميا ومنذ يفاعة فيقول: "إننا جياع، عاطلون عن العمل، مرضى، أميون، فماذا يريد أمثالنا؟ العمل، الخبز، المدرسة، المستشفى، رحيل الانتداب الفرنسي، مطالبة الحكومة، في فجر الاستقلال، أن تفي بوعودها المقطوعة لأمثالنا³.

¹ الرواية والروائي: ص 12.

² أنظر الرواية والروائي: ص 12-13.

³ الرواية والروائي: ص 18-19.

كما هو يكره نصفه العاقل، يقول: "لماذا نحن الأدباء العرب، في العقلاء جدا؟ ولماذا في القعدة؟ وأين الجنون والانتحار وعدم الانتماء؟ لا أحب الذين يستريحون على مؤخرتهم!¹

وهو يطلب من المواطن العربي بأن عليه مكتوب أن يواصل الكفاح، في سبيل التحرير واسترداد الحقوق، وضد التطبيع الثقافي، وكل تطبيع، مع إسرائيل، التي تحتل بلاد العرب كما تقتل وتشرد العرب في فلسطين. فمثل هذا الكفاح مجيد لديه وسيكون مجيدا أكثر ومجديا أكثر في مناخ الحرية التي يريدون وأدها².

الإبداع هو الرسالة إلى العالم لدى الكاتب، وبه وحده يمكن إجابة التحديات الثقافية في الجوار وفي العالم، لكن الإبداع نبتة تحتاج إلى الشمس، وهذه اسمها الحرية الفكرية³. كما يجب أن يكون الحدث الروائي واقعية، معاشة أو مسموعة أو متخيلة وفي حال سماعها أو تخيلها لا بد للروائي، كما يلي النزعات المتطلبة، أن يكون على معرفة بالبيئة التي حدثت فيها⁴.

فلو لم يكن عصر النهضة العربية، لما كانت الرواية العربية، فهذا الجنس الأدبي الذي هو وليد عصر البورجوازية الأوروبية حسب جورج لوكاتش، هو وليد البورجوازية العربية وملحتمها أيضا⁵. -فضوء الفكر التقدمي، الوطني، القومي، وبعبارة أخرى أصبح ضوء الفكر الاشتراكي الذي كان مغيبا أو غائبا في المراحل الأولى للنهضة العربية⁶. وإذا كان كل جنس

¹ أنظر الرواية والروائي: ص 22-23.

² أنظر الرواية والروائي: ص 27.

³ أنظر الرواية والروائي: ص 27.

⁴ أنظر الرواية والروائي: ص 44.

⁵ الرواية والروائي: ص 49.

⁶ الرواية والروائي: ص 51.

أدبي جديد هو ثوري بالضرورة فإن الرواية العربية كانت أدبيا ثوريا بامتياز، وضعت الشعب أو العامة على مسرح الحركة الأدبية العربية¹.

النضال له أنواع، فيأتي في هذا الضمن كل ما يضمن مقوماته. والكتابة أيضا نوع من النضال²، والنضال يحتاج إلى تضحية في المعركة الوطنية والاجتماعية. فالنضال إذن مسيرة، والمناضلون الحقيقيون هم يعرفون حقيقة مسيراتهم النضالية، ولينين هو أعظم مفكر ثوري في عصر الكاتب. ولكن ما معنى الكفاح والفرح، فالكفاح هو النضال بينما الفرح معبر عن الطمأنينة الداخلية.

فنرى في روايات حنا مينة أزمة المثقفين مثل فياض في "الثلج يأتي من النافذة" عندما هناك تباين بين القول والفعل، يواجه بطلها كل صعوبات الحياة في منفاها الاضطرابي، وعندما يمر بالخبرة يكتشف أن البرد ليس من الثلج، بل من الخوف الداخلي، وأن "البرد كان من الغربية، والتجربة تمت في الغربية، والآن وداعا للغربة"³. وبعد التجربة يفهم الحقيقة فيستعد أن يعيش ويكتب ويكافح في المدينة، فيهدف كأنه يقسم: "أبدا لن أهرب بعد الآن، أبدا لن أهرب بعد الآن"⁴.

هذه الطمأنينة ويستخدمونه كمفتاح، فالذين يجاهدون لمجتمعهم يجدون الحلوة، ويفهمون كل ما فعلوه حق ويعتبرون الموت هو الختام الكريم في سبيله. كما نرى في حياة حنا بأنه واجه المشاكل العديدة في حياته من الطفولة. وعندما قرر حنا أن يذهب بعيدا إلى آخر الدنيا في سبيل أي عمل

¹ أنظر الرواية والروائي: ص 74.

² هواجس: ص 101.

³ هواجس: ص 102.

⁴ أنظر هواجس: ص 102.

يأتي به دخل، جأت شقيقته لوداعه بهذه الكلمات " هذه الطريق التي تسير عليها، أنت الذي اخترتها بنفسك، آمنت بأنها الطريق الصحيحة، من أجل الناس، فسر فيها إذن بغير خوف، وتحمل العذاب كما ينبغي للرجل أن يفعل"¹.

يلاحظ الدارس في روايات حنا بأن أبطالهم يحملون روح النضال على سبيل المثال "الشراع والعاصفة" نرى "المأساة الاجتماعية" لقد حطمت العاصفة مركب الطروسي " أما امرأة القبو في "الشمس في يوم غائم" قتل الاقطاع والدها، فاضطرت إلى بيع جسدها بسبب الفقر، لكن المأساة لم تبلغ أن تطرحها أرضاً. قامت على طريقته، قاومت بروح ثارية كاملة، وانضمت إلى الخياط الذي يدق الأرض. فهو يؤمن بالقدرة وحتى لو تتجلى هذه القدرة عفوية ستصير يوماً واعية.

فهو يؤيد الواقعية الاشتراكية حيث توجد أيضا الرومانسية. كما نرى في الطروسي وأمرأة القبو وفياض، ولكن أن تكون هذه الرومانتيكية ثورية الذي يحتاج إليها الوطن العربي. فنرى البحر والغابة في "الشراع والعاصفة" و "الياطر" و "حكاية بحّار" و "الأنبوسة البضاء" أجواء رومانتيكية استخدمتها الواقعية".

وليس معنى الكفاح والفرح والتمرد أن يخرج الإنسان على الناس بالسيف، وأن نملاً وجوهنا بضحكات عريضة، وأن نقوم برفض انفعالي لك شيء. الكفاح يعبر عن نفسه في مواجهه المواقف الذاتية والموضوعية المضادة للسيرورة، والفرح هو القدرة على الاحتفاظ بالنار الداخلية

¹ أنظر هواجس: ص 103.

وبإبقاء الجوهره تحت الثدى الأيسر متوجهة حسب تغيير ناظم حكمت، والتمرد هو الارتفاع عن الصغائر وعن المواصفات التقليدية، ونفي القديم وتسهيل ولادة الجديد.

الاشتراكية

إذا عالجنا روايات حنا مينة وجدنا أنها تدعم نظرية المؤلف "الاشتراكية". كما نعرف بأن المؤلف يؤمن بـ "الاشتراكية" ويعتبرها الشيء المهم للتقدم إلى الأمام والحصول على الحرية من الاحتلال على مستويات شتى. فإن الاشتراكية توفر بيئة تصلح للجميع حيث يستطيع عامة الناس أن يحصل على ثمرة جهودهم ويتمتع بالحرية والمساواة، لأنها تقدم مجتمع يخلو من الهيمنة الذكورية حيث تحظى المرأة بحقها لأن المجتمع لا يستطيع قطع شوطها إلى الأمام على ساق واحدة. لذا يجب على المجتمع العربي للحصول على هذا أن يعتنق مبادئ الاشتراكية ويطبّقها في حياته.

فعندما نقوم بتحليل روايات حنا مينة نجد أبطالها في كثير من رواياتها يتطلعون إلى الاشتراكية ويعملون لأجلها، خاصة المناضلين الواعين بحقيقة الأمر، يبذلون قصارى جهودهم للحصول على الحرية، ويقومون بنقابة العمال وينشرون الوعي في عامة الناس ويحدثونهم على مقاومة الظلم ومواجهة العواصف التي تحول في سبيل الحرية والعيش بالكرامة.

إن رواية "الربيع والخريف" تقدم نموذجاً للاشتراكية. كرم الناصري بطل الرواية يجد نفسه في مدينة "بودابست" في بيئة تختلف عن البيئة الشرقية. وعلى الرغم من العدالة الاجتماعية التي تسود في بلاد المجر لا يستطيع العيش بالحرية فهو كاتب مقتنع بالاشتراكية ويناضل في

حياته من أجل تحقيقها في بلاده. وهو يعتقد أنه لا يجوز الاستفادة من مجتمع اشتراكي لم يساهم في بنائه، فلذا يعيش دائما حياة الغربة على الرغم من أنه يوجد هناك جميع أنواع من التسهيلات للحياة الرغيدة. كما لا يسمح نفسه لأن تحب في خريف العمر طالبة مجرية جميلة في عمر الربيع وتقع في عشقها الحقيقي.

كرم يحس جُل أوقاته في المجر بانتتمائه إلى الوطن " إلى البيت والحيّ والبحر والشاطئ ووجه الأم، إلى مخلوق غير محدد غير مجسد لكنه موجود ونادر وبهي وماجد"¹. كما يعتقد البطل بأن الكاتب لا يستطيع أن يقوم بمسؤوليته بكونه بعيدا عن وطنه وأهله ومواطنيه. فنجد كرم المجاهدى يحمل معظم ملامح المؤلف الشخصية. فهو روائي مثل المؤلف كاتب قصة قصيرة، يواجه الجوع والبطالة في الصين الشعبية بعيدا عن وطنه.

على الرغم من الغربة والتشرد يكتشف البطل في المجر أشياء لا يحلم بها الشرق بعد. هناك مجتمع من نوع آخر كما يصف البطل بودابست بأنها "بارص الصغير"²، عندما يرى أزواج من الفتيان ويقبل حبيب حبيبته، أو يريح رأسها على صدره وأنامله تداعب وتتخلل الشعر.

ويتعرف بمساعدة المرأة المجرية بأن المجتمع المجري ""مجتمع مفتوح والتعصب المذهبي لا أثر له"³، وأن المرأة مشبعة بحضارة عريقة تنعكس في تطرف الناس فهي تعد معيارا في

¹ أنظر الربيع والخريف: ص 20-21

² الربيع والخريف: ص 20.

³ الربيع والخريف: ص 35.

حضارة الرجل¹. هنا في المجر يبدو كل شيء مغايرا كما عرفه في الصين. كما يصف جزيرة مارغريت بأنها متنزه في النهار فهي مملوءة بالحويوة تستلقى الآف الاجسام .. تستحم في الشمس .. تسترخي، عارضة أشكالا جميلة لنساء فاتنات .. يخيل إليك أنك في الجنة. أما في الليل فيبدو شيئا آخر بين الورود والأزهار يصعب عليك أن تجد مكانا خاليا حيث "ترى شابين متحابين، متخاصرين يتناجيان، يتعانقان، تخشى أن تعكر صفوهما .. لا أحد يسأل الآخر ماذا تفعل .. كل زائر يتنزه على هواه، يمشي، يجلس يقبل حبيبته يمارس حرите كأنه وحيد في الجزيرة .."².

كرم مع ايرجكا.. وهي تقول

انهض!

إلى أين؟

فابتسمت:

إلى بيتي ..³

فنرى أيروجيكا في قولتها " إلى بيتي" تظهر شجاعتها " وتمزق سلفية تغزلها عنكبوت اجتماعي على نافذتها، نافذة غيرها وغيرها في التارات الخمس .. تتعامل بفعل جسارة مع واقع

¹ الربيع والخريف: ص 47.

² أنظر الربيع والخريف: ص 87.

³ الربيع والخريف: ص 97.

آخر، جديد من منطلق التحدي لا بصفة فنّانة بل بصفتها إنسانة تعلق على قيم الاستبداد المتوارث والذي إلى حد ما مازالت تستشعره، وتضار منه حتى المرأة الغربية¹.

فيتصح بهذا بأن المرأة المجرية تتمتع بالحرية وإظهار الرأي وعندنا تحب رجلا وتعجب به تقول بالصراحة " تعال أريدك"². المرأة في المجر يشعر بإنسانية والمرأة المجرية تحترم نفسها جيدا. فيرى كرم سلوك بيروشكا يخلو من الابتذال، وكذلك أيرجكا فهي مغنية في ملهى تتمتع بالحرية ولكن تحترم نفسها فلذا عندما عرض كرم عليها النقود بعد قضاء الليل عندها غضبت ولا تكاد تصفعه. فهناك "لا خلط بين الحب والدعارة. تحب المرأة تمارس الجنس مع من تحبه. وهذا حقها لكن الجسد غير معروض للبيع..."³.

هناك الفرق كبير في أوروبا بين أن يمارس الإنسان الجنس لأجل الحب، وبين أن يمارسه لأجل المال. أما في "الشرق فيخلطون هذا بذاك، كل حب ممنوع، كل ممارسة مرفوضة، الفئانة والعاهرة سواء .. الشرف محدود في الحوض. إفعل ما شئت في السر.. إذا استطعت الاستتار بقيت شريف. نفاق اجتماعي.. " ولكن كيف يمكن تغيير المجتمع الشرقي؟ هذا يتطلب جهودا، تضحيات ونضالا متواصلًا.

الواقعية الاشتراكية:

¹ أنظر الربيع والخريف: ص 98.

² الربيع والخريف: ص 98.

³ أنظر الربيع والخريف: ص 109-110.

حنا مينة روائي واقعي اشتراكي كما يقول هو بنفسه: " نعم .. أنا "واقعي اشتراكي" وأمارس مختلف أساليب التعبير الفني"¹. هو يدعم هذا الرأي ويجد فيه حلا للمشاكل التي تطرأ في ميدان الفن. فهو لا يشيد المحاولة والتجريب في كتابة الروايات فقط بل يصف هذا الجيل، جيل التجريب بأن " المستقبل هو مستقبل الرواية" ولكن يحذر من التقليد، لأن شكلائية "الرواية العربية محاولة لمجاراة الشكلائية في الغرب"²، وبهذا السبب وقع بعض الروائيين العرب باسم التجرب في تقليد أهوج. و"من البديهي أن التجريب ضروري"³، لأن كل ألوان التعبير لا بد فيه من التجريب للأصول إلى الأشكال الجديدة التي تستوعب المضامين الجديدة وبدونه لا يمكن التقدم وفتح النوافذ في جدار الأشكال القديمة.

غير أن التجريب غير التقليدي⁴، لأن التقليد لا يؤدي إلى هدف. على سبيل المثال قام بعض الروائيين العرب بتقليد كافكا فجاءت "كافكاوية" عربية في حيز الوجود لكنها لم تدم ولا تثمر، "لأن كافكا عالج مواضيع كابوسية من خلال الذات التي تستشعر خطرا، لكنها تجهل مصدره، أو لا تريد، لأسباب خاصة، أن تدل على مصدر هذا الخطر. إن كابوسية كافكا هي استشعار عن بعد للنازية"⁵. اكتفى كافكا بتصوير مأساة الإنسان المقموع، المضطهد، ولم يجرؤ على تحديد القامعين والمضطهدين، وكان واقعا نقديا في معالجتها على نحو ما، مع ميل إلى الشك والغموض

¹ حوارات .. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 236.

² حوارات .. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 237.

³ حوارات .. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 238.

⁴ حوارات .. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 238.

⁵ حوارات .. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 238.

والإبهام، فهو نقد لواقع زمانه بدون استشراف للمستقبل، كما لم يحدد العدو وفضحه، والنضال، بالكلمة ضده.

ففرى هذه الكابوسية الكافكاوية، كانت دورانا حيوانيا معصوما حل بئر الواقع، من خلال الظلمة ولا يحمل قدرة على اختراقها، كما لم يبذل أية محاولة للعثور ولاكتشاف ما وراء هذه الظلمة، لأن هناك عالم آخر هو عالم مليء بالنور الفعلي و "مدى أبعد وهو المستقبل"¹.

وهناك مناضل أوروبي آخر توماس مان قبل النازية عبر عنه الكاتب التشيكي فوشيك في روايته " تحت أعواد المشانق " فهو يفسر أن النازية التي لم يوجه إليها كافكا اصبع الاتهام لأجل الخوف وبسبب القضايا الغامضة، وكافكا لم يقدّم أيّ إسهام أدبي في النضال ضد هذه النازية قبل مجيئها في الوجود ووصولها إلى الحكم².

ولكن حنا مينة لا يدين كافكا بل يرفضه فهو يقول: " أرفض هذه السردابية، ولا أرى مبررا لتقليدها، لأنها لا تنطبق على ظروفنا ولا مشاكلنا، ولا سيرورة أدبنا الذي كان مناضلا، بالشعر أولا، ثم بالمقالة والأجناس الأدبية الأخرى ضد الاستعمار والإقطاع والرجعية..³

ففرى تموت الشكلانية في أرضها في أوروبا نفهسا، أما الواقعية الجديدة فلها دورها الفعال فهي التي تسيطر الآن لا في الرواية وحدها بل في السينما وكذلك في سائر أدوات التعبير. "أما الواقعية الاشتراكية فإنها سيدة المستقبل. هي وحدها التي اكتشف البعد الثالث بُعد المستقبل"¹.

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 239.

² أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 239.

³ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 239.

لأن "الواقعية الاشتراكية لا تنبذ لا تهمل لا تتنكر، لأي مدرسة أدبية سابقة، من الكلاسيكية إلى الرومانسية، إلى السريالية. إنها تستوعب كل المدارس الأدبية، وتقيد منها، ما دام الواقع في أساس أية مدرسة أدبية، وما دامت الواقعية تتعامل مع هذا الواقع من منطلق الرحابة، وتلاحظ ما فيه من خيال، وتخيل، وعبق، ونغم، وشعر، وتستخدم كل هذه العناصر في تركيبها الفني، انها تطلق يدي الكاتب في استخدام كل العناصر الفنية استخداما خلاقاً"².

على الرغم من أن حنا مينة ينكر نفسه كونه رائد الواقعية الاشتراكية في الأدب العربي " أنا لست الرائد الوحيد"³، لأن روايته المصاييح الزرق – لا تعبر عن هذا الاتجاه كثيرا وهي أقرب إلى الواقعية النقدية. أما الواقعية الاشتراكية في الحقيقة فهي تتجلى بوضوح في رواياته علي سبيل المثال "الشمس في يوم غائم"، "الياطر"، "حكاية بحار"، "بقايا صور"، وغيرها.

يقول حنا مينة عن الواقعية النقدية بأن " .. زمنها قد انتهى مع بلزاك و جاء دور الواقعية الاشتراكية"⁴ مع بعدها المستقبلي الذي اكتشفه فهو مسرور بكونه واحدا من المبشرين بمدرستها، ولكن ليس من خلال التنظير بل من خلال التطبيق وهذا هو دور روايات حنا مينة.

حنا مينة يفضل "البناء الكلاسيكي الجديد، الذي لا يأخذ بناء الرواية عند تولستوي أو ديستيفسكي أو توفيق الحكيم أخذا كاملا. ولا يقطع معه قطعا كاملا أيضا"⁵ أما أبطال حنا مينة فهم جزء من

¹ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 240.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 240.

³ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 240.

⁴ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 111.

⁵ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 91.

الواقع الذي يتناوله في عمله الروائي. فالبطل حسب قوله: "جزء مني أنا الذي يخرج والواقع من خلاله فيصبح واقعا آخر"¹.

حنا لم يتعلم الفكر الاشتراكي بل عاشه، أكله مع الجوع، والعري، والخبز اليابس، والخبز مع الماء، ومع الشاي، ومع قطعة بندورة أو حبة عنب، وهكذا مثل النسغ الذي هو حصيلة هذا الطعام البائس صارت الاشتراكية نسغا في جسمه من جراء حياة بائسة إلى أبعد حدود، وكان عمال الميناء والبحارة، في حي المستنقع في اسكندرونة، هم الذين تحدثوا معه عن الكومستو والسندیکا و "الكريف" "الإضراب" و عن الفقر والغنى والعدالة وبلاد "المسكوب" وعن فرنسا وضرورة مقاومتها، وأعطونه بعض الكراريس.

وبعد فترة عندما سمعت أمه بأنه يشتغل "بالبوليتيكا" فذهبت واشتكت إلى مدير المدرسة، ثم إلى الخوري، واستدعاه هذا إليه وقرأ بعض الصلوات على رأسه لطرده الشيطان منه، لكن شيطان الفكر كان قد صار في دماغه..تابع قراءة الأشياء السرية التي يحصل عليها، ورسم المنجل و المطرفة على ورقة خبأتها وراء صورة العذراء المعلقة على الجدار، وصار يفهم حكايات والده في ضوء جديد²، أما تغيير الحال أمها كانت تطلبه في السماء وهو يطلبه في الأرض³.

الماركسية:

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 92.
² أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 281-282.
³ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص: 282.

إن الماركسية لها أثر كبير في حياة حنا مينة الشخصية، لأنه واجه مشاكل مختلفة منذ الصبا حتى
اليفاعة فهو يقول: " الماركسية اللينينية كانت لي قبل كل شيء طاقة حياة جسدية ونفسية. حين
ولدت كنت نحيلًا كعود يابس، أصف كشمعة، عليًا جسديًا ونفسيًا، حتى لا يُرجى مني بقاء ولا
شفاء"¹. كانت أمه مضطرة لأجله و تنظر إليها بعين الشفقة " هل يمكن لهذا الولد أن يصير رجلًا
ويكسب عيشه؟"².

فإنه قد تعلم مواجهة الحياة الصعبة من سن مبكرة من فايز الشعلة ومن عبده حسني، واسبيرو
الأعور، والاثنان الأولان استشهدا مع القوى الوطنية اللبنانية في الحرب الأهلية، تعلم حنا من
هؤلاء الثقة والاعتداد، والتفاؤل والنظر إلى الفقر كأفة اجتماعية وليست عيبًا، وإلى السقوط
كضحية للمادة وليس عارا لأنهم لم يقولوا له ما قاله عبد الناصر للإنسان العربي: " ارفع رأسك يا
أخي" بل جعلوا رأسه يرتفع من خلال الايمان بـ" أن المستقبل لنا نحن الفقراء، والحرية لنا
نحن الذين نعيش تحت وطأة الاحتلال وأن نير الأغواث والاقطاعيين ليس أبدية، وأن السجن
والاعتقال والتعذيب والموت ليس تضحيات مجانية، وأنها تحقق في كل يوم، بعض المكاسب
للشعب، بانتظار تحقيق المكسب الأكبر الذي هو الاشتراكية العلمية"³.

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 296.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 296.

³ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 296-297.

كما يقول حنا "كنا ضد النازية، ضد الاحتلال الفرنسي، وضد آغواتنا، وقد تدرجت، من كتابة الأخبار والمقالات الصغيرة، في صحف سورية ولبنان، كتابة القصص القصيرة"¹.

كما يقول أيضا إجابة على سؤال "قد كنت ما هو معروف يساريا وسأبقى.. أما لماذا الأمر كذلك فإن هذه "لماذا" في غير محلها! تصوروا ابن العالم السفلى، العاري، الحافي، الجائع، مثلي ومثل ناسي، ثم نكون في اليمين، الذي يتغذي أطفاله بالشيكولاته ويركبن الكاديلاك! مفارقة أليس كذلك!².

ف نجد حنا مينة يؤيد هذه النظرية ويرى بأن الحرية والحياة الكريمة ليست هي صدقة بل حق واجب، يحق كل مواطن أن يتمتع به وللحصول عليه يجب العمل المستمر والصبر الطويل لأنه لا يحدث بين يوم وليلة. فنرى هذه الظاهرة في أبطال الرويات بأنهم مناضلون بعضهم يشاركون في النضال بدون وعي وبعضهم بالوعي ويحثون الآخرين للسير إلى نفس المسار لقطع الحبل الذي يعوق بينهم وبين الحقوق والحرية.

الطروسية:

الطروسية هي فرح الحياة وكفاحها وشجاعتها، وقد قال الطروسي محمدا مفهومه اللعيش بأن الحياة كفاح في البر والبحر، وكل كفاح يقوم على الفرحة والشجاعة، يقوم على الشاعرية بالضرورة³. حنا مينة يؤمن بروح الشجاعة والقوة والمقاومة، كما هو يؤمن بالبعد الثالث هو

¹ الرواية والرائي ص:19.

² الرواية والرائي ص:20.

³ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية، لحنا مينة: ص 47.

المستقبل، فهو متفاعل بأن يحدث التغيير يوماً ما. نرى هذه الظاهرة في رواياته بأن أبطالها على الرغم أنهم ينتمون إلى فئة فقيرة هم شجعان، أبطال متحركة.

عبقرية حنا منية: رائد أدب البحر

يحتل حنا مينة مكانة مرموقة في الأدب العربي ويأتي دوره في المرتبة الثانية في الأدب العربي بعد نجيب محفوظ. هو كاتب واقعي كثير الانجاز، كتب أكثر من أربعين روايات. يحمل روح النضال والآفاق الواسعة في فهم الكون وما يدور حوله. هاجسه من وراء الكتابة كلها فهو "تغييرى ينشد فى آخر المطاف، تحقيق العدالة الاجتماعية، حلم البشرية الذهبى"¹. هناك ثلاث مراحل فى رواياته:

مرحلة الواقعية : المصايح الزرق، بقايا صور، المستنقع.

مرحلة الواقعية الرومانتيكية: الشراع والعاصفة، الياطر، حكاية بحار.

مرحلة الأسطورة، وتعدد المستويات، والسخرية: الشمس فى يوم غائم، نهاية رجل شجاع، الولاة، فوق الجبل وتحت الثلج.

علاقة الرواية " الشراع والعاصفة" برواية همنغواي " الشيخ والبحر"

حنا مينة أنجز كتابه "الشراع والعاصفة" فى العام 1954.. ولكنه لم يجد الفرصة لكي ينشرها، لأسباب كثيرة منها أن حنا مينة كان فى بداياته، والناشرون المغامرون قليلون.. وفى

¹ حوارات.. وأحاديث فى الحياة والكتابة الروائية : ص 39.

العام 1956 رحل حنا مينة عن بلاده مشردا.. دار العالم تقريبا، بحثا عن العمل والعيش: من بلاده إلى الصين، ومن الصين إلى بلدان أخرى، فإلى بلغاريا وغيرها.

هكذا مرت عشر سنوات وبقيت مخطوطة الرواية في البداية معه، ثم أرسلها إلى صديقه الخاص سعيد حوارنية، وكان مشرداً أيضا في بيروت .. فضلت الرواية طريقها.. وضاعت زمنا.. ثم وصلت منهكة إلى سعيد وقد أصيب أوراقها بالبلل، فراح يكوّنها ويرمّمها ورقة ورقة، حتى أستقام أمرها، فدفّع بها إلى صديق له (في مكتبة ريمون الكائنة في بناية اللعازارية قرب ساحة الشهداء بيروت) لنشرها.. وتابع سعي كل عمليات التنضيد والتصحيح والطبع حتى أتيح لها أن تصدر في العام 1966، بعد اثني عشر عاما من الدوران حول الأرض وفي المجهول.

ومن جانب آخر فإن رواية همنغواي " الشيخ والبحر" صدرت في العام 1952. وأن حنا مينة لا يطالع بأية لغة أجنبية، وقراءته الفرنسية صعبة جدا.. والرواية هذه لم تنقل إلى العربية إلا بعد سنوات من صدورها.

أما إذا رأينا في جوهر الموضوع: فالاختلاف أساسي بين الروائيتين: اختلاف تام في الحدث، وفي المناخ، وفي الشخصيات.. فليس من تشابه أبدا بين " سانتياغو" همنغواي و "طروسي" حنا مينة، والقضية نفهسا مختلفة كليا، ومسار كل من العمّلين الروائين مختلف أيضا وكذلك الهدف، والموضوع هو غير الموضوع.

-سانتياغو: العجوز، السيء الحظ في الصيد، يُبحر يوما بقاربه.. وفي عرض البحر تعلق صذارته سمكة هائلة فتجرُّ، هي، قاربه.. ويصارع العجوز، وحده، السمكة حتى ينهكها، ثم إلى جانب قاربه.. ولكن أسماك القرش الفتاكة، التي تجذبها رائحة الدم، تندفع باتجاه القارب الصغير، وتأخذ في نهش لحم السمكة الهائلة هذه.. وعندما يصل العجوز إلى الشاطئ متلاشياً من العتب والإرهاق، يكون كل ما بقي من السمكة، هو، فقط، هيكلها الحسكي الهائل.

- الطروسي: بطل من نوع آخر تماماً: ريّس مركب فقد مركبه.. وهو ريّس مجرّب في الإبحار، فخور بقدراته، ويعشق البحر والخطر.. يفتح مقهى في الميناء على أمل الحصول على مركب آخر، والإبحار من جديد.. في الميناء يدخل " الطروسي " في شبكة صراعات هي مزيج من الصراع الشخصي للحفاظ على الكرامة، والصراع الاجتماعي ضد المستغلين، والصراع الوطني ضد المستعمرين.. وعبر هذه الصراعات نتعرّف أحوال الميناء والمدينة كلها.. حتى تُتاح للطروسي، في آخر الرواية، قيادة مركب لانقاذ رفيق له في مركب آخر ضائع في العاصفة وبين الأمواج.. فيجابه " الطروسي " العاصفة الهائلة في عمق البحر، تصارعه ويصارعها، وينقذ رفيقه.. ثم يتاح له أخيراً، أن يبحر في قيادة مركب جديد.

فأين التشابه؟ وأين العلاقة؟! وجود البحر؟

الكتابة عن البحر لم تقف على هيمغواي. حنا مينة، عاش البحر، وعمل في مينائه، وعرف البحارة، وعاش معهم.. إنها حياته هو.. وهي التي يكتبها!.. فهل يمتنع عن كتابة حياته حتى لا يتشابه، من حيث مجرد وجود البحر في الرواية، مع العم همنغواي؟!..

همنغواي الأمريكي كتب روايتين أو أكثر عن البحر، منها تلك الرواية الشهيرة.. وحناء العربي كتب سبع روايات بحرية، تعج ببحر من البشر والاحداث وتصادم أمواج الصراع البشري..

بحر همنغواي له خصوصيته، وقضاياه المختلفة وأجوائه الخاصة به وحده..

وبحر حنا مينة له خصوصيته، له عيبره الخاص جداً، حالاته الخاصة وعناصره وألوانه ومخلوقاته ومزاجه أيضاً، والناس الذين تدامجوا به فصاروا هم البحر.. والأساس هو: ان الصراعات داخل البحر وعلى الميناء، في روايات حنا مينة، في امتداد للصراعات الاجتماعية في المدينة كلها والبلاد، ورمز لها في الوقت نفسه.

فلا نستطيع أن نقول بأن مجرد وجود البحر في روايات "هميغواي" و " حنا مينة" أعمالهما على حد سواء. إذا كانت القاهرة هي المكان الأساسي لأكثر روايات نجيب محفوظ.. وإذا كانت القاهرة هذه تشكل أيضاً المكان الأساسي في الكثير من روايات جمال الغيطاني.. فهل يحق لنا القول، مثلاً إن الغيطاني أخذ عن محفوظ؟!!

وهل كان نجيب محفوظ، بدوره قد أخذ عن جيمس جويس الذي جعل من مدينة "دبلن" مكاناً لروايته العظيمة "عوليبس" لمجرد أن المكان هو "مدينة" هنا.. و"مدينة" هناك؟!!

إذا كان لا بد من إيجاد تشابه ما، بين "الشيخ والبحر" و " الشراع والعاصفة"، فإننا نجد مثلاً في حكاية الصمود الإنساني والعناد البشري، هنا وهناك، حتى لا يهزم الإنسان.. وفي هذا يتشابه الروائيان الكبيران ليس فقط مع بعضهما بعضاً، بل أيضاً مع الكثيرين من روائي العالم

ومبدعي الملاحم الإنسانية.. ولعل هذا المنحى هو المضمون العام للملاحم الأساسية في الأدب العربي كله.

ويقول حنا مينة: لقد كتب "ميلفل" "موبي ديك" وكتب همنغواي "الشيخ والبحر" وكتبتُ أنا "الشراع والعاصفة" وكتب الروائيون الإنكليز كثيرا من الأعمال حول البحر.. وكل روايته لها بحرها، لها واقعها، ولها زمانها ومكانها، أي كانت لها محلّياتها"¹.

نستطيع الآن أن نقول بثقة إن البحر الذي كان مفتاحة في جيب ملفل في "موبي ديك" وهمنغواي في "الشيخ والبحر" قد أصبح في جيب الابداع العربي مع روايات مثل "الشراع والعاصفة" و"الياطر" و ثلاثية البحر"².

روايات حنا مينة تحمل في طياتها مواضيع مختلفة، فروايتها الأولى: "المصاييح الزرق" (1954)، تتحدث عن فترة الحرب العالمية الثانية وانعكاساتها على بلاد- سورية.

وفي عام 1956- كتب " الشراع والعاصفة" ولم تنشر إلا في عام 1966- وتتناول حياة البحر والبحارة والجمع السوري في الخمسينات.

وفي الأعوام التالية بدءا من السبعينات صدرت رواياته الأخرى: " الثلج يأتي من النافذة" التي تتحدث عن حياة كاتب مناصر يضطر إلى الهجرة والعيش في لبنان.

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 162.
² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية : ص 229.

ثم "الشمس في يوم غائم" و "الياطر" و "بقايا صور" وهذه الرواية الأخيرة تتناول حياة عائلة في العشرينات من هذا القرن، والجزء الثاني "المستنقع" يتناول حياة هذه العائلة في الثلاثينات.

هكذا غطت روايات حنا مينة أكثر المراحل من النصف الأول من هذا القرن وبداية النصف الثاني منه، لا بشكل تاريخي بل بشكل يتداخل فيه الماضي بالحاضر، أي أن الماضي يشكل خلفية الحاضر ويعطي العمل إضافة للمستقبل، ويتيح للقارئ أن يتعرف إلى الشعب في تلك الحقبة، وإلى التشكيل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي كان سائدا¹.

أما السياسة في رواياته فلا يبرز ما هو سياسي إلا من خلال الدلالة الاجتماعية التي تقدمها الأعمال، وهذه وظيفة الفن. إن "الشراع والعاصفة" و "الشمس في يوم غائم" و "الياطر" و "بقايا صور" وكل الأعمال الأخرى، تقدم حياة اجتماعية ونفسية حية صادقة، وما هو سياسي يأتي في أساس القضية الاجتماعية، وهذا ما أعطي تلك الروايات حرارة كبيرة، وتجسيدا للأبطال².

أما موضوع الحب في أدبه هو موضوع الحياة فيه. الحب نسيج حياة .. لقد قدم حنا مينة في أعماله ألوانا من الحب من خلال ألوان من الشخصيات:

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 68.
² أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 102 \مجلة "الكفاح العربي" 1978.

ففي " المصباح الزرق " يحب فارس فتاته رندة حبا رومانسيا من طبيعة الشباب. وفي " الشراع
والعاصفة" يحب الطروسي "أم حسن" وماريا حب بحار، حب مغامرة وزهو وقدرة عجيبة على
التواصل.

وفي "الشمس في يوم غائم" يحب البطل "فتاة الصورة التي ستخرج من الصورة" كحلم، يبحث
عن الذات المجنحة في عالم الأسطورة كبديل عن واقع مرفوض في السعي إلى امتلاك عالم آخر
من نسيج الخيال، لكنه يحب امرأة القبو حبا واقعيا عنيفا دراميا يتجاوز فيه الحب والكره، الرغبة
والنفور، والصراع والانسجام، ويتمنى كل مهما أن يقتل الآخر ويكي عليه. وعندما يلتقيان
أخيرا ويتحدان نعرف لونا غريبا من الحب ينشد فيه المحبان التكافؤ ولذذة على حافة الموت.

وفي "الياطر" يحب زكريا المرسي شكيبة التركمانية الراحية، وحبها الذي يروّض مخلوقا
نصف انسان ونصف وحش يجعله يكتشف نفسه والعالم من حوله¹.

إن الحب في رواياته ذو نزعة انسانية عميقة، لكنه ليس بالحب السهل، وغالبا ما يأتي عبر
الصراع لأن شخصياته نفهسا، كما أشارت الدكتورة نجاح عطار في دراستها "جدلية الخوف
والجسارة" تنطوي على هذا الصراع على مدى حياتها الروائية. والمرأة، الطرف الآخر في علاقة
الحب، ليست هامشية عند حنا مينة ولا عند أبطاله. إنها أساس من أسس الوجود وجوهر فيه،
ويكاد حب المرأة أن يكون مالكا لقلوب الأبطال².

¹ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 59.
² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية 60.

أما الحب في حياته، فهو يحتل موضع الصدارة دائما. لقد أحبّ حنا مينة منذ كان تلميذا، وتعلق بإحدى معلماته في المدرسة الابتدائية، كما كتب إليها رسائل تنم عن مشاعره الوجدانية الطفولية، عندما ترك المدرسة وسافر إلى بلد بعيد، وتلقى منها أجوبة تفصح عن أنها تفهمت تلك المشاعر وهي تنتهي عنها لأنه مازال صغيرا حسب تعبيرها!

وكذلك عرف الحب في الفتوة والشباب واستواء الرجولة، وكان لهذا الحب أثره في أعماله الأدبية، غير أنه لم يكتب أية قصة من قصص حبه، هو يقول: "ولا أدري لماذا... أن حبي الكبير الذي كان متبادلا دائما قد لا أجد الكلمات الكافية للتعبير عنه. فأن تعيش الحب غير أن تكتبه، فالكتابة عن الحب الشخصي مثل الكلام عنه يسمه إلى برودة قاتلة". وإني معجب بهذه الفقرة من أغنية لعبد المطلب: "بستأليني بحبك ليه؟ سؤال غريب ما جاوبش عليه!"¹.

التأثير بالروائيين الآخرين

يقول حنا مينة في هذا الصدد "لا أدري من هو الأقرب إليّ من الروائيين العرب، أحس أن عالمي الروائي يختلف كليا عن الجميع. وهذا البحر الذي تجلى في "الشراع والعاصفة" وهذه الغابة التي تجلت في "الياطر" عالمان لم تتطرق إليهما الرواية العربية حتى الآن. ويخيل إليّ أنه برغم البيئة المحلية، التي هي قاسم مشترك بيني وبين روائيين آخرين، فإن زاوية تناولتي تجعلني منفردا عن الآخرين وإن لم أكن أكثر نجاحا منهم"².

¹ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 60.
² أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 55.

لقد قلت مرة إننا جيل التجريب في الرواية، لأننا عندما بدأنا في الخمسينات لم تكن الدراسات حول فن الرواية، موضوعية أو مترجمة، متوفرة. وقد بدأنا من لا شيء تقريبا. وعبر التجارب تلك العطاءات القليلة، ولهذا فأنا أعتبر الأجيال الروائية اللاحقة أكبر حفا في أن تبذل الرواية العربية التي تكون في المستوي العالمي، إذا نحن قصرنا عن ذلك¹.

الروائيون العرب الذين اعجب بهم حنا منية - كما أجب في حوار ألتى أجرئت معه- : هم نجيب محفوظ وجمال الغيطاني، والطيب صالح، وغسان كنفاني و (توفيق الحكيم)². ومن الأجانب جيستوفسكي، تولستوي، تورغنيف، غوركي، بلزاك، أرنست همنغواي، تشارلز ديكنز، وغيرهم³. كما أجب على سؤال من هو معلمه؟ بقوله: ... أنا جيل التجريب، وفي تجربتنا كنا نتعلم على أنفسنا، أما الذين تأثرت بهم فهم: محفوظ، همنغواي، غوركي.

الرواية ديوان العرب:

يقول حنا منية إن الرواية ستصير "ديوان العرب" في القرن العشرين، والواحد والعشرين... وأن المستقبل هو للرواية في الأدب العربي⁴. وعندما سئل حنا منية: "كيف تنظر إلى واقع الرواية العربية في الوطن العربي، قياسا إلى واقعها في العالم".. أجب بوضوح وحسم واعتزاز: "بدرجة جيد جدا.. الرواية العربية بخير بخير.. ولو تُرجمت هذه

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 55.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 76.

³ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 117.

⁴ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 20.

الرواية إلى اللغات الأجنبية، أو كتبت أصلا باللغات الأجنبية، لكان لها شان عظيم، ودويّ عظيم أيضا¹.

ففرى روايات حنا مينة هي ملحمة التحولات والصراعات، ملحمة الكفاح الشعبي العام للتححرّ الوطني الاجتماعي، ملحمة الفئات الصاعدة، ومنها عنار من البرجوازية الصغيرة ، ومن الفلاحين والعمال شغيلة المدن والمتقنين الوطنيين².

ولمن يكتب حنا؟ يقول في هذا الصدد

- " فلست أحب للقارئ- يقول حنا ساخرا- أن يغفو وهو يقرأ إحدى رواياتي، ولا أريد له أن يخز نفسه بدبّوس حتى يستفيق، او يدلق على نفسه دلوا من الماء البارد كي لا يمل ويأخذ النعاس، أو كي لا يدخل في معادلات رياضية، بحجة ان على القارئ أن يجتهد، وأن يتابع مدفوعا بالرغبة الواعية في الكشف.. فمثل هذه الروايات المعقدة يضيق بها حتى المثقف، فكيف بالقارئ العادي؟" ³.

فإنه يكتب للكل، ويحث الجميع إلى قراءة مؤلفاته من الأميرة إلى العاملة ومن أستاذ الجامعة إلى العامل، ومن المثقف إلى أبناء الشعب وينفخ فيها الروح الإنساني الذي يجعل شخصياته الروائية حية، فاعلة إنسانية، محبوبة، مثيرة لإعجاب القراء⁴.

(1) أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 21.

(2) أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 23.

(3) أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 314.

(4) أنظر الرواية والروائي، ص: 214.

جنس الرواية لدى حنا مينة هو سيد الأجناس، يقول ميخائيل باختين: في كتابه " الملحمة والرواية" إن الرواية تعبر أكثر من غيرها عن النزعات القائمة لبناء العالم الجديد..¹.

كما قال فورستر: في كتابه جوانب الرواية " لا أرى داعيا لارتباط الرواية بوجهة نظر واحدة، حسب الروائي أن يثب بنا إلى الإقناع بشخصيته، وأن يقدم لنا الحياة، لأن الحياة تعطي الرواية"².

ولكن على الوطن العربي مكتوب أن يواصل الكفاح، في سبيل التحرير واسترداد الحقوق، وضد التطبيع الثقافي، وكل تطبيع، مع إسرائيل، التي تحتل أرض العرب وتقتل وتشرد مواطنيها في فلسطين، وهذا الكفاح مجيد وسيكون مجيدا أكثر ومجديا أكثر في مناخ الحرية التي يريدون وأدها، كما في حادثة التفريق الجائزة والظالمة بين نصر حامد أبو زيد واليسدة زوجته"³.

جدلية الخوف والجرأة:

يرى الدارس الصراع المستمر في روايات حنا مينة. فالأبطال يصارعون مع قوى الطبيعة وقوى المجتمع. وهم يحملون روح النضال كما هم يؤمنون بأن النجاح سيأتي يوما ما وهم يستطيعون الوصول إليه. ومن الصراعات المختلفة في رواياته "جدلية الخوف والجرأة" تتال حضا وافرا من انتباه الكاتب. حنا مينة فهم ضعف البشر وقوتهم في نطاق عصره وشخصه

¹ أنظر الرواية والروائي، ص: 43.

² أنظر الرواية والروائي، ص: 44.

³ أنظر الرواية والروائي، ص: 27.

وبيئته. الضعف هو العجز والتردد والانكفاء وعدم القابلية عن اتخاذ موقف الحسم والقوة هي النقيض، أنها الحسم والفعل الإنساني الكامل في الحياة، أي أن الضعف هو هروب من المواجهة والفعل، في حين القوة هي المواجهة والفعل بشكل رئيسي. إن جدلية الخوف والجرأة هي المركزية التي تصدر عنها كل الأفعال وردودها لدى شخصه بل إن هذه الجدلية تشكل العطاء الأساسي للديناميكية الحياتية بكل زخمها وسيولتها¹.

هكذا يريد حنا مينة أن يتصف أبطال رواياته بصفة الجرأة بعد التغلب على الخوف، كما نرى الطروسي في "الشراع والعاصفة" يواجه العاصفة لأنقاذ الرحموني. يعني صراع للوجود. فنرى حنا يتأثر بناظم حكمت في هذه النرعة. يرى الكاتب أن الحل هو ليس الهروب بل المواجهة كما نرى "في مأساة ديمتريو".

نرى في رواية "المصاييح الزرق" بطل الرواية فارس مذعور بسبب ما يجري في السجن" يقف في طرف الشبكة مذعورا" ومن جانب آخر نرى والد فارس يحمل الشجاعة والقوة ويجيب المختار بهذه العبارة الصارمة: " موت والدي ليس بالمسألة التي تستحق الاهتمام، لكن إعدامه موضوع آخر، في حال كهذه لا بد من الانتقام"². هناك ثمة أشخاص هم نماذج البطولة الوطنية النادرة أمثال: عبد القادر ومحمد الحلبي. فعبد القادر يمارس رجولته حتى في داخل السجن، يبصق الضابط الفرنسي ويصرخ في وجه الترجمان: "الموت أشرف من رؤية وجهك

¹ أنظر بقايا صور، ص: 7، 8.

² المصاييح الزرق: ص 136.

يا نذل..¹ كما نجد محمد الحلبي يرد على المختار: "غدا نبلى حكومتك القرار.. انتظرونا في الشارع". كذلك نرى هذه الظاهرة في وراياته الأخرى ومعظم أبطالها وبوجه الخصوص المناضلون يتغلبون على الخوف بعد التجربة وفهم الحقيقة ويواجهون العواصف التي تمر أمامهم لأن الفرار ليس هو الحل.

وظيفة الأدب : المتعة والمعرفة

يعد حنا مينة من الأدباء الذين يرون أن للأدب وظيفة اجتماعية، كما يرى حنا هناك صفات ووظائف أخرى خاصة تمتاز بها عن غيرها من النتاج الثقافي. فـ"المتعة والمعرفة" تحتلان المكانة الأولى في العمل الأدبي الإبداعي. "لأن أدبا أو فنا، بدون متعة ناشئة عن الإيقاع والتشويق، ليس بأدب ولا فن، ولا يحمل أي منهما المعرفة المطلوبة"². يعتبر حنا مينة مهمة الكتابة مهمة مثمرة فلقد حرص الكاتب دائما على شيئين: الإيقاع والتشويق!³

وكتب لغايتين هما : توفير المتعة والمعرفة للقراء. وهذا سر نجاحه الكبير فيقر هذا بنفسه "فلا أبوح به إلا للنشر! تأموا!!!⁴ كما يعتبر الإبداع رسالة إلى العالم، به وحده يمكن إجابة التحديات الثقافية في الجوار وفي العالم، لكن الإبداع نبتة تحتاج إلى الشمس، وهذه اسمها الحرية الفكرية⁵.

¹ نفس المصدر: ص 130.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 191.

³ أنظر الرواية والروائي ص: 20

⁴ الرواية والروائي ص: 21.

⁵ الرواية والروائي ص: 72.

الفصل الثاني

أبطال روايات حنا مينة

في أعمال حنا مينة الأدبية نجد شخصيات كثيرة جدا: هناك عالم متكامل من مخلوقات متنوعة ومتباينة، على أرضية واقعية تمتزج معها الرومانتيكية وتتبلور في تصرفاتها والأقوال، قامت الدكتورة نجاح العطار بدراسة عنوانها "روائي واقعي رومانتيكي" التي تم نشرها في "الطريق" و "المعرفة" ومجلات أدبية أخرى، فالواقعية كما ترى الناقدة ". تتسع وتستوعب كل المدارس الأدبية"¹.

مرة كلفّ حنا مينة صديقا بأن يجمع له أسماء شخصيات لرواياته قبل بداية روايته "النجوم تحاكم القمر" فقام هذا الصديق بالمهمة ولكن عجز عنه فقال له: " هناك أكثر من 560 شخصية في عشر روايات فقط فكم يكون العدد في الروايات العشر الأخرى؟ إنني وأنا أقرأ الرواية تستهويني الأحداث، فأنسى إحصاء الشخصيات ويكون عليّ أن أعود من جديد، وهذا ما لا أستطيع.. يا للغربة!"².

ومرة أخرى قام أديب آخر بنفسه من اللاذقية هو الأستاذ سكاف بمحاولة من هذا النوع، وكتب إليه " من أي متحف بشري جئت بهذا الحشد من المخلوقات، التي لا يشبه أحدها الآخر!؟ إنني

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية، لحنا مينة: ص 24.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 24-25.

ألجأ إليك، وأنتظر الجواب!"¹. وفي الحقيقة في رواية "النجوم تحاكم القمر" وكذلك " القمر في المحاق" هناك متحف مخلوقات أكبر بكثير من المتحف الذي سأله عنه الأستاذ سمير سكاف فإنها ملهاة إنسانية كاملة.

يرى حنا مينة بأن الأحداث الروائية يجب أن تكون واقعية، معاشة أو مسموعة أو متخيلة وفي حال سماعها أو تخيلها لا بد للروائي، كما يلي النزعات المتطلبة، أن يكون على معرفة بالبيئة التي حدثت فيها².

فعلي سبيل المثال أن "الشخوص في الياطر" هم البديل الموضوعي لتصوره عالم الغابة، وعالم التحول البشري من الوحشية إلى الإنسانية في ظروف وشروط محددة³.

فـ"زكريا، في الغابة لم تكن له وجهة نظر واحدة. لأن الحياة في هذه الغابة هي التي أعطته وجهة نظر قوامها مقاومة العيش، وقد كافح وعاش وحين ظهر حوت آخر في ميناء المدينة يعود رغم الخطر الذي يتهدهه ليربط الحوت الثاني وفي فعلته هذه بعد أن حوّلتته شكيبية من وحش إلى إنسان، يسهم بعفوية في بناء العالم الجديد، إذ ما عرفنا أن الحوت هو رمز الأجنبي الفرنسي الذي جاء غازيا ومحتلا سورية⁴. لأن الكاتب يناقش الأشياء من بُعد و"يرى ما لا يراه الآخرون"⁵.

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 25.
² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 44.
³ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 46.
⁴ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 46.
⁵ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 26.

وإذا قمنا بتحليل روايات حنا مينة وجدنا فيها أناس حقيقيون كما يصفهم الكاتب في كتابه هواجس في التجربة الروائية: " - "... فقراء ولكن شجعان، مرضى ولكن غير متسلمين للموت، سجناء لكنهم يتطلعون إلى الحرية، مضطهدين لكنهم غير نمَلّين ولا مهانين، وهم يعرفون، ولو بالحس والطموح، أن هناك ظلما نازلا بهم، وبؤسا كثيرا في حياتهم.. وأن هذا كله ينبغي أن يتبدّل (...) وأنهم، في قلب أوجاعهم ومآسيهم وسوء الأوضاع من حولهم، قادرون على الابتسام، وعلى الأمل، وعلى السخرية، واختراع النكتة، والضحك من .. القياصرة"¹.

فنرى حنا كروائي، يتعامل مع الأشخاص "بروح نضالية، تبحث عن البقعة البيضاء حتى في القلب الأسود"². و استقلال الشخصية الروائية – هي من أصعب وأدق وأخطر ما يواجهه الروائي الواقعي تحديدا، العامل من أجل العدالة والديمقراطية والاشتراكية³.

إن أبطال حنا منية نجد فيهم الحياة العريضة وأفكارهم المتنشعة والهموم النابعة من مشاكلهم. وهذه المشاكل متنوعة و مختلفة ما تختص به ولا تختص به ... لأن المعروف لدى الجميع بأن الإنسان لا يستطيع أن يفصل عن بنيته أو يخرج من جلده... وربما هذه الأشياء والقضايا يمس

¹ هواجس في التجربة الروائية- ص: 72.

² حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 16.

³ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 16.

الكاتب شخصياً، ولكنه لا يسقطها عليهم إسقاطاً فهذا يفسد العمل الأدبي كما يفسده الصراخ والافتعال¹.

فهو لا يتدخل في حياة أبطاله إلا بمقدار ما هو خالق لهم. فهو لا يلقي الحبل على تصوراتهم إنهم من لحم ودم و يفكرون حسب قدراتهم. كما يشير إلى هذا الجانب الكاتب نفسه في " الحوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية"، " .. أن مخلوقاتي تتمرد عليّ ... أخلقها ولكنها تتمرد عليّ" إذا حاولت أن أقسرها على ما أريد دونما اعتبار إلى حياتها الخاصة التي تتشكل من تطور الحدث، وأحيانا تغدو أكبر مني، أكبر من وجودي².

فعلى سبيل المثال، الطروسي: في رواية "الشراع والعاصفة" أراد الكاتب بحارا مسلكيا يحكي وقائع البحر ويقصها و يقف دائما في النطاق الذي أراد هو له: نطاق الدماية والسماح وكل الخصال الحميدة. ولكن حنا يقول عن بطل الشراع الطروسي: " .. حين مضيت معه، كنت أشعر أحيانا، أنه يمد لي لسانه ساخرا، قائلا: "لا، ليست هذه حياتي. ليست هي حياة البحار!!" وكنت، بعد إعادة النظر أجد أنه على حق³

وهذا صحيح بأن الكاتب لا يترك الحبل يفلت من الشراع ولكن يعيش قانون العاصفة كما بينغى قانون الكفاح مع الريح والموج وكل الحياة المعقدة الشيقة للمرافئ.. فيظهر طروسي الذي خلقه الكاتب من نفسه شخص آخر، مستقل عنه، و أكبر قيمة منه و أكثر احتمالا و صبورا وعزما.

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 56.

² أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 56-57.

³ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 57.

فيعتبر الكاتب نفسه بأنه خالق و مخلوق في وقت واحد لأنه علمه شيئاً وطروسي بدوره صار يعلمه أشياء عديدة يختص بحياته غير حياة الكاتب. لأنه ليس البحار الذي هو بطله¹.

كما أجب حنا مينة مرة على سؤال موجه إليه، هل الكاتب هو البطل نفسه؟ قائلاً: الجواب لا، لأن الكاتب غير بطله، وهو غيره حتى في روايات السيرة الشخصية، هذه التي يلعب فيها الابتكار دوره²، لأن الكاتب يُظهر أشياء من حياته ويخفي أشياء. وعند تركيب الشخصية الروائية لا تأتي البطل على مقاس الكاتب، إذا يحدث هذا يصبح فوتوغرافيا أو منسوخا، ومثل هذا البطل المأخوذ عن نموذج جاهز من قبل لا يساوي شيئاً³.

كما انكر حنا مينة وجود أبطال الروايات في الحياة فعلاً. وهو يقول: " ان بعضهم يؤكد من خلال قراءة رواية ما، انه يعرف بطلها أو بطلتها. وهذا وهم. وقد أشارت زوجة همنغواي بعد وفاته إلى أن كثيرا من الصيادين يدّعون أنهم "سنتياغو" بطل "الشيخ والبحر" وكان همنغواي يضحك من ادعاءاتهم. وقد حدث معي مثل ذلك. فكثيرا من الذين قرأوا " الشراع والعاصفة" زعموا انهم يعرفون الطروسي بينما هو من مخلوقاتي الروائية لا أكثر ولا أقل"⁴.

أبطال رواياته يختلفون عنه تماما، فكم أحبّ حنا بعد أن ملكوا حياتهم الروائية أن تكون حياته الإنسانية مثلهم لأنهم في سلوكهم تفكيرهم ومجابتهم للحياة يبدوون أكبر قامة منه و أوفر حقيقة

¹ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 57.

² أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 57.

³ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 75.

⁴ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 57-58.

من حقيقته وأكثر حياة و حيوية و شمولا و رسوخا. فهو "لا يزعم بأن أفكار أبطاله غريبه عنه تماما، لكنها ليست أفكاره قطعاً"¹.

الشخصيات في روايات حنا مينة:

تحمل روايات حنا مينة في طياتها شخصيات مختلفة و متنوعة، فنرى عالمه الروائي تزخر بشخصيات فقيرة وثرية، مناضلة ومحتكرة، عربية وأجنبية، ثابتة ونامية، نموذجية ورمزية. ولقد لقيت بعض هذه الشخصيات أهتماما بالغا من النقاد فوجدوا وجه الترابط بينها وبين شخصيات عربية²، وأخرى أجنبية³.

نجد رسم الشخصيات في معظم الروايات الصادرة بدءا من روايته الأولى "المصاييح الزرق" التي صدرت عام 1954، حتى روايته "نهاية رجل شجاع" 1998، مرتبطة بظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية حرجة وغير مستقرة، تتفاعل وتنمو من خلال حركة الواقع الذي فيه وجدت. وبهذا السبب ملامح وسمات تجمع بينها على كثرتها وتنوعها فنراها شخصيات عادية غير خارقة تغلب عليها البساطة والسذاجة والعفوية، والكرم وقوة الإرادة⁴، والتحدي⁵. كذلك الرغبة في التعبير والسعي للعمل⁶

¹ أنظر حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية: ص 58.
² الخطيب، محمد: عالم حنا مينة الروائي" ص 36، وكذلك الماضي الشكري: الدلالة الاجتماعية للشكل الروائي في روايات حنا مينة " مجلة فصول، ديسمبر 1998، ص 151.
³ الموسوي، الرواية العربية، نشأة والتحول، ص 132، وعطية أحمد: أدب البحر، ص 153، وغالي الشكري: الرواية العربية في رحلة العذاب: ص 35.
⁴ (شخصية الطروسي، وشخصية الأستاذ كامل في "الشراع والعاصفة"، وشخصية سعيد حزوم في "حكاية بحار")
⁵ (أمرأة القبو في "الشمس في يوم غائم"، وشكيبية، والأم في "المستنقع" والأخت في "القطاف")
⁶ (كشخصيات أحمد في "الشراع والعاصفة"، وأم بشير في "الشمس في يوم غائم"، وسعيد حزوم في "حكاية بحار")

الذي يساعدها ويعيد إليها ثقته للمقاومة يبعدها عن مزلق اليأس والتقهقر والإحباط، فهذه الشخصيات في معظم الروايات متفائلة و محبة للحياة¹. فلا تعاني هذه الشخصيات من العقد النفسية²، وإن غالبيتها تهتم بالآخرين وتتفاعل معهم تحثهم على العيش تعتبر قضاياهم وكأنها قضاياها الشخصية³. وتتركز هموم الشخصيات المحورية و قضاياها حول النضال في سبيل مجتمع خال من الفوضى والاستغلال والقهر الاقتصادي، فيرى القارئ أو الباحث المواقف المشتركة لهذه الشخصيات تعاطف مع المرأة المنحرقة⁴.

شخصية البطل:

نرى العالم الروائي عند حنا مينه بأنه يركز على شخصية محورية فهي تحظى بالاهتمام من بداية الرواية حتى النهاية، كما نجد معظم هذه الشخصيات تتصف بالبطولة الواقعية في الحلقتين الأولى والثانية من روايات حنا، بينما الحلقة الأخيرة تبدو بعيدة عن هذه الظاهرة، فهي غير متحركة، بلا قضية و بدون هدف⁵.

¹ (هناك انتحار لا يهيمن على الشخصيات هاجس الانتحار، على سبيل المثال، موت ديمتريو لم يثبت أنه الانتحار فعلا، كذلك بطل "نهاية رجل شجاع" مفيد، لم تظهر الرواية أنه خطط الانتحار له فقد تم نتيجة لتورطه في العراك مع ضابط الشرطة.)

² (مثل شخصية نجوى في "الشراع والعاصفة" وكذلك بطل الرواية "المرفأ البعيد" سعيد حزوم)
³ (شخصية عبد القادر في "المصابيح الزرق" وشخصية نزوبة في "بقايا صور" ، وشخصية خليل في "الثلج يأتي من النافذة".)

⁴ (يتزوج الطروسي بأمر حسن وهي مومس سابقة، كما يفعل كل من "ديمتريو" و "مفيد". كذلك تتعاطف شخصية السارد مع زنوبة في "بقايا صور".)

⁵ (رسم الشخصيات: ص 69).

فإذا بحثنا عن سمات وملامح عامة لشخصيات البطل فلا نرى كثيرا وصف لون عيني إلا قليلا، ولكن نرى فيها وصف عدد كبير منهم بضاخمة أجسامهم، خاصة أولئك الذين اضطروا لمقاومة قوى المجتمع وقوى الطبيعة، مثلا، فارس، والطروسي، وزكريا، وصالح حزوم ومفيد الوحش.

تعالج الروايات معظم أبطالها من الطبقة الفقيرة، باستثناء الفتى في "الشمس في يوم غائم" وفاطر الجاوي في "الرحيل عند الغروب" يهدمان الجدار الفاصل بين الأثرياء والفقراء، ويعملان لقضية الطبقة الفقيرة. فهذا الاختيار يؤدي إلى نتيجة بأن الروائي يؤمن بأن الفقراء هم الذين يحملون على جباههم بودار المستقبل، وسيغيرون المجتمع، فنرى عشرات من الأبطال يمارسون العمل اليدوي، والكتابة، كما نرى فيهم الشاعر، والصحفي وكاتب القصة، وفنان واحد وهو ديمتريوالموسيقىّ اليوناني الفقير.

أغلبية أبطالها غير متزوجين (طروسي بطل "الشراع والعاصفة" و مفيد الوحش بطل "نهاية رجل شجاع" قاما بالانخراط في سلك الزواج عند نهاية الرواية مع فقيرتين اضطرتهما الظروف إلى ممارسة البغاء.)

أما المتزوجون فهم مثل زكريا في "الياطر" وجهاد في "حمامة زرقاء في السحب" أما السمات التي تشمل جل أبطال الرويات وهي الكرم والتحدي والجرأة، والشهامة، فنرى هذه الصفات في سلوك فارس في "المصاييح الزرق" الذي قام للحق وشارك في معركة الخبز ضد المحتكر حسن حلاوة¹. وكذلك الطروسي بطل "الشراع والعاصفة" انكر أن يُهان أمامه بحدّار عربي¹، في

¹ أنظر المصاييح الزرق: 114.

ميناء كونستانزا، وقاوم الظلم وسجن. كما قاوم صالح حزوم الأتراك لأجل فقراء الحي². ودخل مفيد في العراق مع الفرنسيين³، لأنه لم يستطع أن يبقى ساكنا بعد أن سمع عن إهانة العرب أمامه، فدخل هو لاء الأبطال كلهم السجن نتيجة لمقاومة الظلم.

إن صفات الشهامة والمروءة تبدو أبرز لدى أبطال الروايات من غير الممتقنين، من بينهم، فارس والطروسي، وصالح حزوم، ومفيد المنتوف، كما نراها لدى الأبطال الممتقنين، مثل فياض في "الثلج يأتي من النافذة". كما نرى في أبطال الروايات كره الأب والميل إلى الأم، مثلا بطلة "عاهرة ونصف مجنون" كما يجمعهم في حب المرأة البيضاء الناضجة الممتلئة، وتلذذهم بالخمير والقهوة، ولم يرسم من بينهم من أحبّ المرأة حبا صادقا. كما لم يرقم أحد منهم بحب امرأة واحدة مخلصا لها إلا ديمتريو.

نرى الطروسي وقع في حب نجوى وظل قلبه متعلقا بماريا، كما نرى كرم المجاهدي في "الربيع والخريف" أحب إيرجكا وبيروشكا في نفس الوقت، فالتعددية في حب المرأة تجمع أيضا هذه الشخصيات. كما نراهم يحبون جماع التحف أمثال "سعيد حزوم" في "ثلاية البحر" وكرم المجاهدي في "الربيع والخريف" وعبد الجليل والحصباوي في "الرحيل عند الغروب" وكذلك فاطر اللجاوي وزبيد الشجري.

¹ أنظر الشراع والعاصفة: ص 334.

² حكاية بدار: ص 250.

³ نهاية رجل شجاع: ص 69.

أما القضايا الدينية فلا تحتل حيزا كبيرا في سلوكياتهم ، فالذي يدفعهم هؤلاء الأبطال للحركة والتحدي والمقاومة هو الواقع الاجتماعي والاقتصادي أولا بدافع إحساسهم بالظلم كما فعل الطروسي في "الشراع والعاصفة" ثم يضطرون إلى الخوض في الصراع والعراك واحدا تلو الآخر مما خلق لديهم الوعي بعد أن كانوا فرديين بلا هدف ووعي. وهم يستشرفون على المستقبل، ولكن عندما لا يكتمل هذا الوعي لسبب أو لآخر كما حدث عند مفيد المنتوف في "نهاية رجل شجاع" و فارس بطل رواية "المصاييح الزرق" نرى البطل ينتكس ويهزم وبعض الأحيان ينتهي بالاختفاء أو الموت¹.

نرى الأبطال في روايات حنا بيدون اجتماعيين بالفطرة أو الوعي يتأطر تدريجيا أمام القارئ بسبب الصراع مع ظروف الزمان، على سبيل المثال "زكريا" الصياد الفقير الذي يضطر للهروب إلى الغابة وهو يقول: "روحي تنشد روحا"². فهو يدرك أهمية العلاقات الإنسانية فطريا، كما التزم عدد غير قصير من أبطال الروايات بالعمل الجماعي المنظم، من بينهم الطروسي وفيات وسعيد حزوم، وفاطر، والذين لم يهتموا بالجماعة كانت نهايتهم مختلفة غير مثمرة إذ فقد فارس في "المصاييح الزرق"³.

¹ أنظر : نهاية رجل شجاع. المصاييح الزرق

² الياطر: ص 82.

³ (بقي فارس فرديا ولم، يتمكن من الالتحاق بالعمل الجماعي، كما أشار إلى هذا الجانب كثير من النقاد من بينهم الدكتور سعيد الوراق في كتابه "اتجاهات الرواية العربية المعاصرة" ص: 246)

كما انتحر مفيد في "نهاية رجل شجاع"¹، لأنه اعتمد على قوته الجسدية لمقاومة المحتكرين، في الحقيقة نرى فقد حياته معنويا قبل قيامه بانتحار نفسه.

كما نرى الإرادة الإنسانية هي الأساس لدى الأبطال ويؤمنون بها لتحقيق الأمل كما يؤمنون بأهمية العمل وبواسطة احترامهم لذواتهم تزداد فيهم المعرفة التي تدفعهم إلى السعي لتغيير أوضاعهم مثلا، أحمد في "الشراع والعاصفة" نجد شخصيته تتغير عندما يستسلم عملا حقيقيا يكتسب به احترام الناس كما تتغير نفسية سعيد حزوم في "حكاية بحار"². فيزداد وعي الأبطال بالعمل، وبالانتماء يتعمق ويترسخ ومن هنا يظهر أمامنا وجود المرشد أو المعلم لتعميق وعي البطل، يجد البطل في إحدى عشرة رواية، يرشده إلى العمل ويحدده انتماءه، وينتمي هذا المرشد أو المعلم سواء إلى فئة المثقفين أو إلى فئة العمال النقابيين، فنرى عبد القادر في "المصابيح الزرق" و خليل في " الثلج يأتي من النافذة" والخياط في "الشمس في يوم غائم" ويلتقي الفتى في "المستنقع" بالنقابي سبيرو الأعور، ومن هنا يبدو وعيه يتفتح وعلى يديه يتلقى دروس الاشتراكية³.

كما نرى قاسم العبدیعلّم سعيد الحزوم⁴، أهمية دروس العمل النقابي والنضال الجماعي. و عندما يغادر سعيد حزوم بلده يرشده سيد الاسكندراني المصري⁵.

¹ أنظر الصفحة الأخيرة من رواية "نهاية رجل شجاع": ص: 407.

² أنظر حكاية بحار: ص 281.

³ أنظر المستنقع: ص

⁴ المرفأ البعيد: ص 56.

⁵ المرفأ البعيد: ص 244.

أما المرشدون من فئة المثقفين وهم الأستاذ الكامل في "الشراع والعاصفة" والأستاذ ماهر في نهاية "رجل شجاع" والأستاذ صبحي في "الولاعة" والأستاذ صلحي شكري في "الرحيل عند الغروب"¹.

تتسم العلاقة بين البطل والمرشد بالاحترام والطاعة، ويلعب المرشد دورا مشكورا في تأطير وعي البطل كما ذهب أحد النقاد إلى أبعد من هذا حين قال أنه "بالانتماء والتفاعل مع الجماهير وبوجود المعلم المرشد المؤطر حزبيا يصبح الوعي الثوري هو الأساس للفعل الثوري"². كما نجد بأن وعي الأبطال يتعمق بظل وجود العمال والبحارة، طروسي " في الشراع والعاصفة" يتفاعل مع الأستاذ كامل.

أما المرأة فهي تشكل عنصرا مهما في حياة الأبطال ولكنها لا تلعب دورا أساسيا فيها، كما يتفق جميع الأبطال بأن الأمّ هي نبع العطاء ومصدر الحماية مقابل الأب الذي قلما كان محبوبا لدى الأبطال لسوء معاملته مع الأبطال وأمّهاتهم³.

أما المرأة بصورة الزوجة فتقل ظهورها في الروايات كما سبق ذكره. كما يلاحظ الدارس بأن وجود الحبيبة أو الخطيبة أو الزوجة لا يمنع البطل عن إقامة علاقة مع امرأة أخرى، فقد أحبّ

¹ أنظر رسم الشخصيات: ص 74-75.

² السعافين، إبراهيم: تطور الرواية العربية في بلاد الشام: ص: 407.

³ أنظر عاهرة ونصف مجنون، بأن الفتاة تكره الأب: ص:

فارس في "المصايح الزرق" رنده و في نفس الوقت كان يقيم علاقة جنسية مع زوجة الضابط¹.
وتزوج الطروسي بأحسن ولكن بقي قلبه معلقاً في حب ماريًا².

كما قام صالح حزم بعلاقة غير زوجية مع كاترين الحلو في حين كانت زوجته على قيد الحياة³.
وجهاد في "حمامة زرقاء في السحب" يرأسل حبيبته خبر تطور مرض ابنته بدون علم أمها⁴.

فنرى جُلَّ أبطال الروايات في الحلقتين الأولى والثانية مرتبطين بظروف اقتصادية واجتماعية الصعبة التي حددت وعيهم وجعلتهم يتفاعلون من خلال حركة الواقع. فلذا قضايا هؤلاء الأبطال تدور حول الأصول إلى مجتمع خال من الفوضى والاستغلال والقهر على الصعيدين الاقتصادي والوطني⁵.

كما نرى نصف عدد الأبطال داخل السجن لأسباب اجتماعية وسياسية لا من أجل مشاكل خاصة،
فدخل فارس السجن من أجل المعركة مع محتكر الخبز المتعاون مع الفرنسي⁶.

ودخل الطروسي السجن مرتين الأولى بدافع الانتصار للعروبة () والثانية بدافع الانتصار للعمال
المجتهدين، كما هرب فياض من سجن بلاده ليجد السجن بانتظاره في لبنان بسبب قيامه بإصدار
منشورات سياسية ومقالات تحريضية () وعاد كرم المجاهدي ليدخل السجن في بلاده.

¹ أنظر لمزيد من التفصيل "المصايح الزرق" ص: 235، 266.

² الشراع والعاصفة 337.

³ حكاية بحار: 148.

⁴ حمامة زرقاء في السحب: ص 114.

⁵ الماضي، شكري عزيز: الدلالة الاجتماعية للشكل الروائي في روايات حنا مينة مجلة فصول ديسمبر، 1998، ص: 160.

⁶ المصايح الزرق: ص

وفي السجن يتعلمون دروس أهمية العمل الجماعي، وبهذا الطريق يزداد الوعي فيهم، كما تعلم فارس من عبد القادري "المصايح الزرق" و خليل معرفة القراءة والكتابة في الفترة الأخيرة في السجن هكذا إزداد وعيه النقابي والسياسي حتى أراد أن يمكث في السجن مدة أطول ليزداد معرفة ووعياً¹. لذا يجد القارئ أو الدارس أن السجن يعد "بمثابة مدرسة لتثقيف المناضلين"²، في جميع روايات حنا مينة.

وعند الخروج من السجن تغمرهم مشاعر الفخر والاعتزاز لأنهم لم يدخلوه لقضايا شخصية بل من أجل الكرامة الإنسانية وقضايا الطبقة المظلومة، فقضايا الآخرين هي قضاياهم المفصلة يعملون لأجلها.

أما في الحلقة الأخيرة من روايات حنا مينة فنرى الأبطال فيها تتسم بسمات متناقضة خلافا لسمات الأبطال في الحلقتين السابقتين إذ تفقد الشخصيات الوعي والاتصال مع الواقع فتبدو منعزلة عنه، لأنها تعيش في ذواتها ولا تأتير عليها للزمان والمكان، وتظهر غريبة الأطوار وهم يتلذذون بالخمير والجنس وتختلف مواقفها من المرأة.

نهاية البطل: نهاية الرواية لا تعني النقطة التي تختتم الأحداث فحسب بل هي "اللمسة الأخيرة التي تُكسب الكشف عن الشخصية كماله ونهائيتها"³. ففي نهاية الرواية تستكمل الرؤية عرضها. وبتتبع شخصيات الروايات يتبين للدارس أن معظمها¹، يقوم بحركة محورية تشبه الاستدارة.

¹ أنظر: الثلج يأتي من النافذة: ص: 46، 47، 48.

² الماضي شكري: فنون النثر الأدبي: ص: 64.

³ كما يقول إدوين موير، بناء الرواية، ص: 55.

ففرى طروسي في "الشراع والعاصفة" يقيم في البر قسرا بعد تحطم مركبه ثم يعود للبحر بعد اكتساب الوعي الذي مكنه من الانتماء للجماعة والعمل الجماعي، وفيات في " الثلج يأتي من النافذة" تعلم في الغربية أن مواجهة المشاكل والسير مع الظروف أفضل من الهرب منها فعاد بعد التشرذم والعمل اليدوي المضني ومن خلال احتكاكه بخليل المناضل، كما يخرج زكريا المرسلني من المدينة وهو أقرب إلى الوحش فيكشف ذاته في الغابة، فيعود إلى حياته ويغير رأيه من الآخرين وخاصة من المرأة وأخيرا يعود إلى المدينة بعد أن تعلم في الغابة². ويعود كرم إلى وطنه العزيز بعد أن تعلم في الغربية" البرد كان من الغربية، والتجربة تمت في الغربية، والآن وداعا للغربة!³". والفتى في "المستنقع" والفتى في "القطاف" يعودان مع الأسرة إلى المدينة⁴. بعد أن اكتشفوا حياة الفلاحين البائسة، وبعد أن يفهم الفكر الاشتراكي⁵.

كما يعود سعيد حزوم إلى وطنه بعد مغادرته في رحلة طويلة حاملا فكرة النضال والمواجهة من أجل التغيير ، فيصدم في وطنه لأن الاستقلال لم يحقق أحلامه بعد، إذ استلمت البورجوازية الحكم وتحكمت بكل شيء فيعود من جديد للغربة آملا أن تقتلع شجرة الاستغلال من جذورها⁶.

ولعل الروايات تجسد من خلال الاستدارة رؤية تخبرنا بأن مواجهة الظروف تساوي أحيانا الانتصار عليه. نرى لا ينتهي الأبطال بالموت أو الاختفاء التام سوى أربعة وهم فارس في

¹ شكري الماضي، الدلالة الاجتماعية للشكل الروائي...، فصول، ديسمبر 1989 ص: 159.

² الباطر: ص 110.

³ الثلج يأتي من النافذة: ص: 372.

⁴ في رواية "القطاف" يبدأ البطل من المدينة ويذهب في جولة معاناة إلى الريف ثم يعود إلى اللاذقية، وكذلك الأمر في المستنقع حيث يبدأ من إسكندرونة ويمر بقرى الريف ويعود إلى اللاذقية.

⁵ أنظر المستنقع: ص 241-246.

⁶ المرفأ البعيد: ص 408.

"المصاييح الزرق" وصالح حزوم" في حكاية بحار" وديمتريو في "مأساة ديمتريو"، ومفيد في "نهاية رجل شجاع". كما تخبرنا هذه النهاية المأساوية المزيد من المعلومات عن حياتهم وجهدهم، فغرق فارس واختفاه يرمز إلى تعثر الوعي الجديد الغض الذي بدأ ينمو في المرحلة التي تقع فيها أحداث الرواية، لذا فإن الرواية لم تؤكد موته¹. وموت كل من صالح ومفيد يشير إلى أن العمل الفردي لا يؤدي إلى نتيجة مثمرة مهما كان أهدافه نبيلة، لأن الفرد لا يمكن تحقيق طموحاته إلا من خلال الجماعة وبمساعدها، فنرى صالح حزوم في "حكاية بحار" أعتمد على شجاعته و قوته الجسدية وعمل لخدمة الفقراء وحارب الاستعمارين التركي والفرنسي ولكن عمله الفردي لم يؤديه إلى نتيجة بل فشل مثل فارس. أما خاتمة مفيد ذهب إلى نفس الطريق حاول مقاومة العجوز المحتكر في الميناء وعصابته بجسده²، ولكن لم يحقق النجاح، فنهاية هذه الرواية تشير إلى أهمية العمل الجماعي والانتماء.

أبطال الرواية بين الثبات والنمو:

نرى الأبطال في روايات حنا مينة من كلا الصنفين، فالشخصية النامية هي التي تتكشف للقارئ بالتدرج، والتي تنمو وتتطور بتفاعلها مع الأحداث سواء أكان هذا التفاعل ظاهرا أم خفيا، ومن الأبطال النامية فارس الذي تكشف للقارئ بالتدرج، والطروسي من أكثرها نموا من الأبطال النامية، فقد بدأ الطروسي فرديا ليس له هم سوى استعادة وضعه السابق (ريسا) على مركب ولكن الظروف اضطرته للبقاء على الشاطئ في المقهى حيث يتغير موقفه بعد التفاعل مع الناس،

¹ شكري ماضي: فنون النثر:ص: 67.

² نهاية رجل شجاع: ص 249.

وبتطور الأحداث تنكشف لنا أبعاده النفسية، ينمو لديه الإحساس بالجماعة، فيعمل لمصلحة الناس وأخيرا يسافر حين يؤكد له الأستاذ كامل بأنه يمكنه خدمة وطنه ومجتمعه أينما يعيش مادام يبقى مستيقظا فكره تجاه وطنه ومجتمعه.

أما الصنف الآخر من الشخصيات الثابتة والذي وصفه موير¹، بالشخصيات "أسيرة العادة" التي لا تتغير ولا تدهش القارئ، لأن ليس لديها هدف ولا قضية مثل هذه الشخصيات نرى في الحلقة الثالثة من روايات حنا مينة فعلى سبيل المثال شخصية زبيد نجد فيها جُل صفات هذا الصنف، فهو ليس بطلا بأي معنى إذ لا يتحدى واقعه ولا يجد القارئ مغامرا أو مجادلا من أجل قضية ما، ولأنه يعيش خارج الواقع، فهو يفقد حركته وحيويته.

شخصية الطروسي:

وبعد البيان لسمات شخصيات روايات حنا مينة نرى من المناسب أن نوضح بقدر من التفصيل ثلاث شخصيات محورية تمثل كل واحدة منها مرحلة من المراحل التي مر بها أسلوب الروائي وهي المراحل الثلاث، نبدأ بالكلام بشخصية طروسي لأنها خير مثال على الرسم بالأسلوب التصويري، فهي لقيت اهتماما واسعا من النقاد.

أظهرت الرواية الطروسي كهلا لم يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره²، لم يرتبط الطروسي بأسرة، أنه ينتمي إلى أسرة من صغار التجار، مات معظم أفرادها كما تفرق الآخر حيث تعيش

¹ موير، إدوين: بناء الرواية، ص: 139.
² الشراع والعاصفة، ص: 46.

أخته في طرابلس مع زوجها وأولادها. لم يحب المدرسة فعاقبه والده في صغره، وبعد غرق مركبه المنصورة التي كان ريسا عليها وهو على الشاطي يدير مقهى ويأمل العودة إلى البحر ريسا لا بحارا. ولتحقيق هذا الهدف بقي على الشاطي كما رفض كل العروض للعمل تحت إمرة الآخرين¹.

ولا ينخرط الطروسي في سلك الزواج إلا في نهاية الرواية حيث يربط بأم حسن. تصفه الرواية بالصلابة والتحدي والميل للمجابهة من خلال حركته وفعله، ومن خلال حديث الآخرين، فقد اعتاد على الإقدام والمواجهة لا الهرب والانسحاب². فهو رقيق في حياته الخاصة: في معاملته للمرأة تحديدا، أينما كان.

كان يحب البحر والمرأة معا حتى لم يكن يعرف أيهما يبهجه أكثر³. دخل السجن نتيجة لغيرته على عروبتة. كان حريصا على أن ينأى بنفسه عن شؤون الآخرين إلا أن وجوده في المقهى والتفاعل مع الآخرين جعله ينغمس شيئا فشيئا في هموم الآخرين، فتعارك مع ابن برو، ومع أبي رشيد من خلفه، لأنه حاول الدفاع عن حقوق البحارة ومتألما للظلم النازل بهم ووقف متحديا قائلا: "أنا هنا وسأبقى، وليطبخ أبو رشيد أحمص ما عنده"⁴.

¹ أنظر، الشراع والعاصفة: ص: 51، 283.

² الشراع والعاصفة: ص 15.

³ الشراع والعاصفة: ص 85.

⁴ الشراع والعاصفة: ص 85.

كان للمكان وللأحداث أثر كبير التي مر بها الطروسي ومر بها المجتمع، في تنمية وعيه وتغيير وعيه الفطري: "وطني بلال فلسفة"¹، إلى وعي حقيقي دفعه في المرحلة المتأخرة إلى المغامرة بنقل الأسلحة إلى المجاهدين، كما يتردد في مغادرة الميناء بعد أن تحقق أمله وحصل على مركب. كما نرى تأثيرا واضحا لأستاذ كامل المثقف الثوري، في تأطير وعيه الذي أرشده بأن الإنسان يستطيع أن يخدم الوطن وجماعته أينما وجد ما دام حبل الفكر موجودا بينه وبينها.

فقد منحت الرواية الطروسي صفات إيجابية كثيرة. وهو يبدو فرديا ولكن ينتهي إنسانا إيجابيا، ينتمي إلى الجماعة، ويناضل ويواجه المشاكل التي تحول بين الجماعة.

شخصية زكريا :

من بين الشخصيات المحورية من المرحلة الثانية هو زكريا المرسلي بطل رواية "الياطر" الصادرة عام 1975، شخصيته تتحرك وتتفاعل مع محيطها وتتصارع وتكشف ذاتها وتتغير، كما سلطت الرواية على شخصيتها من الخارج ومن الباطن، فيتمكن القارئ من معرفة أدق خلجات نفسها.

من خلال التذكر الذي يقوم عليه بناء الرواية يقدم زكريا هو صياد ضخيم الجثة وأبتر اليد بسبب حادثة انفجارية أثناء الصيد². وهو فقير يسير حافيا طول وقته وبهذا السبب تضخمت قدماه يصعب أن يدخل فيهما حذاء³. وإضافة إلى فقدانه إحدى يديه فإن اليد الأخرى مصابة برجفة

¹ الشراع والعاصفة: ص 328.

² الياطر: ص 3.

³ الياطر: ص 16.

دائمة نتيجة لحدث قديم¹. يتمتع زكريا بقوته البدنية ويحمل الأثقال التي يعجز عنها حمالو الميناء كلهم. كما ربط الحوت الذي روع الميناء ومدينته يوماً عجز عنه رجالها لمقاومته².

أما من ناحية الملابس فهو لا يملك سوى قميص من الشيب وسروال قصير واسع الكم ولبادة رأس³. وبسبب عملية الصيد رائحته وشعره المصمغ تنفر عنها زوجته⁴. فهذه الأشياء تدل على حالته الفقيرة و بؤسه. كما عانى هذا الصياد الجهل والأمية⁵. فقد وضع: صيده في مهن كثيرة قبل أن يهوى الصيد ويتشبث به⁶. تزوج من صالحة⁷، وأنجب منها ولده الوحيد فؤاد.

هذا الصياد يقبل على الحياة والأحياء بشهوة، فهو حسب قول د.علي الراعي "كتلة هائلة من الحياة البدائية التي لم تشكل"⁸. فهو يشرب الخمر بشراهة كما يتعاطى الحشيش⁹، يتفاخر أمام زملاء بقوته البدنية وجتته الضخمة ولكنه يخشى من الأفاعي¹⁰.

زكريا يختلف من الآخرين فكل شيء في الدنيا لديه ينقسم إلى ذكر وأنثى: السمكة أنثى والشمس أنثى، يبدو أن كل شيء عنده " ينبع من الجنس ويعود إليه"¹¹. والأنثى لدى زكريا أقل شأنًا من الذكر، بل هي لا شيء، فهي كائن بلا عقل ولكن هذه وجهته النظرية تتغير عندما يعيش في

¹ الياطر: ص 6.

² الياطر: ص 9.

³ الياطر: ص 4.

⁴ الياطر: ص 60.

⁵ الياطر: ص 167.

⁶ الياطر: ص 119.

⁷ الياطر: ص 109.

⁸ الراعي علي: حنا مينة روايته الياطر، مجلة العربي (254) يناير 1980: ص 72.

⁹ الياطر: ص 55.

¹⁰ الياطر: ص 102.

¹¹ الراعي، علي، حنا مينة روايته الياطر، مجلة العربي (254) يناير 1980 ص: 172.

الغابة حيث يمر بتجارب مختلفة ومصائب عديدة من الخوف والجوع والعري، وبعد التقاء مع شكية يتعلم المعنى الحقيقي لوجود المرأة في هذا الكون. ويستعيد سماته الإنسانية بتفاعل مع شكية وصراعه ومعاناته في الغابة، التي سلبتها منه المدينة بقوانينها الظالمة.

زكريا يجد المدينة يأكل فيها القوي الضعيف (زخريادس- يسلب الصيادين أموالهم) وفي ظل هذه القيم كان زكريا أشبه بالحيوان، فحينما قضى وقته في الغابة وتعامل مع شكية وتفاعل مع الأخطار تعود لهذا الصياد سماته الطيبة، فهو يبدأ بالتفكير الذي يهديه إلى كشف الحقيقة محاسبة نفسه والندم على أفعاله. فالغابة هنا رمز لعام ينتفي فيه الاستغلال والقمع بينما المدينة هي الغابة الحقيقية.

عبد الجليل الحصابوي:

هذه الشخصية تختلف تماما عن الطروسي وكذلك عن زكريا، فهي تعد نموذجا يتكرر في روايات التسعينات. تصف رواية "المرأة ذات الثوب الأسود" خلال الأسلوب التقريري، عبد الجليل كهلا عازبا¹، في الأربعين²، من عمره، وهو ينتمي إلى منطقة البقاع من لبنان³. تخرج تخرج في الجامعة الأمريكية ببيروت ويمارس كتابة القصص فيشتهر وتنتشر صورته في الصحف والمجلات⁴.

¹ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 48.

² المرأة ذات الثوب الأسود: ص 54.

³ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 8.

⁴ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 39.

هذا الكاتب يزعمه التحليل النفسي ويسافر إلى مصر لأنها توفر له ما يشتهي من أسباب الراحة، وهو يسافر بلا هدف سوى توقع مغامرة ما في القطار¹ هذا الكاتب المثقف متحرر من الماضي إذ يقول: "ما حاجتنا إلى الماضي ونحن أبناء الحاضر"². أما الرغبة التي تبدو واضحة على مستوى الشعور الوطني فهي رغبة في محو الذاكرة التاريخية لأمته³ لأنه يرى هذا الزمان رديئاً كريها بما فيه من مزلق⁴، ويصفه بأنه "زمن الشذوذ"⁵. وهو يقبل على الشراب والأحاديث التافهة ويتحسر على عدم تدليل القارئ لها⁶. كما يفكر بالمرأة الغنيمة جنسية⁷.

شخصية المرأة في روايات حنا مينة:

اتخذت روايات حنا مينة نماذج متعددة من الشخصيات النسائية، فمن الفقيرات نرى زدّوبة في "بقايا صور" والأم في "المستنقع" والأم في "الولاعة" والثريات أمثال أم الفتى في "الشمس في يوم غائم" وراجعة في "مأساة ديمتريو" وسلافة في "الرحيل عند الغروب" ومن المتعلمات مثل سلافة في "الرحيل عند الغروب" راجعة في "مأساة ديمتريو". كما نرى فيها نماذج متنوعة للمرأة الأجنبية، ماريا في "الشراع والعاصفة" وبيروشيكا في "الربيع والخريف" وبربارا في "فوق الجبل وتحت الثلج". فأصبحت هذه الشخصيات النسائية علامة متميزة للرواية العربية كما

¹ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 6.

² المرأة ذات الثوب الأسود: ص 58.

³ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 58.

⁴ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 41.

⁵ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 90.

⁶ أنظر المرأة ذات الثوب الأسود: ص 80-88.

⁷ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 15-16.

نالت حظا وافرا من الاهتمام من قبل الباحثين¹. مثل شخصية شكيبية في "الياطر" وامرأة القبو في "الشمس في يوم غائم" وشخصية زذوبة في "بقايا صور".

وعلى الرغم من كثرتها لم تحظ النساء بدور البطولة في أي رواية كما نرى عددها أقل بنسبة الرجال². كما نراها تختفي من فصل أو أكثر من فصول الرواية وتظهر في النهاية³. وقد تختفي ولا تظهر اطلاقا⁴.

كما يلاحظ الدارس بأن وجود النساء يقل كثيرا في الميناء على سبيل المثال في "الشراع والعاصفة: و"نهاية رجل شجاع" أما في الريف فعدد النساء يرتفع ويصل إلى عدد الرجال مثلا في رواية "القطاف".

ولكن نرى فيها روحا مشرقا تقوم للمقاومة مثلا "في بقايا صور" برزت شخصيتا الأم المكافحة وزذوبة الفقيرة اضطررتها إلى الانحراف، الظروف القاسية، كما تمكنت الفلاحة الفقيرة الأمية شكيبية في "الياطر" من أحداث انقلاب زكريا الصياد. تبدو شخصية المرأة ممثلة للطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها.

فيجدر بنا الذكر للنساء في كل الطبقات التي قدمت روايات حنا مينة نماذج كثيرة منها.

المرأة الفقيرة:

¹ إدريس، سهيل، حنا مينة والرواية، مجلة الطريق، (6) نوفمبر/ديسمبر 1996، ص 104.
² بلغت نسبة النساء إلى الرجال في الروايات 46%.
³ مثلا نجوى في "الشراع والعاصفة" تظهر صفحة (73) وتختفي وتظهر صفحة (116) وكذلك نرى شكيبية في "الياطر" تظهر صفحة (40) وتختفي تماما صفحة (124) ثم تعود صفحة 202.
⁴ في "الدقل" تظهر صفحة (144) وتختفي تماما ص (281)، وفي رواية المرأة ذات الثوب الأسود" تختفي روزا وجاكلين صفحة (24) ولا تعودان للظهور.

نرى في روايات حنا مينة صورة المرأة الفقيرة أمًا وزوجة وعاملة ومومساء، كما نراها نامية وثابتة، ومنها شخصية نموذجية أخرى رمزية. تظهر الأم أمانا فهي نحيلة مثل الأم في "بقايا صور" كما هي غير جميلة لا يغرى بها الزوج¹، كصالحة في "الياطر" ولكن عندما تظهر هذه بشكل حبيبة أو عشيقة فلا بد أن تكون جميلة بيضاء ممتلئة مثل نجوى في "الشراع والعاصفة" وشكيبية في "الياطر" وكاترين الحلوة في "حكاية بحار".

ومعظم الشخصيات النسائية الفقيرة تنتمي إلى أحياء المدينة الفقيرة، كحيّ القلعة "مريم السوداء" وكل نساء رواية "المصابيح الزرق" كما نجدها تنتمي إلى القرية مثل زنوبة في "بقايا صور" وشكيبية في "الياطر".

تنوعت نماذج المرأة على صعيد المهنة، فإما عاملة في مصنع مثل أم فارس التي كانت تعمل في معمل التبغ، وأمّ صقر التي كانت تغسل في بيوت الموسرين، وصالحة التي كانت تعمل قابلة. كما تظهر الروايات صورة المومس التي اضطرتها الظروف الاقتصادية والاجتماعية للانحراف، مثلًا نجوى في "الشراع والعاصفة" وامرأة القبو وفتاته في "الشمس في يوم غائم" وجوجا في "الربيع والخريف" وليبية في "نهاية رجل شجاع". ويلاحظ الدارس أن الفقر والقهر الاجتماعي لا يمكن أن يقتلا روح الإنسانية في المرأة وخير شاهد على هذا هي نجوى وليبية.

(¹) الياطر: ص77.

كما تمثل امرأة القبو صورة أخرى للمرأة المسحوقة، فهي تحاول إهانة الأثرياء، وقد توحى علاقتها بالخياط ببوادر عمل منظم تشارك فيه¹.

كما نرى فيها نفسية إيجابية مثل أمّ الفتى في "المستنقع" التي عملت خادمة وسعت بكل طاقتها لتأمين الكساء والكتاب لولدها الوحيد²، كما بدت جريئة مثل مريم السوداء في "المصاييح الرزرق" التي وقفت في وجه المحتكر ولم تتخلف لمقاومة الظلم فسارت في المظاهرات³.

كما قدمت أم بشير مثالا لبنات جيلها نتيجة انخراطها في العمل وتعاطفها مع العمل النقابي والخروج في المظاهرات لتأييده⁴، في الثلج يأتي من النافذة، هذا يؤدي إلى نتيجة بأن العمل يكسب المرأة ثقة بنفسها ويدفعها إلى تغيير الواقع واشتتشاف المستقبل.

وهذه الطبقة الفقيرة من النساء لم تتخلف في خدمة الآخرين الذين يحتاجون إلى الدعم فهي تحمل سمات الإنسانية على الرغم من الظلم والقهر، تقبل الأمّ عطايا العشيقة وتنتهي ابنها عن الإساءة إليها بالكلام في "الدقل"⁵. كما تحمى زنوبة أسرة عشيقها في غياب الأم⁶، في "بقايا صور"، وتحضر شكيبية الطعام واللباس لذكريا في الغابة على الرغم من غضبها عليه لأنه قام بإساءة إليها⁷، في "الياطر".

(1) الشمس في يوم غائم: ص 256.

(2) المستنقع: ص 38.

(3) المستنقع: ص 205.

(4) الثلج يأتي من النافذة: ص 44.

(5) الدقل: ص 97-98.

(6) بقايا صور: ص 291.

(7) الياطر: ص 25.

كما يلاحظ الدارس غلبة النزعة الدينية على الأمّ في الروايات فنرى الأم تلجأ إلى الأيقونات في "المستنقع"، كما تهرع "أم فرح" إلى لاوندوس الصالح لألتماس بركاته في "الولاعة". يتجلى المشاعر الوطنية لدى الشخصيات النسائية الفقيرة أيضاً، كما فعلت أمّ بشير في "الثلج يأتي من النافذة"¹، ولكنها لم تعمل بشكل منظم بأستيناء امرأة ألقبو مع الخياط المحرض تحاول الانتقام من طبقة الأثرياء بأسلوبها².

المرأة الثرية:

ظهور المرأة الثرية في روايات حنا يقل عددها، ومع ذلك فقد غطت شرائح المجتمع الثري من إقطاعية وبورجوازية. أما على الصعيد المادي فيلاحظ الدارس أن البياض والامتلاء من السمات البارزة فيها ولا تختلف الثرية عن الفقيرة في استسلامها للرجل، ترضح ابنة العم في "الشمس في يوم غائم" لصفقة الزواج التي يختارها الأب مع رئيس القلم بدون حب³، فالحب ليس من مقومات مقومات الزواج عند طبقة الملاك⁴.

كذلك الأم تدعن للزوج ولا تقابل خيانتها بالثورة أو النقمة⁵. فالمرأة عند هذه الطبقة "عبدة مفرغة مفرغة من نقمة العبد" كما قاله السارد¹. فنرى رواية "الشمس في يوم غائم" تقدم صور الأجيال الأجيال الثلاثة من نساء طبقة الإقطاع ومتشابهة من جهة، وثابتة من الجهة الأخرى.

¹ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 44-45.

² الشمس في يوم غائم: ص 256.

³ الشمس في يوم غائم: ص 79.

⁴ الماضي، شكري عزيز، ... فصول ديسمبر\ 89 ص 154\155\259.

⁵ الشمس في يوم غائم: ص 89.

أما المرأة البورجوازية فنجد صورتها من خلال عدد من النساء، منهن راجعة في "مأساة ديمتريو" ، فصورتها لا تختلف كثيرا عن المرأة الاقطاعية فهي مستغلة من قبل الأب والزوج، لأنهم يعبدون أصنام المال، والمال في نظرهم يغسل كل شيء². تبدو المرأة في هذه الطبقة متعلمة ولكن لا تستطيع مقاومة الزمان. وراجعة هي خير مثال لهذه الطبقة البرجوازية، فهي خريجة معهد وعازفة على الكمان إلا أنها تتحني أمام قرار والدها في تزويجها من يري محدث النعمة دون حب، فهي تضطر إلى البقاء مسلوبة حقوقها أمام قانون المجتمع والزوج المالك لأن أحلامها لم تتحقق ولم يستطع راجع مقاومة المجتمع واليسر معها³.

المرأة المتعلمة:

تبدو صورة جديدة في روايات حنا مينة مع صدور رواية "الرحيل عند الغروب" هي المرأة المثقفة التي تمثلها الكاتبة المقلدة والجامعية سلافة⁴، فهي أرملة مهتمة بنفسها فاطر اللجاوي الذي أنقذها من الانتحار. وعلى الرغم من سعة ثقافتها وخبرتها العلمية للكتابة لا تحظى من الحقوق المطلوبة، والغريب أنها تُهان من فاطر ومع ذلك تدلل له لكي تحصل على بعض الحب منه⁵. وهذه الصورة تتكرر مثلا بربارا في "فوق الجبل وتحت الثلج" ومادلين ومسزبورجرون في "حدث في بيتاخو" وربيحة رويشد في "المرأة ذات الثوب الأسود". يتجلى للدارس صورة المرأة في مرحلة التسعينات من خلال بُعد واحد هو الرغبة في الممارسة الجنسية.

¹ الشمس في يوم غائم: ص 229.

² مأساة ديمتريو، ص: 108.

³ أنظر لمزيد من التفصيل: مأساة ديمتريو: ص 192.

⁴ الرحيل عند الغروب: ص 9.

⁵ الرحيل عند الغروب: ص 138.

صورة المرأة الأجنبية:

صورة المرأة الأجنبية تنوعت في روايات حنا و يبلغ عددها الثلث تقريبا، فهي تغطي الروايات من البداية حتى "المغامرة الأخيرة" الصادرة عام 1997. أم زخريادس في "الياطر" لم تذكر الرواية اسمها فهي تعرف باليونانية¹، فهي تقف ضد التغيير وضد ما كل هو إنساني، التي تثبت على عدائها للإنسان وتقدمه.

أما في رواية "الربيع والخريف" فتبرز صورة أخرى، صورة الفتانة ذات الشخصية المستقلة والتي تتعامل مع الرجل معاملة الند للند². تطلب من الرجل ما تريد "أنا أشتهيك" وهي شخصية إيرجكا.

وهذه الظاهر تختلف فتصح مستغلة في رواية "فوق الجبل وتحت الثلج" زوجة الطالب العربي الذي يستغلها ويخدعها³.

من أجل الإقامة في بلدها وللحصول على المادة، كما تظهر نفس الرواية صورة الأجنبية التي تهيم بالرجل العربي وتغار عليه وتأتيه هي بنفسها⁴. تتكرر هذه الصورة التي تفيد بأن المرأة الأجنبية هي فريسة الجنس وغنيمة البطل، يمكنه ممارسة الجنس معها متى شاء، يتحدث عبد

¹ الياطر: ص 40.

² الربيع والخريف: ص 98.

³ فوق الجبل وتحت الثلج: ص 15-151.

⁴ فوق الجبل وتحت الثلج: ص 147.

الجليل والساقى في بار القطار عن الأجنبيات وكأنهن صيد سهل¹، في رواية "المرأة ذات الثوب الأسود"

صورة المرأة بين الثبات والنمو:

نرى في روايات حنا منية بأن عدد الشخصيات الثابتة يزداد كثيرا مقارنة بالشخصيات النامية، نموذج المرأة النامية هما: نجوى في "الشراع والعاصفة" وشكيبية في "الياطر" كما نرى نموذجين للمرأة الثابتة هما ربيحة رويشد في "المرأة ذات الثوب الأسود" والمرأة الإقطاعية في رواية "الشمس في يوم غائم".

شخصية نجوى:

كان اسمها نجوى حيث التقاها الطوروسي وحماها من مستنقع البغاء. كانت شابة بيضاء ذات جسد بض وذات بشرة بيضاء وردية². تبدو نجوى في نضجها موفورة الصحة معافاة³. اضطرت هذه المرأة الجبلية لممارسة البغاء نتيجة لسقوطها في براثن بقال شاب أنست له، فاستغل فقرها وسذاجتها وحبها له، وألقى بها بعد أن مكنته من نفهسا⁴.

فحين التقاها الطوروسي أحبها ووفر لها الحماية من "البلطيخي" الذي يستغلها، وبعد ذلك غير اسمها من نجوى إلى أم حسن كما أمن لها بيتا بعيدا عن بيتها القديم كي تنسى الماضي وتبدأ حياة

¹ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 13.

² الشراع والعاصفة: ص 116.

³ الشراع والعاصفة: ص 113.

⁴ الشراع والعاصفة: ص 190.

جديدة¹. فأصبحت امرأة وديعة ومستسلمة لقوة الطروسي ورجولته بعد أن كانت امرأة متمردة عجز عنها الرجال لترويضها وإخضاعها². وتخلّى عن ماضيها فأعجب بها الطروسي³. فظهر موقفه للزواج معها بعد أن وجد منها الوفاء والحنان والإخلاص والدعم⁴.

فتخبرنا الرواية بأن المرأة الخاطئة فهي ليست شريرة بطبعها، بل هي ضحية لظروف اقتصادية واجتماعية، وعندما تتغير هذه الظروف تتغير شخصية الإنسان من الرذيلة إلى الفضيلة⁵.

شخصية شكيبية:

شكيبية من إحدى الشخصيات النسائية النامية في روايات حنا مينة التي اهتمت رواية "ياطر" برسمها. فهي تبدو أمام القارئ مشوقة حيوية مدهشة بساطتها وعفويتها. فهي امرأة دون الخامسة والعشرين، ذات شعر أسود يتلاعب بها الهواء، وعينين سوداوين. وكانت هذه المرأة الحليبية البشرة، ترتدي فوق جسدها الملفوف الممشوق وردفيها المدورين ثوبا أحمر تعلوه (صدرية) إضافة إلى شروال من الشيب المرقط بالأسود والأحمر يصل إلى الكاحلين. ومن النظرة الأولى يخمن الرائي أنها راعية تركمانية، كما تخبرنا الرواية بأنها ريفية لم تغادر بيتها، ولم تعرف المدينة، ويدل مظهرها الخارجي على فقرها⁶.

¹ أنظر الشراع والعاصفة: ص 114-119.

² الشراع والعاصفة: ص 116.

³ الشراع والعاصفة: ص 245.

⁴ أنظر الشراع والعاصفة: ص 345-346.

⁵ الماضي، شكري: ص 151.

⁶ أنظر الياطر حول هذه الصفات ، ص: 69، 236، 257، 45، 274، 75، 73، 47، 274، 40، 45، 77 على التوالي.

فلم تقدم الرواية هذه الأشياء صدفة بل تدريجيا، فيظهر أمام الراوي أن السرد محكوم بالسارد زكريا الذي يحكي عن سماتها من حسن وتدبير وحكمة وشجاعة: "وقبل أن تخطو تتبين موقع خطاها، وثبات الأرض من تحتها ومدى الخطر والسلامة في موقفها وهذا ما رفع من قدرها في نظري وأشعل لها فتيلًا في صدري. آمنت أنها جائعة وليست جشعة، وأن جوعها المشروع يطلب غذاء مشروعاً"¹.

ومع ذلك فهي تبدو أمام القارئ أكثر ثراء من حيث البعد النفسي من خلال حديث السارد أو الحوار أو المواقف والأحداث. فهي ذكية وحكيمة، وعلى فقرها عزيزة النفس كما هي رقيقة في عنادها وتحمل قلب الإنسانية وتحب رجلا إلى حد التضحية، إضافة إلى ذلك فهي تعامل مع رجل متجاوزة حاجز اللغة بينها وبينه. يجد البطل فيها كل ما يحب الرجل ويشتهي في الإنسانية الأنثى، حتى يخيل للقارئ أنها مجموعة نساء لا امرأة واحدة، شكية تحترم الرجولة ولا تهينها، تستطيع أن تقتل الرجل ولكن لا تسمح لنفسها بضربه لأن ذلك ليس من قيم ضعيتها، فهي تساعد الرجل وترفض أن يكون رجلها كاذبا أو محتالا أو مخادعا².

وبسبب شكية نرى تغييرا كبيرا في شخصية زكريا، فهو يتغير موقفه من الكون ومن المرأة ومن ذاته، صار يحب الغابة والشمس والحيوان ويعشق الجمال كما تغيرت نظريته إلى المرأة التي كان يظنها "بنصف عقل وأو بدونه بل أقل من ذلك ويعتبرها بطيخة"³.

¹ الياطر: ص 70.

² حول هذه الصفات ينظر في لياطر: ص: 21، 231، 249، 250، 66، 282، 253، 287، 257.

³ الياطر: ص 42.

فأقرّ الحقيقة بعد ذلك بأن المرأة هي مخلوق في رأسه عقل وليس هي بطيخة إذا جاع أكله منها. فهي صارت في نظره روحا وعقلا وجسدا يحتاج إلى صداقتها ، بل صارت كل شيء بالنسبة إليه، فهو يقر بنفسه: "شكيبه كل شيء أو لا شيء، يا إلهي أهذا يسمونه العشق؟"¹.

شخصية ربيحة رويشد:

في الحلقة الثالثة من روايات حنا مينة نجد شخصيات نسائية ثابتة ومن بينها ربيحة رويشد. فهي غير فاعلة أو متفاعلة مع الأحداث أو الشخصيات الأخرى². كما نرى تقدم الرواية صفات ربيحة رويشد دفعة واحدة وبأسلوب الحكاية، فهي شابة بيضاء البشرة سوداء الشعر تشي ملامحها وعطورها بثرائها. وحين تلتقى عبد الجليل الحصابوي تقدم نفسها إليه وتسرد عليه قصة حياتها طالبة إليها أن يحلل شخصيتها، كما أبدت لها حبها وعرضت عليه الزواج فنرى خلال أربعين صفحة قد تزوجت ربيحة أربع مرات وأمنت الخامسة كل ذلك روته بأسلوب تقريرى موجز وملخص³.

فهي تبدو غريبة الأطوار تعاني ضروبا من الشذوذ، كما بدت غير مقنعة بسلوكها وبحكاياتها المفتعلة⁴، فهي لا تبدو محافظة اجتماعيا، كما لا ترسم الرواية ربيحة من الداخل، فكل ما يتمكن القارئ من معرفته عنها هو تاريخ موجز ومسلسل لحكاياتها، الغريبة وغير المقنعة مع أزواجها. فهي شخصية ثابتة لا أثر عليها للتفاعل مع البيئة أو الشخصيات، كما لا تغير نظرتها للحياة.

¹ الياطر: ص 226.

² المرأة ذات الثوب الأسود: ص 36.

³ أنظر المرأة ذات الثوب الأسود: ص 40-79.

⁴ المرأة ذات الثوب الأسود: ص 40.

شخصية السيدة الإقطاعية:

ومن الشخصيات النسائية الثابتة زوجة الإقطاعي في "الشمس في يوم غائم" هذا صحيح أنها ثابتة لكن لثباتها دلالة، بل هذه الشخصية تساعدنا أن نستنتج موقف المرأة في ظل نظام اجتماعي واقتصادي يفتقد للعدالة، فهو قائم على الاستغلال والقمع.

نرى هذا النظام في رواية "الشمس في يوم غائم" من خلال عيني السارد الذي يرى فيها دجاجة "أرستقراطية" ويحلل سلوكها، ودوافع هذا السلوك حين تصفع امرأة القبو لأنها لا تريد من ابنها أن يكبر فتهيمن عليه امرأة أخرى، فهي تبدو "عبدة مفرغة من نقمة ال عبدة" فهي تستسلم لزوجها ولا تملك حتى أن تثور في وجه سلوكه المشين¹.

المناضل مثقفا وعاملا

يبدو أمام القارئ بأن معظم روايات حنا مينة تركز على قضايا الصراع الاجتماعي والوطني- في الحلقة الأولى والثانية- فلذا يجد الدارس فيها شخصيات مناضلة عددها كبير. تتجلى صورة المناضل في مظهرين: مظهر المناضل العامل ومظهر المناضل المثقف، وكل منهما يعلب دورا هاما.

يُعني بشخصية المناضل: الشخصية التي صارت قوى الظلم والاستغلال من أجل الآخرين. فالمناضل المثقف هو الذي عمل من أجل الجماعة ومعها جاعلا همها همه الخاص، مثاله كامل

¹ أنظر للتفصيل: الشمس في يوم غائم " ص: 125، 130، 129.

في "الشراع والعاصفة" وفياض في " الثلج يأتي من النافذة" والأستاذ ماهر في "نهاية رجل شجاع" وصلحي الشكوري في "الرحيل عند الغروب".

أما المناضل العامل فيقصد به ذلك الذي لم يتمتع بقسط وافر من التعليم إلا أنه يفهم الأشياء بانغماسه في حركة مجتمعه وصراعه مع تناقضاتها فيحصل على وعي يكفي لفهم المجتمع، فيسعى لتغيير ما هو كائن إلى ما هو أفضل، مثل عبد القادر في "المصايح الزرق" وخليل في "الثلج يأتي من النافذة" والخياط في "الشمس في يوم غائم"، ونرى في روايات حنا يلتقي المناضل العامل مع المناضل المثقف في أن كلا منهما يجعل من الهم العام هما خاصا ويسعى لرفع الظلم عن الآخرين ويستشرف الغد المشرق.

وغالبا نرى المناضل متوجها للبطل يقوم بتنقيف له مثل عبد القادر في "المصايح الزرق" تلقى فارس على يديه بعض مبادئ المناضلين. وفي "الشراع والعاصفة" تبدو صورة المناضل أكثر وضوحا، فهو يهتدي إلى مفهوم العدالة الاجتماعية بفضل الظروف التي عانى منها. فقد قام كامل بإرشاد العمال وتوجيههم إلى تكوين نقابة، كما تلقى الطروسي على يديه مبادئ النضال الاجتماعي والسياسي. تصور الرواية كاملا يعمل بهدوء وثقة وتفاؤل بعيدا عن الانفعال فهو يربط نفسه بين القضيتين الوطنية والاجتماعية¹.

¹ (الشراع والعاصفة: ص 149).

في نفس الرواية نجد نوعاً آخر من المناضلين المثقفين وهو دكتور صبحي الذي أغلق عيادته في اللاذقية وذهب مجاهداً بنفسه إلى فلسطين¹.

نرى دور المثقف هو نشر الوعي بين العمّال في رواية "الشراع والعاصفة" وهذا الدور يتغير في "الثلج يأتي من النافذة" بعامل هو الموجه. وهذا التغيير حدث بعد هزيمة حزيران كما استنتجه النقاد²، بعد دراسة الرواية العربية بشكل عام ورايات حنا بشكل خاص، حيث صورة البطل المثقف يبدو مهزوماً محبطاً محاصراً وعاجزاً عن الفعل الثوري كما أشار إليه احمد عطية³.

تشير رواية "الثلج يأتي من النافذة" إلى المواجهة بين المثقف والعامل إذ بدأ المثقف هنا متلقياً من العالم، بل هامشياً قبالة كما يرى بعض النقاد⁴. كما نرى في "الشمس في يوم غائم" ينمي الخيال مشاعر الرفض والتحرر لدى الفتى⁵.

أما في رواية "ياطر" فيختفي فيها المثقف تماماً، ويكتشف العامل أو الصياد زكريا نفسه والعالم من حوله من خلال إقامته في الغابة وتجربته المريرة مع الخوف والجوع والعري. كما يؤمن بعض النقاد بأن وجود العامل في "الثلج يأتي من النافذة" هو بسبب الإيمان بسيادة البروليتاريا⁶.

¹ الشراع والعاصفة: ص 140.

² الموسوي: الرواية العربية النشأة والتحول، ص: 132.

³ البطل الثوري، ص: 270.

⁴ الموسوي، ص: 132-270.

⁵ الماضي شكري، مرجع سابق، ص: 152.

⁶ ماضي شكري، ص: 132.

أما على صعيد الاتجاه الفكري فيسلك المناضلون على طريق واحد وهو العمل للعدالة الاجتماعية، ونقابات العمال والنضال الوطني السياسي يربطه بحبل النضال الاجتماعي. أما من ناحية الأسلوب فرسمت الروايات الأولى المناضل عبد القادر بالأسلوب التصويري خلال حركته حديث الآخرين، أما في " الثلج يأتي من النافذة" فنرى تصوير المثقف مشفوعا باستبطان عالمه الداخلي، هنا يتم تصوير الداخل عن فياض مرتبطا بالخارج، وبعد ذلك تبدو صورة المناضل بلا قضية، يدعيّ النضال بأسلوب تقريرية خلاف الواقع خير مثاله هو شخصية زبيد الشجري في " حديث بيتاخو". فنرى المناضلين يناضلون ضد قوة الاستعمار والاستغلال وبعد حزيران 1967 تبدو صورة المناضل مهزومة، أما في روايات الحلقة الأخيرة فتختفي صورة المناضل اختفاء تاما.

المناضل مثقفا: (الاستاذ كامل):

من أبرز شخصيات المناضل المثقفة في روايات حنا هي شخصية الأستاذ كامل، التي صورت من خلال حديث الآخرين ومن خلال حركتها في "الشراع والعاصفة" فهي تبدو نامية. رسمت الرواية الأستاذ كامل بصفات إيجابية. فهي تنسجم مع رؤية الرواية التي تؤمن بأن للمثقفين دورا في قيادة الجماهير ونشر الوعي بينهم، فهو يضحى من أجل أسرته. ومن صفاته الإيجابية، الحكمة وحسن التخطيط والقدرة على التأثير في الناس وفهمهم والذكاء الفائق¹.

¹ الشراع والعاصفة، ص: 147، 131، 145، 144، 142، 147، 149، 34، 310، على التوالي.

كما قدمت الرواية نكرانا للذات من أجل القضية التي نذر نفسه لخدمتها¹. كما فكر الأستاذ كامل في أحوال أسرته، جيرانه وأهل حيّه ومدينته ووطنه حيث أدرك معنى العدالة الاجتماعية " اهتدى إلى مفهومه السياسي والتزامه"². كما تصفه الرواية بأنه يعد الكفاح نوعاً من الحب³، يشير هذا الحوار إليه:

وما الفرق؟ لكل رأي ورأي هو سياسة والأشياء مترابطة، فلو لم يناضل الشعب ما تحقق الاستقلال ولولا الاستقلال ما استطاع الناس المطالبة بحقوقهم والحصول عليها"⁴.

فهو يعقد الاجتماعات لحقوق العمال، ويسعى إلى توحيد الصفوف بين الاتجاهات الوطنية من أجل النضال المشترك لتحقيق الجلاء، فهي شخصية واعية، للقضية الوطنية والاجتماعية⁵، الذي خلق نفس الوعي في طروسي.

المناضل عاملاً (خليل)

وبظهور هذه الشخصية في "الثلج يأتي من النافذة" يبدو تغيير جديد في روايات حنا على مستوى الشكل والمضمون، حيث قلبت معادلة المثقف العامل إذ صار خليل عامل الهاتف (الثلج يأتي من النافذة) وهو شبه أمي ولكن يرشد الكاتب فياض الهارب من دمشق إلى بيروت. كما صورت

¹ الشراع والعاصفة: ص 145.

² الشراع والعاصفة: ص 145.

³ الشراع والعاصفة: ص 146.

⁴ الشراع والعاصفة: ص 147.

⁵ الشراع والعاصفة: ص 309.

الرواية ملامحه الشخصية على لسان فياض، فهو جميل¹، ووحيد لوالديه العجوزين اللذين يشكون دائما لشغله في العملية النقابية، أما زوجته فهي تتعاطف معها².

فهو الوحيد لكسب المال لأسرته الفقيرة ولأجل مشاركة في نقابة العمال تواجه الأسرة بالفقر³، على الرغم من هذا فهو صابر ويحاول تسوية شؤون عائلته وطمأنينة والديه⁴، كما هو بعيد النظر⁵، صارم في إرادته فهو "عملي، تجريبي، إلى درجة مثيرة"⁶ كما يصفه فياض.

هو بمثابة معلم صارم لفياض، يلومه على تركه وطنه كما يقول: "كان يجب ألا تفعل" يشعر فياض بأنه يعامل معه كقاصر⁷، فيزيد غيظه تجاهه و يعمل في مطعم الجبل⁸، وهو الذي يقول له له "إن التجربة في المحك"⁹. كما يحثه على الكتابة.

الشخصيات الثرية والأجنبية:

تظهر روايات حنا مينة حساسية خاصة تجاه الشخصيات المحلية الثرية من الفئتين الإقطاعية والبورجوازية كما ترى أن مصالحها مرتبطة بقاء المحتل، وهي تؤكد على أهمية العلاقة بين القضيتين الاجتماعية والوطنية. نرى فيها معظم الشخصيات الثرية والأجنبية وهي ثابتة – خاصة الفرنسية- وكذلك بغیضة تسلب خيرات البلاد.

¹ الثلج يأتي من النافذة: ص 43.

² الثلج يأتي من النافذة: ص 22.

³ الثلج يأتي من النافذة: ص 221.

⁴ الثلج يأتي من النافذة: ص 221.

⁵ الثلج يأتي من النافذة: ص 230.

⁶ الثلج يأتي من النافذة: ص 24.

⁷ الثلج يأتي من النافذة: ص 92.

⁸ الثلج يأتي من النافذة: ص 50.

⁹ (غالي شكري:) والماضي شكري: انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية ص: 31.

عدد الأثرياء قليل بنسبة الفقراء التي عالجتها روايات حنا، فهي رسمت الأثرياء من الخارج. يقف هؤلاء الأثرياء ضد الحركة والتغيير، لأنها ليست في صالحهم، كما هم يسعون إلى استغلال الإنسان ويتحالفون مع الأجانب. والد الفتى في رواية "الشمس في يوم غائم" يصادق المستشار الفرنسي ويقضي سهراته معه، ويقمع كل حركة يقوم بها فلاّحو ضيعته، ويستغلهم أبشع استغلال¹.

هذه الشخصيات الأثرياء ثابتة، مثل الفرنسي الذي يعمل عنده فارس في "المصاييح الزرق" و المستشار وشخصيات الجنود الفرنسيين تصفها الرواية عابرا، كالجنود في "الشراع والعاصفة" والمستشار في "الشمس في يوم غائم". أما شخصية زخريادس في رواية "الياطر" فتظهر ملامحها بقدر من التفصيل. كما اختلفت صورة الأجنبي بدء من رواية "المرفأ البعيد" فبغض سعيد حزوم هنا للأجنبي ليس لأنه أجنبي بل لأنه مستغل².

مثل هذه الشخصيات الأجنبية تظهرها "تقدمية" كشخصية "أورتورا" قبطان السفينة "كاسل" الذي يشاركه الإيمان بالمبادئ المناوئة للفاشية³. كما تقدم الرواية شخصية بينوتي العامل من أوائل المنادين بالعمل النقابي في الميناء⁴.

¹ أنظر الشمس في يوم غائم: ص 79-80.

² المرفأ البعيد: ص 353.

³ نفس المصدر: ص 254.

⁴ نفس المصدر: ص 251.

شخصية أبي رشيد وشخصية العجوز: هناك شخصيتان بارزتان في روايات حنا، هما: شخصية أبي رشيد المحتر في "الشراع والعاصفة" وشخصية العجوز في "نهاية رجل شجاع". تصورهما الرواية بشكل متشابه.

تبدو شخصية أبي رشيد في "الشراع والعاصفة" لا ينم عن صلابة وعناد، فهو محتر النقل في الميناء، متواضع في سلوكه، لم يغير سراوله البحاري وسترته القصيرة المشقوقة من أسفل الظهر وشحاطته وطربوشة العادين¹.

عالجت الرواية سمات أبي رشيد بالإيجاز، كما تلخص أفعاله وأساليبه في منطقة نفوذه وهي الميناء "فالميناء منطقة وهو الذي يدير العمل فيها ... ويمول الحملات الانتخابية ويدعم بعض المرشحين حتى يفوزوا وهو إلى ذلك يرشو بعض كبار الموظفين ويدفع لبعض الفتيان العاطلين ولبعض المعوزين في مواسم الأعياد"².

ولكن عندما يشعر بخطر الطروسي الذي يهدده بتأليف عمال الميناء، يبعث بصالح برو الذي عجز أمام قوة الطروسي وبسالته فاستنجد بأبي أمين رئيس الميناء³.

ويخلع ثوب البساطة حين يلوح خطر من موظف، أو عمل نقابي، فيصبح عجوزا مقداما ضاريا، يقوم بحسن التدبير، وعندئذ تقع بعض الحوادث: يغرق مركب أو تحترق شاحنة، يضرب رجل أو ينقل موظف، يدفع المال ويتم خضوع المتمرد دونما ضجة أو إعلان، وكان البحارة وعمّال

¹ الشراع والعاصفة: ص 240.

² أنظر نفس المصدر: ص 39-40.

³ نفس المصدر: ص 38.

الميناء يعيشون في خوف دائم فمن يرضى عنه أبو رشيد يشتغل ومن يغضب عليه يترك الميناء، أو يغرق ذات يوم قضاء وقدرًا¹. هكذا تبدو هذه الشخصية ضيقة الأفق واسعة الحيلة والأساليب، بسيطة في الظاهر ولكن قوية ومخادعة في الداخل.

أما شخصية العجوز في "نهاية رجل شجاع" فتشبه بأبي رشيد من نواحي عديدة. كلاهما يهيمن على منطقة الميناء كما يبدو من خلال السارد. يحفظ العجوز التوازن في الميناء كله: "فهو القبة وهو العقد، وهو المرجع إذا تضاربت المصالح واحتدم الخطر، كلمة واحدة منه تميت وكلمة أخرى تنقذ"².

وكذلك يشبه أبو رشيد في شكله وبساطته، فهو ضئيل الحجم بسيط المظهر: "فمن هيكله الصغير تنقط الهيبة"³. كما هو يخفي تحت منظره البسيط قوة خارقة مسيطرة⁴.

هذه السمات كلها تظهر خلال وصف السارد ولا تتكلم هذه الشخصية إلا مرة عندما يقوم بترهيب مفيد بقتل صديقه حليش⁵. هذه الظاهرة من الأثرية تتكرر في روايات حنا فهم لا يتخلفون عن قتل الأبرياء لمصالحهم الخاصة، كالإقطاعي في "الشمس في يوم غائم" فتبدو هذه الشخصيات ثابتة.

من الأ جانب:

¹ الشراع والعاصفة: ص 35.
² نهاية رجل شجاع: ص 126.
³ نفس المصدر: ص 267.
⁴ نفس المصدر: ص 272.
⁵ نفس المصدر: ص 171.

شخصية زخريادس:

من الشخصيات الأجنبية التي احتلت حيزا لا بأس به في روايات الحلقتين الأولى والثانية، مقارنة بغيرها، هي شخصية الخمار اليوناني زخريادس في رواية "الياطر" رسمته الرواية بشاربين أشيبين معقوفين وعينين صغيرتين يطفح منها العزم وبكرش حرض زكريا على طعنه¹.

وهو بشع يسلب نقود الفقراء مقابل متع رخصية، كما صوره عديمة الغيرة والقيم الإنسانية². ترمز الرواية بهذه الشخصية إلى وجود الأجنبي المستغل الذي سلب ما في بطن الحوت مقابل ثمن تافه، فهو يمتص دماء الشعوب. كما تجعل الرواية من الحوت الثاني رمزا للخطر القادم عبر البحر.

الشخصيات الثانوية والمتعددة:

عدد الشخصيات الثانوية كبير في روايات حنا، وأغلبيتها تنتمي إلى أحياء المدينة الفقيرة أو إلى الريف، يلعب المكان دورا مهما في تعددها وتنوعها. تبدو هذه الشخصيات مفعمة بالحركة والحيوية ومتفاعلة مع ما يجري حولها. كما تلعب هذه الشخصيات دورا مشكورا في تجسيد الأفكار الواقعية. فنقدم هنا في كل المراحل الثلاث شخصية واحدة التي تمثلها.

¹ الياطر: ص 171.

² تخدم أم زخريادس الزبائن بجسدها، الياطر، ص: 40.

شخصية أحمد: هذه الشخصية الثانوية في "الشراع والعاصفة" تمثل المرحلة الأولى من روايات حنا. هو فتى الميناء¹. يحصل على الشهرة نتيجة إنقاذ مركب الرحموني مع الطروسي بعد أن كان هامشياً، وينظر إليه البحّار بنظر الاحتقار. فهو يقضى معظم أوقاته في قهوة الطروسي مستمعا لحكايات خليل العريال²، أو اللعب بالورق³. ينال أحمد العناية الكبيرة من الطروسي عندما أجاب على دعوته لإنقاذ مركب الرحموني إذ قال: "مستوى مياه الزورق يغطي أقدامنا" وقال أحمد كمن يخاطب نفسه: "لو رحمتنا السماء فتوقف المطر على الأقل"

- تعبت (سأله الطروسي)

- ما باطل

قال الطروسي في سره " هذا جواب. أنعشته النغمة"⁴. فوجده جادّ في العمل في حياته⁵، وقبّله بعد تردد. كما هو يشجعه الطروسي على المضي في طريقه الجديد. تصفه الرواية من نواحٍ شتى، وعندما تطوع الطروسي لإنقاذ مركب الرحموني نال إعجاب البحارة بفضل عمله وجرأته وضحيته، لأنه ألقى نفسه في الماء لإنقاذ المركب مخالفا لرأي الطروسي ليكون معه حتى النهاية عندما أمر الطروسي البحارة بالعودة إلى الميناء⁶.

¹ الشراع والعاصفة: ص 62.

² نفس المصدر: ص 72.

³ نفس المصدر: ص 186.

⁴ نفس المصدر: ص 241.

⁵ نفس المصدر: ص 241.

⁶ أنظر نفس المصدر، ص: 85، 185، 186، 154، 157، 244، 260.

كما نال عناية الطروسي بنقل الأسلحة للمجاهدين، هكذا بدأ حياة جديدة " وأن الزمن الذي كان ينتدب فيه لقضاء صغار الأمور قد ولى وإلى الأبد"¹. وعن طريق العمل يحقق أحمد ثقة باختيار الرحموني له بحارا على مركبه ومعاملته له كأحد أبنائه².

كما نال احترام من حوله وأولهم الطروسي الذي رفعه من خادم إلى بحار³. تبدو هذه الشخصية نامية.

شخصية أبي روكز: وهي تمثل الحلقة الثانية رسمت الرواية " الثلج يأتي من النافذة" شخصيته بأنه حُر في يقوم بالعمل اليدوي. وفي هذه الرواية يمارس البطل المثقف العمل اليدوي في لبنان فيسجد فجوات في شخصيته ويعود لمواصلة النضال في بلده.

يظهر هذا الشخص اللبناني ذو الأصول الجبلية في الثلث الأخير من الرواية، وهو يملك مصنع المسامير حيث يعمل فياض، وهو مريض كما هو قلق من عدم حرص الدولة على صيانة نوي الصناعات الصغيرة وحماية مخترعاتهم كما أشارت الرواية إليها، كأنها تقصد من خلال عرض هذه الشخصية مشكلة هذه الفئة⁴. نتعرف على هذه الشخصية من خلال حوارها مع فياض بما تعاني من الاضطراب والقلق⁵.

شخصية جيفرسون:

¹ نفس المصدر: ص 214.
² أنظر نفس المصدر: ص 254-260.
³ المصدر نفسه، ص: 266، 314، 260، 39، 254، 260.
⁴ أنظر الثلج يأتي من النافذة: ص 250-254.
⁵ أنظر لمزيد من التفصيل الثلج يأتي من النافذة: ص 331.

أما الشخصية الثانوية في الحلقة الثالثة من روايات حنا مينة، فهي تبدو بلا هدف وبلا قضية، يصعب على القارئ الوصول إلى نتيجة ما هي مهة هذه الشخصية، إذ تظل سماتها وأفعالها القليلة تتكرر في بداية الرواية حتى نهايتها. تقدم رواية "حدث في بيتاخو" شخصية جيفرسون من هذه الحلقة. فهذه الشخصية تعيش بلا هدف أو قضية كبقية شخصيات هذه الرواية.

خلاصة القول: يلاحظ الدراس في روايات حنا مينة أشياء كثيرة التي ظهرت فيها الشخصيات، مثل وجود الأسماء وغيابها، وتشابه شخصيات الروايات مع شخصيات القصص القصيرة للمؤلف. أما من ناحية وجود الأسماء وغيابها فتبدو الأسماء مكونة من كلمة أو إثنين أو ثلاثة، على سبيل المثال، فارس ميخائيل، مريم السوداء في "المصابيح الزرق" كما تدل هذه الأسماء على صفات المسمى مثل، كرم المجاهدي في "الربيع والخريف" كما نرى غياب أسماء الشخصيات كما حدث في "الشمس في يوم غائم" تقدم من خلال الوظيفة فقط مثل المستشار أو الخياط أو ضابط الإيقاع، فعندما تغيب الأسماء تركز على العام وتصويره أما في حال حضورها فتتركز على الخاص على إنسان بعينه. أما التشابه في شخصية الروايات والقصص القصيرة مثل شخصية "ديمتريو" فربما كانت النواة التي بنى الروائي روايته عليها

ولعل التشابه الكثير ما يلاحظه القارئ بين شخصية خليل في "الثلج يأتي من النافذة" وبين شخصية خياط في "الشمس في يوم غائم" وكذلك تشابه شخصية لبيبة في رواية "نهاية رجل شجاع" مع شخصية نجوى في "الشراع والعاصفة" وغيرها. هذا التشابه ربما لأنها عاشت أوضاعا اجتماعية واقتصادية مماثلة. فهي تعيش في معظمها في أحياء المدينة الفقيرة. كما نرى

مثل التشابه بين شخصية أبي رشيد وشخصية عجوز في الحلقتين الأولى والثانية. أما في الحلقة الثالثة فتبرز هذه الشخصيات ضبابية.

وبعد استقراء الشخصيات تتجلى للدارس أمور مهمة منها:

إن هذه الشخصيات كثيرة ومتنوعة من الكيفية التي ظهرت فيها الشخصيات تتجلى رؤية الكاتب ووظيفة الرواية. ومن هنا يجد الدارس أن شخصيات الحلقة الأولى والثانية معظمها تخوض الصراع مع قوى طبيعية واجتماعية وذاتية. كما تركز روايات الحلقة الأولى على الشخصية من الخارج، في حين تميل روايات الحلقة الثانية إلى استقصاء عالم الشخصيات الداخلي. ولأن قضاياها تدور حول الانتماء والعمل الجماعي والبحث عن العدالة الاجتماعية بأشكالها فإن كثيرا منها يدخل السجن، الذي يجدها مدرسة لتعليم النضال فتخرج الشخصية مسلحة بالروح النضالي. أما في الحلقة الثالثة والرويات التي ظهرت بعد عام 1990 فنجد فيها تباينا كبيرا. نرى هنا شخصيات ثابتة ومعظمها من فئة المثقفين إلا أنها بدت بلا قضية، تعيش من أجلها لا هم لها سوى التلذذ بالخمير وبالجنس.

أراء النقاد حول حنا مينة :

ثمة آراء متباينة – إيجابية وسلبية - حول أعمال الروائي حنا مينة، ولكن أغلب النقاد يتفقون على أن الروائي حنا مينة من أعظم من أنتجتهم سوريا في فن الرواية العربية، وهو من نخبة الروائيين في العالم العربي الذين تخطت شهرتهم حدود العالم العربي إلى العالم كله، فعدد كبير من رواياته ترجم إلى لغات عالمية، فوصفه الكاتب التونسي رشيد الغزي على أنه كاتب

واقعي مناضل مستشهدا ببعض أقوال حنا مينة الواردة في كتابه " هواجس في التجربة الروائية". فهو يعتقد أنه أحبّ الفقراء ودافع عنهم وقدمهم في نضالهم من أجل الخبز وضد الاحتلال والإقطاع والرأسمالية¹. كما أطرى قاسم في مقال منشور له في جريدة الصباح "حنا مينة القصاص الروائي السوري الذي يتميز في الأدب العربي بقدراته الفنية العالية إذ كتب روايات ممتازة وقصصا جيدة، وهكذا أصبح أحد كبار الروائيين العرب². وأما محمد معالي فيقدمه على هذا النحو: "هذا هو الروائي الكبير الذي نلتقي به من خلال كتابه الجديد "هواجس في التجربة الروائية"³. وكذلك الناقد علي الراعي فيقدم حنا مينة بأنه روائي سوري متميز⁴.

ويثير فاروق عبد القادر موضوع البحر الذي يجعل من " الشراع والعاصفة" أفضل رواية عربية⁵. ويقارن بين الطروسي وزوربا و بينة وبين سانتياغو. كما تثير رواية "الربيع والخريف" لدى حسن بن يوسف تجربة معيشة و يعلن أن حنا مينة هو كاتبه المفضل⁶.

أما عبد الرزاق عيد ينطلق في مقاله " تأملات نظرية في أدب حنا مينة" من تحليل نظري يتعلق بوضعية الماركسية في الفكر العربي الحديث فيرى أن الماركسية لا تمثل سلاحا معرفيا

¹ أنظر الحياة الثقافية، ص 13.

² الصباح، 1984-3-27

³ أطروحات عدد 2، 1983، ص 71.

⁴ العربي، عدد 254، ص 194.

⁵ الهلال 1979 أوت ص 61.

⁶ تشرين، 1985-1-30.

لتغيير البنى التحتية لسببين أولهما أن الطبقة العمالية ليست في طليعة النضال من أجل التغيير، ثم إن الرأسمالية بالنضال الاجتماعي القادر على إنتاج ثقافة عمالية¹.

هكذا يظل درو المثقف ذا أهمية قصوى، فهو المعبر عن وعي القوى الاجتماعية التقدمية. ينظر حنا مينة إلى الحياة والتاريخ بعقله وقلبه وخياله، وبالإضافة إلى أن آثار حنا مينة تنتمي إلى اتجاه يتميز في الأدب العربي عامة بصياغة مثاله الجمالي من خلال نموذج البطل في الشعر والرواية والقصة².

يكشف حنا مينة الإمكانيات الأسطورية لدى الإنسان ويسعى صنع الله إبراهيم المصري إلى إبراز حقارة الإنسان و غربته، وبذلك يتصل الخلاف بين الكاتبين بمفهوم المعرفة والجمال عندهما، ويصبح الكاتب السوري كاتباً ثورياً و أحد المناضلين الذين ساهموا في إبراز الماركسية لا باعتبارها موقفاً سياسياً فقط بل باعتبارها رؤية للمعرفة والجمال³.

وقد أُلح كذلك بعض النقاد على إبراز المظهر الإيديولوجي في أعمال حنا مينة. فالرجل يؤكد على العلاقة السياسية في الثلاثية معتبراً حنا كاتب سياسة. كما سعى محمد معالي إلى تقديم مقارنة سياسية لروايات حنا مينة من خلال تحليله للواقعية ودفاعه عنها، في حين لاحظ إبراهيم السعافين التناقض في مفهوم المرأة لدى الكاتب و قد برره بكثافة التحليل الإيديولوجي الذي يغطي حركة الشخص⁴.

¹ دراسات اشتراكية، عدد 10.

² أنظر دراسات اشتراكية، ص 135.

³ أنظر دراسات اشتراكية، ص 144.

⁴ إنظر الأعلام، عدد 7، 1980، ص 34.

مكانته بين الروائيين: حنا مينة لم ينل حتى شهادة البكالوريوس كما سبق ذكره وعلى الرغم من ذلك نراه خلال رواياته بأنه شخصية عظيمة. وهو يقدم بواسطة رواياته المختلفة أفكاره وأراه في لباس الواقعية، وهو يؤمن بالواقعية الإشتراكية و يؤيدها طول حياته. يحتل حنا مينة -رائد الأدب البحري- مكانة مرموقة في الأدب العربي ويأتي في المقام الثاني في مجال الرواية العربية بعد نجيب محفوظ. هو كاتب واقعي كثير الانجاز، كتب أكثر من أربعين روايات. يحمل روح النضال والآفاق الواسعة في فهم الكون وما يدور حوله. هاجسه من وراء الكتابة كلها فهو "تغييري ينشد في آخر المطاف، تحقيق العدالة الاجتماعية، حلم البشرية الذهبي"¹.

حنا مينة مبدع شديد العناية بالقضايا الوطنية والقومية والاجتماعية والإنسانية والحضارية في إبداعاته الكثيرة.

حنا مينة .. من لم يغترف من نهره السردى الساحر فليرفع إصبعه .. حنا مينة مدونة سردية غزيرة بخصبها وخصبة بغزا رتها، تقف في الصف الأول من قافلة الرواية العربية الحديثة بكل جدارة واستحقاق، أشتهى الأصدقاء أم امتعض الأعداء²... كما قدمه حيسن جمعة بقوله "هو الإنسان، هذا الذي به، ومعه، تصدح الدنيا بفخر لا حد له"³.

¹ حوارات.. وأحاديث في الحياة والكتابة الروائية : ص 39.

² د . محمد صابر عبيد (العراق) وقائع الندوة النقدية التكريمية للمبدع حنا مينة، ص 5.

³ د. حيسن جمعة (سورية) كلمة اتحاد كتاب العرب، وقائع الندوة النقدية التكريمية للمبدع حنا مينة، ص 7.

نتائج البحث

لقد وجدنا حنا مينة من خلال هذه الدراسة روائياً كبيراً فإنه هو الذي أعطى للرواية السورية شكلاً وملامح متميزة وجديدة، وفتح أمامها الأبواب والآفاق الممتدة إلى الشرق والغرب، وأصبحت روايته "ديوان العرب" في العصر الحديث لسوريا، كما طارت شهرتها بكونها قصيدة البحر وملحمة روائية اجتماعية لدى النقاد والدارسين. واستطاع الروائي من خلالها أن يبني عالماً روائياً متماسكاً أظهر فيه بطولة الإنسان ونضاله من أجل الحرية والعدالة الاجتماعية والمساواة والحب. وخرجت رواياته على القواعد المرسومة واحتفظت بطرافتها، فهي مع قيامها بالتحليل المادي والجدلي، تقدم بطلاً لا يزال يعيش إشكاليته الاجتماعية ولا يجد التصالح النهائي.

وبعد دراسة شخصيته ورواياته وصلنا إلى نتائج نذكر أهمها فيما يلي:

تنقسم روايات حنا مينة باعتبار المعالجة إلى ثلاثة أقسام وهي:

• الروايات الأتوبيوغرافية

• الروايات التسجيلية

• الروايات ذات البطل الإشكالي أو الواقعية الجديدة.

كما تنقسم روايات حنا مينة باعتبار مسارها الروائي إلى ثلاث حلقات و كل حلقة تضم روايات وتتميز كل حلقة في أسلوبها وموضوعاتها.

- لقد اتخذ البحر مسرحاً لخواتمه وأفكاره الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.
- القضايا الاجتماعية في رواياته تتمثل في الاشتراكية، والحديث عن المرأة ووضعها، والنضال الاجتماعي، والصراع الاجتماعي بين طبقات المجتمع المختلفة.
- الفقر والتشرد هما ظاهرتان كبيرتان في رواياته المتسمة بالوقوف عند القضايا الاجتماعية.
- فساد النظام والظلم من قبل الأيدي الأجنبية بـ"اسم الانتداب" هما من أهم قضايا السياسية.
- ثقافة حنا مينة غير واسعة، ولكن خبراته الطويلة في كد العيش والمعاشة بين الطبقات المهمشة والتشرد في المناطق المختلفة داخل البلاد وخارجها، ووظائفه المختلفة هي زودتها بالمعرفة وأهلتها لدخول عالم الإبداع الروائي.
- إن أعمال وحياة حنا مينة كلها تدل على كفاحه ونضاله لأجل استعادة ذاته ووطنه الذي مازال في براثن الاستعمار والاحتلال منذ أمد بعيد.
- أعمال حنا مينة توضح جهد حنا مينة من الصبا لأجل المستقبل المشرق بواسطة الواقعية الاشتراكية.
- بعد دراسة عابرة لحياة الشخصية و تحولاتها المتعددة نجد رواياته تبدو لوحات من سيرته الذاتية.

● إنه رائد أدب البحر في الرواية العربية و"الشراع والعاصفة" هي اللبنة الأولى في الأدب البحري في العالم العربي.

● تتصدى معظم رواياته لعدد من القضايا الاجتماعية، من أهمها قضية الصراع الاجتماعي، وقضية المرأة، وقضية النضال، وقضية الفقر والهامشية، وقضية الاستغلال والاحتكار.

● كما عثرنا على دلالات للانتماء إلى الجماعة والعمل الجماعي، والاحتلال والاستعمار الغاشم الفرنسي، والمقاومة ضد المظاهرة الاجتماعية من الاستغلال الاجتماعي.

● إن حنا مينة في المرحلة الأخيرة أي في الحلقة الثالثة لم يبق مصابرا على التزامه الاجتماعي والوقوف عند القضايا الاجتماعية كما كان قبله.

● إن أعمال وحياة حنا مينة عبارة عن الكفاح والنضال.

● تبدو شخصية حنا مينة من خلال رواياته أنها شخصية تفاعلية غير متشائمة.

هذه هي بعض أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث، وأعترف بأن هذه دراسة ناقصة لا تحيط بكافة جوانب الموضوع حق الإحاطة، ولكنني أمل أن هذه الدراسة سوف تفتح آفاقا جديدة للبحث في أدب المبدع السوري العظيم حنا مينة التي تتجلى حياته أمامنا حافلة بالرموز والدلالات الكثيرة.

المصادر والمراجع

المصادر

1. حنا مينة، المصاييح الزرق، ، دار الآداب، بيروت، 1954.
2. حنا مينة، الثلج يأتي من النافذة، دار الآداب، بيروت، 1969.
3. حنا مينة، الشمس في يوم غائم، دار الآداب، بيروت ، 1973.
4. حنا مينة، الياطر، دار الآداب، بيروت 1975.
5. حنا مينة، بقايا صور، دار الآداب، بيروت 1975.
6. حنا مينة، المرفأ البعيد، دار الآداب، بيروت 1975.
7. حنا مينة، أدب الحرب، دراسة بالاشتراك مع د. نجاح العطار، دار الآداب، بيروت 1976.
8. حنا مينة، الأبنوسة البيضاء، مجموعة قصصية، دار الآداب بيروت، 1976.
9. حنا مينة، المستنقع، دار الآداب ، بيروت ، 1977.
10. حنا مينة، المرصد، دار الآداب، بيروت 1980.
11. حنا مينة، حكاية بحار، دار الآداب، بيروت ، 1981
12. حنا مينة، الدقل، دار الآداب، بيروت 1982.
13. حنا مينة، هواجس في التجربة الروائية ، دار الآداب، بيروت 1982.

14. حنا مينة، الربيع والخريف، دار الآداب، بيروت 1984.
15. حنا مينة، نهاية رجل شجاع، دار الآداب، بيروت ، 1989.
16. حنا مينة، المرأة ذات الثوب الأسود، دار الآداب، بيروت 1996.
17. حنا مينة، المغامرة الأخيرة، دار الآداب، بيروت 1996.
18. حنا مينة، الرجل الذي يكره نفسه، دار الآداب، بيروت 1998.
19. حنا مينة، البحر والسفينة ، حنا مينا ، دار الآداب، بيروت ، 2002.
20. حنا مينة، الذئب الأسود، دار الآداب، بيروت 2005.
21. حنا مينة، الشراع والعاصفة، دار الآداب، بيروت، الطبعة التاسعة 2006.

المراجع

(العربية):

1. بدوان، سمير قطامي، إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر، حياته و شعره، جامعة القاهرة، كليات الآداب، 1969.
2. أمل، محمد خطيب، عالم حنا مينة الروائي،، دار الآداب بيروت 1979.
3. سليمان، نبيل، الرواية السورية، منشورات الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1982.
4. علي، سرد محمد، خطط الشام، مؤسسة النوري للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1983.
5. طرابيشي، جورج، الرجولة وأيديولوجية الرجولة فى الرواية العربية، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 1983.

6. مكاربيوس، شاهين، حسر اللثام، دار ومكتبة بيبليون، 1985.
7. أنطونيوس، جورج، و أنطونيوس الأسد، ناصر الدين، يقظة العرب، دار العلوم للمايين 1987.
8. البارودي، محمد، حنا مينا: كاتب الكفاح والفرح، بيروت، لبنان، دار الآداب 1993.
9. كامل، سماحة فريال، رسم الشخصية في روايات حنا مينه، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1999م.
10. الحمارنة، سمر، هكذا قرأت حنا مينه، دار الطليعة الجديدة، بيروت ، 2001.

(الأجنبية):

1. Annuaire del, Afrigue et du moyem, orier, 1979, art syrie.
2. Greater Syria: The History of an Ambition by, Daniel
3. Grand Larous encyclopedique, art syrie, 1 ed. Paris 1964.
4. History of Syria Including Lebanon and Palestine, Macmillan, New York, 1951.
5. Pipes Publisher: Oxford University Press, USA (March 26, 1992)

(المجلات):

1. "Creating Phantoms": Zaki al-Arsuzi, the Alexandretta Crisis, and the Formation of Modern Arab Nationalism in Syria, Keith D. Watenpaugh Source: International Journal of Middle East Studies, Vol. 28, No. 3 (Aug., 1996), pp. 363-389 Published by: Cambridge University Press.
2. Oklahoma Najib Mahfuz: Nobel Laureate in Literature, 1988 Author, Roger Allen, World Literature Today, Vol. 63, No. 1 (Winter, 1989), pp. 5-9 Published by: Board of Regents of the University of Oklahoma.
3. The Socio-Aesthetics of Contemporary Arabic Fiction: An Introduction: Muhsin Jassim Ali, Journal of Arabic Literature, Vol. 14 (1983), pp. 67-84 Published by BIRLL.
4. The Silences of Contemporary Syrian Literature Author, Mohja Kahf, World Literature Today, Vol. 75, No. 2 (Spring, 2001), pp. 224-236, Published by: Board of Regents of the University of Oklahoma.
5. The Contemporary Arabic Novel in Perspective Author, Muhammad Siddiq, World Literature Today, Vol. 60, No. 2, Literatures of the Middle East: A Fertile Crescent (Spring, 1986), pp. 206-211 Published by: Board of Regents of the University of Oklahoma.
6. The Unfolding of Modern Fiction and Arab Memory, Elias Khoury, The Journal of the Midwest Modern Language Association, Vol. 23, No. 1 (Spring, 1990), pp. 1-8 Published by: Midwest Modern Language Association.
7. The Transformation of Reality and the Arabic Novel's Aesthetic Response, Sabry Hafez, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, Vol. 57, No. 1, In Honour of J. E. Wansbrough

(1994), pp. 93-112Published by: Cambridge University Press on behalf of
School of Oriental and African Studies.

Al Qadhaya Al Ijtemaiyah was Siyasiyah fi Riwayaati Hanna Mina

[Socio-Political Issues in the Novels of Hanna Mina]

Thesis submitted to the Jawaharlal Nehru University in

Partial fulfillment of the requirements for the awards

Of the degree of

DOCTOR OF PHILOSOPHY

BY

Shabab Anwar

Under the supervision of

Prof. Mujeebur Rahman



**Centre for Arabic and African Studies
School of Languages, Literature & Culture Studies
Jawaharlal Nehru University**

New Delhi - 110067, INDIA

2017